د. أحمد خيري العمري



صَلّى الله عَليهِ وَسلّم

دليل الحاج إلى مناسك العمران

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى عائشة، زوجتي.

أفضل ما حدث لي، بعد الإسلام.

ح أحمد خيري العمري 1435 هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمري أحمد خيري
طوفان محمد / أحمد خيري العمري - جدة ،1435هـ

ردمك : 2 - 1748 - 01 - 603 - 979

1 - الإسلام والمجتمع 2 - العقيدة الإسلامية 3 - الحج ومفاهيمه

رقم الإيداع 2763/1434

ردمك : 2 - 1748 - 01 - 603 - 979

"تطلب كتب الدكتور أحمد خيري العمري من الوكيل
الحصري في الأردن كتاب اكسبرس "
الاتصال هاتف : 0798229923

مقدمة

في فجر اليوم الذي توجهت فيه إلى مكة لأداء فريضة الحج، تذكرت أني، منذ غادرت بغداد، صرت بلا بيت، صرت أسكن - وأسرتي - في بيوت مستأجرة..
لم يكن بيتي في بغداد هو الأكبر أو الأحدث أو الأفخم بين كل ما سكنت من بيوت.. لكنه كان (بيتي)..
منذ أن غادرت بغداد، لم يعد هناك (بيتي).. فقط بيت مستأجر، أقول هذا وأنا أدرك أن بعض الناس لا تملك حتى هذا الخيار..
كنت سأتجه يومها إلى البيت العتيق..
إلى أول بيت وضع للناس.
غمرني شعور يومها بأني أغادر اليوم فقط إلى بيتي الحقيقي.
إلى بيتي فعلا..
وأن بيتي الذي في بغداد، كان مجرد محطة استراحة.. لكن (بيتي) كان في مكان آخر..
بيت الله ذاك وضع للناس.. للناس مثلي الذين بلا بيوت، والذين يملكون بالكاد سقفاً يأويهم.. وأيضا للذين يملكون قصوراً فارهة.. كما للذين لا يملكون حتى أن يستأجروا سقفاً لهم ولأولادهم.

البيت..
البيت حقا، بيتك العتيق حقا، ليس بيت الطفولة ولا البيت الذي بنيته بجهدك وعرقك ومالك.
بل ذاك..
الذي ببكة.
والذي كنت أتوجه له يومها..
عندما تذكرت فجراً أني صرت بلا بيت...

** * * * **

يفتشون الحقائب بأجهزة المراقبة سريعا.
ثم يزنونها.
لا يعرفون أن ما نحمله حقاً لا يمكن رصده بأي جهاز مهما بلغ من تطور.
لا يعرفون ما تحمله القلوب.
لا يعرفون أوزان الذنوب التي نحملها معنا، رغبة في أن تُمحى هناك..
لا يعرفون..
وربما لا نعرف نحن..

** * * * **

وكنت أحمل معي، شخصاً ما..
أريد أن أتخلص منه بأي طريقة..!!
أريده أن يتغير..
أريد أن لا يعود معي..

** * * * **

في المطار، في قاعة الانتظار، هاتفٌ ما يرن باستمرار..
لا أحد يرد.
لا نعرف أين الهاتف. لا نعرف إن كان صاحبه قد نسيه في مكان ما.
لكن رنين الهاتف مستمر. على نحو مربك مزعج.
لا أحد يرد عليه.
كما لو أن هناك من يقول لنا:
هاتف ما.. في أعماقكم..

اسمعوه.. فتشوا عنه..
وحاولوا أن تلبوا نداءه...

**   * * *   **

يبدأ الحج في لحظة صعبة..
في لحظة ما..
ربما ليس عند قرارك بأن تقدم أوراقك للحج.
بل في لحظة ما، عندما **تكتشف أنك حقاً بحاجة للحج.**
عندما تكتشف **بأنك مستعد لمواجهة ذاتك. لأن تكون عارياً تماماً من أي ورقة توت تغطي عوراتك.**

عندما تكتشف أنك مستعدٌ لتواجه من يمكن أن يكون أخطر أعداءك: **نفسك التي بين جنبيك**.. عندما تكون مستعداً لتواجهها كما تواجه وجهك في المرآة..
فأنت تكون قد بدأت الرحلة..
بطريقة ما..

**   * * *   **

من فج عميق.. موجود في أعماق أعماقك.. فج لم يره أحد، لم تتفاخر به أمام أحد..
من فج عميق.. والفج هو السبيل بين واديين[٣٠] ..

وفي داخلك وديان وسهول.. جبال وتضاريس وعرة..
وقارات مجهولة.. كنوز ومناجم.
وفج عميق.
عميق..
عميق..
لا يعرف عنه أحد..
من هذا الفج..
تخرج أنت.. تتسلق.. تزحف..
تلبي ذلك النداء.. ذلك الهاتف..

---
٣٠ لسان العرب : مادة فجج

من فج ما، في أعماق نفسك، وأنت مكور على نفسك كقنفذ..
ستخرج لتقول لنفسك..
آن لك أن تتخلى عن أشواكك..
وأن تذهب إلى البيت العتيق..
إلى بيتك..
آن لك أن تترك الفج العميق،حيث سكنت منذ أن ولدت، وتذهب إلى البيت**!**

** * * * **

وعندما تبدأ بإعداد حقيبتك وما تحتاجه للحج..
ستأخذ ملابس الإحرام، ربما أكثر من طقم، والصابون غير المعطر، وكمية كبيرة من الأدوية احتياطا، والمراهم التي تقي جلدك بين الساقين من الاحتكاك... إلخ.
سيتبرع كل حاج سابق بنصائحه المستقاة من خبرته وتجاربه..
وستفيدك تجاربهم حتما.
لكن.
قبل أن تحزم حقائبك.
قبل أن تغلقها.
تذكر..
أن خير الزاد، هو التقوى..
في كل رحلة.. في رحلة حياتك كلها..
ولكن بالذات في هذه الرحلة..

** * * * **

قبل أن أغادر قرأت في أصل كلمة (لبيك) أنها تعود إلى الفعل (لبب)[٣١] وتعني **لُبُّ كلِّ شيءٍ ولُبابُه خالِصُه وخِيارُه وقد غَلَبَ اللُّبُّ على ما يؤكل داخلُه.**
لبيك مشتقة من هذا.
من الجوهر.
من الأعماق..

---
٣١ لسان العرب : مادة لبب

لبيك اللهم لبيك، التلبية التي هي جزء من المناسك، مشتقة من هذا.. من جوهرك وعمقك ومن كل ما هو أنت حقاً..

يضربك المعنى كالصاعقة.

لا يمكن أن تنطقها، تلك التلبية إن لم تكن خارجة من أعماق أعماقك..

لا يمكن لك أن تجعلها على طرف لسانك، إن لم تخرج من لبّك.

لبيك اللهم لبيك..

تغمرك تلك الحقيقة بالتدريج.. بعد أن ضربتك أولاً كالصاعقة..

** * * * **

تعلن مختلف شركات الطيران الجوية عن رحلاتها إلى مختلف عواصم العالم.

طائرة إلى فرانكفوت. إلى لندن. إلى باريس.

عواصم براقة لأسمائها بريق جذابٌ بلا شك.

لكن وهجها يخبو أمام رحلتك التي تنتظرها..

هل هناك مدينة في العالم التصق النور بها، أكثر من التصاق النور بالمدينة المنورة..

المدينة المنورة.. النور فيها، يجعل كل أضواء العالم، رغم بهرجها، شاحبة وكئيبة، مثل ضوء نيون، يوشك على الانطفاء..

ستمر عليك أسماء المدن وأنت تنتظر رحلتك.. جنيف ولوكسبمورغ وأمستردام وكل المدن المزدهرة.

البعض من المسافرين إلى هناك، يمنون أنفسهم بإجازة ممتعة في جبال الألب..

.. أما أنت، فلا تريد الألب..

بل تريد جبال القلب..

تريد سهوله وأغواره وكل تضاريسه.

** * * * **

وعندما يعلن الصوت ذاته عن رحلتك، سيزقزق قلبك ببهجة كما لو أنه سيعود إلى عشه بعد طول ترحال..

ستشعر أن قلبك يشتاق ويحن إلى ما لم يره من قبل..

ثم تتذكر..

نعم..

إنه مشتاق إلى بيته العتيق..

حتى لو لم يزره من قبل..

** * * * **

قالوا لك ، فيما قالوا ، أن ثمة قارات ست في هذا العالم..

وربما قيل لك ،بين الأسطورة والخيال، أن ثمة قارة سابعة أخرى..مفقودة...

اليوم أنت على أبواب اكتشاف تلك القارة المفقودة..

لكنها لن تكون في قعر الأطلسي كما توهموا...

بل في أعماقك أنت...

في قعرك الذي عليك أن ترتفع لتصل إليه !..

قعرك الذي هو قمتك في الوقت نفسه..

** * * * **

وعندما تقلع الطائرة..
ستشعر أن فكرة الحج بحد ذاتها قائمة على (**إقلاع**) ما..
أن تقلع عن الكثير مما كنته..

أن يكون هذا الإقلاع اقتلاعاً للكثير من جذورك التي نبتت في المكان الخطأ والتربة الخطأ..

عندما تقلع الطائرة، سيكون هناك أمامك شخص يتأملك ببرود..

وأنت تريد أن تقول له: أريد أن أعود من دونك..

هذا الشخص هو النسخة القديمة منك..
وقد آن وقت اقتلاع رأسه.
قبل أن يقتلع هو رأسك.

** * * * **

الطائرة تقلع.

ينشغل المضيفون والمضيفات في أداء تعليمات النجاة للمسافرين..

تسرح بعيداً عنهم..

تعليمات نجاتك الحقيقية مختلفة.

فكرتك عن النجاة مختلفة.

كل رحلتك الآن، هي من أجل أن تنجو..

ستتوهم في البداية أن الرحلة لنجاتك أنت، لتكتشف لاحقا وبالتدريج، أنها لنجاة الجميع!

الفصل الأول

خلف أسوار الحج

لا يمكن لحاجٍ أو مقبلٍ على الحج إلا أن يذهب إلى سورة الحج.
على الأقل، لا أتخيل إلا أن يحدث ذلك.
على الأقل هذا ما حدث معي..
قراءةً واستماعاً..
كلما سنحت لي الفرصة.. سورة الحج..
كانت مثل مغناطيس هائل الحجم، لا أملك إلا أن أنجذب تجاهه.. مثل ثقب أسود عملاق - يبتلعني بالتدريج.. وكنت كلما دخلت هذا الثقب الأسود، اكتشف أن النور يصبح فيه أكثر بريقا.. كان الثقب أسود، لكنه يؤدي إلى الضوء..
نعم.
كانت تجربة قراءة سورة الحج، قبل الحج.. مختلفة، ومهيبة..
كانت بمثابة عملية تهيئة لما هو قادم..
كانت السورة تقدم مشاهد خاطفة، مثل دعاية مبهرة عن فلم ملحمي..
لكنك كنت تفاجأ بأن اسمك ضمن الأبطال..!!
كانت السورة تثير أسئلة وتساؤلات..
وتعدك أن تجد الجواب، هناك.. عندما تذهب..

** *** **

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا

مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)». (الحج: ٢٥- ٣٧)

اثنتا عشرة آية إذن، في منتصف السورة تقريبا.. هي التي ترتبط بالحج، وهي التي سميت السورة باسمها..

اثنتا عشرة آية مركزية، لا بد أن يكون لها معان ممتدة في كل السورة، لا بد أن يكون لها ارتباطاتها في السورة كلها..

اثنتا عشرة آية، كافية لمنحنا تأشيرة حج..!

** * * * **

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ».

الكافرون يصدون عن سبيل الله!

وسبيل الله واسع، والطرق إليه متعددة..

لكنها بوجهة واحدة.

إنها من كل صوب..

لكن اتجاهها واحد.. بمقصد واحد..

المسجد الحرام.. البيت العتيق..

فلنضع خطاً تحت كلمة (**مقصد**) هنا، ونضع لها ملفا، سنعود لها لاحقا..

لكن الكفار هنا، في هذا السياق، يصدون عن سبيل الله..

يصدون عن سبيل الله المتجه إلى البيت الحرام..

فما هو هذا الصد؟

** * * * **

الصد هو المنع..
وهذا واضح. وكان كفار مكة في تلك المرحلة (مرحلة ما بعد الخندق وقبلها بطبيعة الحال)، يمنعون المسلمين من دخول مكة..
لكن للصد أشكال أخرى.. لعله من المفيد أن نقف عندها ونحن على أبواب رحلة الحج..

** * * * **

الصد لغة فيه معان كثيرة[30]، منها المنع.
ومنها أيضا الإعراض.
والفرق كبير بين المعنيين.
المنع أن تمنع غيرك.
ولكن الإعراض نوع من اللامبالاة الشخصية.
نوع من الخيار الشخصي الذي يعرض عن سبيل الله ويختار السبل الأخرى، ربما تحت مسميات كثيرة..
ويصدون تعني أيضاً يضجون، ويضحكون، وقريبة منها يصفقون (كما في تصدية) .
وهذا كله يفيد **الإلهاء المفضي إلى ترك السبيل..**
الضجة والضحك هنا، هما مثل (التشويش) الذي يمنعك من التركيز في طريق.
هما ليسا عقبة واضحة مثل حاجز عسكري مزود بحراسة تمنعك من (السبيل).
لكنهما يشوشان عليك خيارك. يلهيانك عن الاختيار الصواب. يضعان لك (مشتتات) على الدرب.
الصد هو هذا أيضا..

** * * * **

لكن الصد أيضا يمكن أن يكون شيئاً آخر.. أقل ضجيجاً.. وأعمق أثراً..
«وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ». (النمل: ٤٣)
قال الزجّاج: المعنى صدها عن الإيمان العادة التي كانت عليها لأنها نشأت ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشمس[31]
العادة إذن تصد عن سبيل الله..
تصد عن السبيل إلى بيت الله.. المسجد الحرام.

---
٣٠ لسان العرب : مادة صدد
٣١ زاد المسير ، الجزء السادس ص ١٧٩

نعم.
لا ننتبه لذلك ربما، لكن أثر العادة، يكون أحياناً أكبر من أثر حاجز عسكري يمنعك من المضي في سبيل الله..
نحن في الغالب **أسرى عاداتنا**..
لا يمنعنا الكافرون من سبيل الله بقدر ما تمنعنا عادات صارت كالوحش الهائل الذي يكبلنا. بل أسوأ... الوحش الهائل نعرف أنه وحش ونتوق للخلاص منه. أما العادات فهي بقوة وسطوة الوحش لكننا لا نعدها كذلك لأننا تعودنا عليها. بل إننا نعدها (نحن)، نعد هذه العادات (شخصيتنا وحريتنا الشخصية) والحقيقة أنها مثل أغلال هائلة لا مرئية تكبلنا وتكبل تحركاتنا وسلوكياتنا دون أن نشعر.
قد تبدو العادة مثل قط لطيف هادئ. لكنها ستكون مثل وحش الأساطير إذا ما حاولت أن تزيح خيوطها الملتفة حولك..
نعم.. كثيرا ما يكون الصد عن سبيل الله ليس من قبل «كفار مكة» أو نوابهم المعاصرين المنتشرين في أرجاء عالمنا اليوم.. بل منا نحن.. نصد أنفسنا صداً عن سبيل الله دون أن ندرك ذلك.. تعودنا على نمط حياة مليئة بالتفاصيل المتشعبة التي تلهينا وتشتت انتباهنا عن (سبيل الله).. ليس بالضرورة أن يكون هذا النمط مضاداً لسبيل الله صراحة.. لكنه باختصار **نمط آخر، يضع سبيلا آخر، بقصد آخر، ومنطلق آخر، وقد يضع عليه (يافطة) كبيرة تقول إن هذه هي سبيل الله.. ليصد عن سبيل الله الحق..**
نعم..
حياتنا أحيانا هي ما تصدنا عن سبيل الله..
بكل ما فيها من عادات وتفاصيل.. بكل ما فيها أحيانا مما صرنا نعتبره بديهيات لا تقبل النقاش.

** * * * **

تريد أن تمضي قدماً في سبيل الله؟
يجب أن تعرف إذن، أن من يصدك عنه أحيانا هو **أنت**.
نعم.. يحاول الآخرون ذلك، بعضهم يكون صريحاً إلى درجة السذاجة..
ولكن البعض الآخر، يفعل ذلك على نحو ملتوٍ..
يلهيك، يضج ليشتتك، يساهم في تكوين سبل أخرى ستنخدع بها..

نعم. هم يفعلون ذلك.
المهم أن لا تكون شريكاً لهم في ذلك.

** * * * **

«وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ»

تعودنا على تسمية **الكعبة بالمسجد الحرام**.. دون أن نفكر في السبب وراء ذلك.
وفي هذا خطأ مزدوج..
الخطأ الأول هو عدم التفكير في السبب. نأخذ الأمور كما تعودنا عليها كمن يعرض عن الماس المدفون في الأحجار.. نتجاهل أن **التنقيب بحثاً عن المعنى قد يدلنا على كنوز تثبتنا وتوسع من عوالمنا**، وأن فشلنا في العثور على المعنى لا يعني عدم وجوده بل يعني فشلنا في ذلك فحسب. **قصور عقولنا عن إدراك المعاني في آية ما**.. لا يعني **فشل (العقل الإنساني) عن ذلك في محاولات لاحقة**. فالنصوص القرآنية نزلت (لقوم يعقلون)، وهذا يعني أن العقل يمكن له أن يتبين ويستكشف معانيها، حتى لو قصر عن إدراك كل تلك المعاني في مرة واحدة.
و الخطأ الثاني هو الافتراض أن المسجد الحرام هو الكعبة وحرمها المحيط بها فحسب.

لفظة المسجد الحرام تتكرر في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعاً، ويراد به أربعة معانٍ:

الأول: الكعبة ذاتها..
كما في قوله تعالى **« ومِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»**. (البقرة: ١٤٩)

الثاني: يعني المسجد حول الكعبة ومنه قوله تعالى **«أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»**. (التوبة: ١٩)

الثالث: الحرم كله كما في قوله تعالى

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الإسراء: ١)

أحمد

وهو إنما أسري به من بيت أم هانئ.

الرابع: مكة كلها كما في قوله تعالى

«ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». (البقرة: ١٩٦)

المسجد الحرام إذن ليس ما نراه في الصور والتقاويم. ليس ما انطبع في الصورة الذهنية من كونها الكعبة والمسجد من حولها.

بل هو يمتد أبعد من ذلك، إلى أن يشمل مكة كلها.. بل مكان المشاعر كلها..

هل لهذا من معنى؟

حتماً. إنه تذكير بأن الأرض كلها مسجد.. وأن السجود ليس مجرد (هيئة السجود).. بل هو الخضوع المطلق لأوامر الله في كل شيء، في العمل والبناء والعدل.. كل عمل تخضع فيه لله هو سجود بمعنى ما، وموضع الطاعة هو مسجدك.. والأرض كلها مسجدك..

المسجد الحرام الذي يتوسع في الاستخدام القرآني من حدود الكعبة ليضم مكة كلها وما حولها من مشاعر أحيانا، يذكرك بهذه الحقيقة.. **حقيقة أن السجود ليس هيئة (جسدية).. بل هو وضعية حياة**..

وحقيقة أخرى لا تقل أهمية: **أن الأرض كلها مسجد.. وليس ذلك المسجد عند ناصية الشارع فحسب**..

الأرض كلها مسجد ينتظرك أن تسجد فيه، فلنقل إن الأرض كلها مسجد قد حصل على الترخيص واجتاز كل الإجراءات القانونية والإدارية..

لكن هذا المسجد ينتظرك لتبنيه..

** * * * **

فلنتذكر هنا أن الآيات الكريمة ربطت سبيل الله بالمسجد الحرام!

سبيل الله الذي يقود إلى المسجد الحرام..

نعم..

ليس إلى (الكعبة) وما حولها فقط..

بل إلى المسجد الحرام الذي يمكن أن يكون الأرض كلها..

** * * * **

فلنتذكر أن السياق هنا كان يتحدث عن الصد عن سبيل الله..
فلنتذكر أيضا أن الصد هنا قد ينبع منك، كما (منهم).
وأنه يهدف، لا إلى منعك من الذهاب إلى المسجد الذي في مكة فحسب،
بل إلى منعك من تحويل الأرض.. إلى مسجد..
من باب أولى..

** * * * **

فهمنا إذن أنه مسجد.. وأن الأرض كلها مسجد..
فلم هو حرام؟
لم سمي بـ (المسجد الحرام)؟
لأن الله **حرّمها**، جعلها نموذجاً دائماً لما يجب أن نتذكره في كل موضع..
في فتح مكة وقف عليه الصلاة والسلام ليقول لنا وللجميع..

«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»[٣٢] .

القتال فيه محرم!
وكذلك الأرض كلها، يوم نفلح في جعلها مسجداً حراماً، يوم نستطيع أن نقضي على دواعي القتال، يوم ننتصر على كل من يريد أن يحلل الحرام ويحرم الحلال، على كل من يريد أن يفسد في الأرض ويسفك فيها الدماء، مبرراً تساؤل الملائكة يوم أبلغهم رب العزة بأنه (جاعل في الأرض خليفة)..
نعم..
المسجد الحرام حرام على هؤلاء..
وسبيل الله سيقودنا يوماً إلى جعل الأرض كلها (حرام).. لا قتال فيها..

** * * * **

فلنتذكر هنا، أن سبيل الله، الذي قاد إلى المسجد الحرام، إلى فتح مكة، قد مر بمعارك وغزوات، وأن هذا السبيل قد سالت فيه دماء كثيرة..
الطريق إلى **أن تصل إلى مرحلة اللاقتال، سيمر بقتال حتما..**
الطريق إلى أن تصل إلى ألا يزهق دم، سيزهق فيه دم كثير..

---

٣٢ متفق عليه صحيح البخاري ٣١٨٩ صحيح مسلم ٣٣٦٨

ولو اعتقدت أنك ستصل بطريق آخر، لا قتال فيه، ولا دم، فعلى الأغلب لن تصل إلى ما تريد..

** * * * **

لكن المسجد الحرام له حرمة أخرى..
إنه محرم على المشركين..

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». (التوبة: ٢٨)

بل إن حرمة القتال فيه، تستوجب وتستلزم أن يحرم دخول الكافرين والمشركين فيه..
فلكي تحقق اللاقتال، عليك أن تحقق أولا: لا كفار!

** * * * **

«الذي جعلناه للناس»!!!

الناس كلهم!
سترافقنا كلمة الناس، هنا، نضع تحتها أكثر من خط، نضعها في ملف ونأخذه معنا لأننا سنحتاجه حتما..
هذا المسجد الحرام هو للناس.. لكل الناس.
وما الناس؟ من هم الناس؟
الناس جمع إنسان. إنه كل ابن آدم..
وآدم هو الذي تسلم، نيابة عن كل أولاده، ذلك المنصب الذي خلقه الله له، وخلقه هو ليتسلم هذا المنصب..
الخليفة في الأرض!
كل إنسان، ينتمي إلى سلالة آدم، مهما كان لونه (الحالي!) ومهما كانت لغته، أو قوميته، أو عشيرته، مهما كانت مكانته الاجتماعية، أو تحصيله العلمي، أو رصيده في البنك، كل إنسان، مهما كان، كيفما كان، وأينما كان، وُضع هذا المسجد له..
الدعوة عامة للجميع..
الشرط الوحيد هو أن يكون إنساناً حقاً..

أي خلل في هذا الشرط، أي خدش فيه، سيجعل من تلبية الدعوة غير ممكنة..

كن إنساناً فحسب، كما خلقك الله، بمعزل عن كل ظروفك الأخرى، **كن إنساناً لا يظن نفسه إلهاً.. ولا يظن أن هناك إنساناً يمكن أن يكون مكان الإله.. فيكون المسجد الحرام قد وضع لك..**

لكن إن تخليت عن كونك إنساناً، إن توهمت أنك إله يمكن أن يفعل ويشرع وينفذ ما يريد، إن توهمت أن الإنسان يمكن له أن يفعل ذلك، فالمسجد الحرام ليس لك..

حتى لو ذهبت إليه!

** * * * **

لكن ألا يتعارض ذلك مع ما قلناه (حرمة دخول المشركين)..

أليسوا ناسا؟ أليس الكافر إنساناً أيضاً؟

هو إنسان تخلى عن إنسانيته.. هو إنسان فضل أن يتخلى عن أنبل وأجمل وأفضل ما فيه.. إنه هو من تنازل عن جواز سفره الذي يسمح له بدخول المسجد الحرام..

فلا يلومن إلا نفسه..

ولكن بدلاً من اللوم..

يستطيع أن يسترجع جوازه..

إنسانيته..

** * * * **

«سواءً العاكفُ فيه والباد»

شرف المكان ومكانته، لا يجب أن يوهم أي أحد من المقيمين فيه، بشرف إضافي فوق الحقيقة التي تشرف الجميع، كل بني آدم..

لا شيء غير كونك ابنا لآدم الذي تولى منصب الخليفة في الأرض.

ليس لأنك من تلك العشيرة أو هذه الأمة.. ليس لأن دمك أزرق أو أصفر أو من أي لون.. ليس لأنك من شعب يتوهم نفسه مختاراً أو أمة تعتقد أنها تحتكر الخير..

الكل سواء..

من يسكن في المسجد الحرام، أو وُلد فيه، أو امتلك أي شيء فيه، لا يملك أي مكانة إضافية عما يمتلكه القادم إليه من أقصى الأرض..

والآية تسمي من يسكن مكة (عاكفا).. وعكف تعني (أقام) و(لزم).. فهو مجرد مقيم أو ملازم لها، لم يوصف بأن ينسب لمكة كما يوصف عادة أهل المدن..

أهل مكة ليسوا سكانها فقط.. وربما هناك من سكانها من هو ليس (أهلا) لها.. أهل مكة هم من يتطلعون لها.. حتى لو كانوا في أبعد أصقاع الأرض.. حتى لو كانوا بدواً..

وكلمة (الباد) التي استخدمها القرآن الكريم تستوجب أن نقف عندها.

الباد هو من أهل البادية.. وقد انتبه المفسرون إلى أن ذلك لا يكفي لوصف من يأتي إلى المسجد الحرام ممن هو ليس بـ (عاكف) فيه.. فبعض من يردون الحرم يكونون أهل مدن.. وليسوا أهل بادية بالضرورة.. فقال المفسرون إن المقصود بـ (الباد) هم أهل البادية ومن يقدمون عليهم (أي من يمرون بالبادية في طريقهم إلى الحرم)..

لكن ربما كان هناك معنى إضافي لا يتعارض مع ما ذكر ولكن يتكامل معه..

ربما كنا كلنا بدواً بطريقة ما، ما لم نكن في المسجد الحرام، عند (البيت العتيق)..

ربما كنا بدواً في الشتات.. مهما كانت مدننا عريقة وعامرة.. مهما كانت مظاهر التحضر حولنا مزدحمة، ما لم نكن متجهين هناك..

ربما كل أماكن إقامتنا ومنازلنا وبيوتنا التي نبنيها من عرقنا وجهدنا، **ربما كانت كلها مجرد خيم في صحراء رملية متحركة،** والشيء الوحيد الذي يبقى، الذي يمكن أن (نعكف عليه) حقاً، هو ذلك المسجد الحرام، **عندما يكون في وجداننا وعقولنا كما في قلوبنا.. عندما تكون الأرض، كل الأرض، في أذهاننا هي المسجد الهدف..**

كلنا غرباء، شتات، **بدو رحل في صحراء قاحلة نزينها عبثا بنباتات صناعية،** ما لم نعتكف على هذا الهدف.

في مسجد حرام.. هو الأرض كلها..

** * * * **

«وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ»

بعض من سيأتي المسجد الحرام، سيكون مائلاً عن الهدف الحقيقي.. سيأتي لأغراض أخرى.. ستكون له مآرب وغايات، تتناقض مع (القصد) وراء المجيء إلى المسجد الحرام..

قد تكون هذه المآرب تتنافى مع فكرة السجود نفسها..

وقد تهدف إلى فعل الحرام في الأرض الحرام..

بعضهم سيأتي إلى المسجد الحرام ليمارس الشرك..

كان يحدث ذلك مع الأصنام..

ويحدث دوماً مع مظاهر مختلفة للشرك، قد لا تكون في شكل أصنام، **لكن في تعلق وثني يخرق فكرة السجود نفسها..**
بل يحدث مع كل ظلم في الحرم.. حتى احتكار الطعام في الحرم (إلحاد)..
هناك من يصد. بأنواع مختلفة من أنواع الصدود..
وهناك من يذهب.. ولكن بإلحاد.. مختلف أيضا..
وللصنفين عذاب..

** * * * **

كلمة (إلحاد) مشتقة من الفعل (لحد)، وتعني حرفيا: **الشَّقُّ الذي يكون في جانب القبر موضِع الميت لأَنه قد أُمِيل عن وسَط إِلى جانبه[٣٣] ومنه جاء معنى الميل والعدول عن الشيء، ومن هذا جاء معنى «الشك في الله» والذي ساد واستقر بمعنى إنكار وجود الله..**

ولكن ارتباط المعنى (السائد) بالفعل لحد (المرتبط بشق القبر)، يجعلنا نفكر..
هل الأمر مرتبط فقط بالشق في جانب القبر، أم أنه مرتبط أيضاً، بأن الملحد **قد وضع نفسه في قبر ما، وأن حياته، مهما بدت ممتعة بالنسبة له، إلا أنها حبيسة في قبر مفرغ من الحياة حقا، ما دامت بعيدة عن الحياة التي أرادها الله له..** العصاة والجهلة قد لا يلتزمون بأوامر الله، وقد يخالفونها، ويرتكبون منهياته، لكن وضعهم مختلف.. الملحدون وضعوا أنفسهم في قبر وأهالوا التراب على أنفسهم بأيديهم. القبر مظلم وضيق وموحش. وكذلك حياة من لا يؤمن بالله.. من لا يؤمن بوجوده أصلا..

كيف يستطيع هؤلاء حقا أن يواصلوا الحياة.. أن يواجهوا يومهم.. أن يعيشوا حياتهم.. دون أن يكون هناك إيمان بإله في قلوبهم؟
كيف يستطيعون؟

لا يستطيعون حقا. إنهم يعيشون في قبر ما. يحيط بهم من جميع الجهات.
يسيرون به ويأخذونه معهم في كل مكان.. ويعرقل تفاعلهم مع كل ما هو حقيقي في هذه الحياة..

لا تغرك إنجازاتهم ومنجزاتهم. لا تغرك حياة الطول والعرض التي يتوهمون أنهم

---
٣٣ لسان العرب مادة لحد

يعيشونها..

فأقصى ما يملكون من طول وعرض هو قياسات القبر المحيط بهم.

** * * * **

«وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ»

فلننتبه إلى أن الآيات الكريمة تتحدث عن (مكان البيت)، وأنها تتحدث عن إرشاد إبراهيم لمكان البيت، بل تتحدث عن رجوعه إليه، فـ (بوأنا) مشتقة من الفعل (باء) الذي يعني (رجع)[٣٤] ..

لماذا رجع إبراهيم إلى مكان البيت؟ هل كان مبنياً قبل ذلك كي يرجع إليه إبراهيم؟

هل نقول عن شيء - لم يبن بعد - عندما نذهب إليه أننا نرجع إليه؟

حفلت كتب التفسير بقصة بناء البيت من قبل آدم، وأحيانا الملائكة قبل آدم، لكن كل ذلك لم يكن بسند صحيح، ورائحة الإسرائيليات فيه واضحة. بل إنه يخالف ما اتفق عليه من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام..

عن إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ - رضى الله عنه - قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ قَالَ «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ «الْمَسْجِدُ الأَقْصَى». قُلْتُ كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا قَالَ «أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ»[٣٥] .

الحديث لا يقول صراحة هنا إن أول من بناه هو إبراهيم. لكن الفرق الزمني بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى كما يحدده الحديث هو أربعون سنة، وهذا ما يجعل بناءه على عهد آدم أو قبله أمر مستحيل، ويقترب أكثر من كون إبراهيم هو أول من بنى المسجد الحرام، ويتسق هذا مع كون يعقوب (إسرائيل) هو من بنى المسجد الأقصى، والأربعون سنة مسافة معقولة بين إبراهيم وحفيده يعقوب.

لماذا (رجع) إذن؟ لم استخدم الخطاب القرآني لفظاً يفهم على أنه الرجوع، كما يفهم أيضا على أنه (الإنزال) – كما في

«وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (يونس: ٩٣)

---

٣٤ لسان العرب مادة باء

٣٥ متفق عليه صحيح البخاري ٣٣٦٦ صحيح مسلم ١١٨٩

هل الآية تقول لنا إن إبراهيم أنزل مكان البيت فقط؟
ربما..
ولكن ربما أيضا **رجع**..

** * * * **

ربما يكون رجع، **كما نشتاق جميعا أحياناً لما لم نره من قبل.. لكنه يسكننا بطريقة غامضة.. كما يحدث حين نزور مكاناً لم يسبق لنا أن كنا فيه..**
ولكن، يهيمن علينا شعور لا نفهم كنهه بأننا كنا هناك.. أننا رأينا المكان من قبل.. أننا زرناه.. شعور غامض على طرف لسانك وفي ركن روحك.. نعم.. لقد كنت هنا من قبل.. وأنت واثق تماما أن ذلك لم يحدث.. تدرك تماما أن ذلك لم يحدث..
هل كان ذلك في حلم ما؟ في ليلة منسية؟ نسيت تفاصيله وبقيت ذكراه عالقة في روحك؟ .. لعله كان كذلك..

** * * * **

ذلك البيت، لم يكن حلم ليلة ما..
بل كان حلم الليالي كلها.. حتى الليالي التي لم تحلم فيها..
هذا البيت، كان حلماً يتجول في أصقاع روحك كل ليلة، دون أن تعلم ذلك، لكن كل ما هو آدمي فيك كان يتوق إلى البيت، إلى بيت ما يؤويه ويضمد جراح غربته منذ أن خرج آدم من الجنة..
ربما كنا نحمل معنا، من إرث آدم، **هذا الحنين الغامض للمكان، هذا الحنين الغامض للاستقرار في البيت، في بيت نشعر أنه بيتنا حقا**، أنه مستقرنا حقا.. أننا يمكن أن نبيت فيه ونغمض أعيننا ونحن مطمئنون أننا في المكان الصواب..
ربما كنا نشعر جميعاً، بطريقة ما، بأننا مشردون في عقر دورنا، وأنها جميعا بيوت مستأجرة رغم سندات الملكية..
ربما كنا نشعر جميعاً بأننا يجب أن نرجع إلى ما لم نكن فيه من قبل..
ولكننا نكتمل بالرجوع إليه..

** * * * **

وربما كان الرجوع هنا له علاقة بوجود **(مرجعية)** محددة وواضحة المعالم.
مرجعية نعود إليها في حياتنا، في مواجهاتنا، مع أنفسنا وخياراتنا ومفترقات طرقنا..
مرجعية تتجاوز الأشخاص والأفراد العابرين إلى ما هو أبعد بكثير.. إلى ما هو

أعمق بكثير.. إلى ما ما هو أعرق بكثير..
المرجعية هنا لن تكون أشخاصاً يمثلون طائفتك أو مذهبك أو أقليتك أو أكثريتك أو انتماءك الحزبي أو السياسي أو الأيديولوجي..
المرجعية هنا تمثل تجربة إنسانية بهدى إلهي، وهي تجربة عريقة وقديمة على نحو يحميها ويحصنها من أن تختطف أو تحتكر لحساب أي طرف..
قدمها الموغل في العراقة، وقداستها المجردة من تقديس الأشخاص الذين قاموا بها، يجعلانها المرجعية حقا..
ذلك البيت هو الرمز لكل هذا.. هو المرجع لك في كل شيء..
ولهذا فأنت تتجه إليه في كل صلاة تصليها.. ولهذا فإن قبلتك تكون عنده تحديداً..
كل مرجعيتك، كل ما ترجع إليه في حياتك، تجده مختصراً في اتجاهك إلى ذاك البيت.. تجده مكثفاً في وضعك لسجادة الصلاة باتجاه القبلة..
نعم..
ترجع.. كما رجع إبراهيم.

** * * * **

مكان البيت..
مكان البيت محدد مسبقاً إذن.
ولكن إبراهيم هو أول من بناه..
سيتكرر البناء.. سيتواصل لاحقاً عبر أشكال متعددة وتجارب متراكمة تجد قبلتها في التجربة الأم..
سيبدأ الأمر بتحديد مكان البيت..
ثم ببنائه ورفعه.. وتطهيره..
مرة بعد مرة، سننتبه إلى وجود ما يشبه (الخطة) المتعلقة بهذا البيت..
تضع كلمة (**خطة**) في ملف آخر، وتضع الملف في ذهنك..
مفردة (الخطة) ستتكرر في الحج كثيراً..

** * * * **

«أن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».
السياق هنا لا يقول «ابن بيتي»..
يقول لا تشرك بي شيئا..

هذه هي القاعدة الأساسية..
هنا حجر الأساس للبناء..
هنا البناء.. على هذه القاعدة يحدث البناء..
نفي الشرك، هو القاعدة الأساسية لبناء البيت..
التوحيد الخالص، ضد الشرك، هو ذلك الحجر الأساس.. اللا مرئي، ولكن الداخل في كل حجر من أحجار البناء..
التوحيد الخالص، ضد كل أنوع الشرك، (ولا تشرك بي شيئا.. أي شيء.. سواء كان هذا الشيء حجراً أو خيالاً أو أيديولوجية أو نظام حكم أو نمط حياة أو هوى شخصي.. أي شيء) هذا التوحيد الخالص هو مادة البناء الأساسية.. الحجر الذي جلبه إبراهيم من جبال مكة.. كان مجرد وسيلة.. لكن البناء الحقيقي، القاعدة الأساسية للبناء.. خطته وخارطته.. كانت وستبقى في التوحيد.

** * * * **

لكن السياق لا يشير إلى لفظ بناء (ليس هنا في هذه السورة على الأقل).
بل يقول «طهر بيتي»..
والتطهير أعمق من البناء.. البناء تشييد.. وضع حجر على آخر..
لكن التطهير، عملية أعمق وأعقد، إنه **عملية انتقاء كل حجر.. كل لبنة من لبنات البناء، عملية إدامة مستمرة للبناء**.. تنظيف مستمر من كل ما يمكن أن يلحق به من نجس ولو بعد اكتمال البناء..
تطهير البيت عملية تستلزم صيانة البيت فأنت تتابعها بعد إنجاز البناء أيضا.. عملية التطهير مستمرة مثل عملية إدامة البناء وتنظيفه من كل ما يمكن أن ينجسه لاحقا.. سواء كان هذا ثلمة في البناء، أو حشرات تجوب في أرجائه، أو قذارة متعمدة توضع فيه..
والثلمة، أو الحشرات، أو القذر.. كلها أمور مادية، ومن الضروري الانتباه لها، ولكن وجهها المعنوي هو ما يعنينا، ما دمنا قد قررنا أن الحجر الأساس هو التوحيد.. فإن النجس هو كل ما يمكن أن يشوب هذا البناء فيفسد التوحيد فيه..
قد يكون هذا واضحاً جلياً في أصنام وأوثان كما في عهد كفار قريش..
وقد يكون أشد خفاء، **ممثلاً في تقديس وغلو** لأشخاص كانوا أبعد ما يكونون عن

هذا النجس.. بحيث يكونون أوثانا ذهنية، دون أن يصبوا في قوالب التماثيل..
وقد يكون أعقد وأعقد..
في أيديولوجية، أو عقيدة، أو نمط حياة، تتعايش مع البيت الحرام، مع وجود البيت الحرام، ولكن تحاول أن تضع (قفصاً) هائل الحجم فوقه.. تحيده.. تعزله.. تجعله مجرد مكان لأداء الشعائر وتكفير الذنوب دون أي معنى في الحياة اليومية للملايين من الناس..
نعم..
كل هذا نجس..
وكل هذا يحتاج إلى تطهير مستمر..
مستمر..
وليس تاريخاً مر وانتهى..

** * * * **

«للطائفين والقائمين والركع السجود»

سنكون معهم، طوافا.. قياما.. ركوعا.. سجودا..
وسنفهم كل حالة من هذه الحالات.. سنكون فيها..

** * * * **

لكن لماذا إبراهيم؟!
لماذا إبراهيم هو من يُبَوَّأ له المكان.. ليبني البيت ويطهره؟
لماذا إبراهيم تحديداً..
لأن من حطم الأوثان، هو الأولى، بأن يكون معوله، معول الهدم، هو الذي يستخدم للبناء..
اليد التي هدمت هي الأولى بالبناء..
ليست اليد فقط.
العقل الذي اكتشف خواء الأوثان، وزيف كل المقدسات التي يعبدها البشر من دون الله هو العقل الذي يمكن أن يستثمر في البناء..
هو الذي يمكن أن يقوم بالبناء..

العقل الذي اكتشف قدراته في تلك الليلة التي أشرق فيها العقل ليطرد خفافيش الخرافة والظلام.. هو العقل الذي يمتلك القدرة على البناء والتطهير المستمر..
عقل إبراهيم.. الذي اكتشف بنفسه حدود العقل وسقفه، واكتشف أن هذه الحدود ممتدة بما يكفي للكثير من الإنجاز.. وأن السقف عال بما يسع بضع سماوات..
هذا العقل الإبراهيمي، عقل المسلم الأول، هو الأولى بكل هذا البناء.. بكل ما يتعلق به..

** * * * **

«وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ».
والأذان هو الإعلام.. إعلام الناس، تبليغهم بالحج..
فلنتذكر هنا مفردة (الناس).. جمع إنسان، كل من لم يتخل عن إنسانيته.. المسجد وضع للناس، والخطاب موجه لكل الناس، والتبليغ بالحج، هو لكل الناس..
كل من لم يتخل عن إنسانيته، وضع المسجد له، والبيت بيته، والدعوة وصلته، عبر الأذان..
كيف تنتقل هذه الدعوة، وإبراهيم في تلك الصحراء القاحلة؟ كيف يصل صوته وهو يكاد يكون وحده إلا من ربه، وزوجته وولده؟
كيف سيأتي الناس وهم لا يسمعون؟
لا عليك.
اعمل بالسنن التي يمكنك أن تعمل من خلالها.
وستأتي سنن أخرى، ربما من خلال ناس آخرين..
وسيصل صوتك عبرها..

** * * * **

ولعل السؤال راود إبراهيم، هو أبو التساؤلات التي غيرت التاريخ.. لعله قال: كيف سيصل صوتي لآذانهم؟
لقد سأل الله قبلها أن يريه كيف يحيى الموتى، ليصل إلى طمأنينة القلب..
لكنه في هذه المرحلة، كان قد وصل ليقين لا تساؤل فيه.. بعد كل الدرب الذي سار، صار يعلم حدود العقل أكثر من قبل.. يعرف إمكانات العقل الهائلة.. ويعرف كيف يسخر نتائجه لما يجب أن يسخر له..
لقد زادته رحلة الحياة خبرة ويقينا..

لذا، حتى وإن راوده سؤال ما، فلن يسأل..

** * * * **

لعله وقف على جبال مكة، رافعا صوته مؤذناً بالحج..
لعل الصدى أخبره بأن لا مجيب..
ولعله بدا لفترة أن لا مجيب حقاً..
لكن في عالم السنن اللامرئية، **كان الصوت يرحل، والأصداء تضخمه، وبطريقة ما، كان يرحل عبر الصحارى والوديان والسهول، بطريقة ما يرحل ليصل الناس،** بطريقة ما كان يغزو الآذان.. كان يصل المسامع، يتسرب منها إلى العقول، ثم يهبط إلى القلوب..
بطريقة ما كانوا يلبون..
إنه بيتهم العتيق.. كلهم مشردون وإن كانوا مقيمين في قصور فارهة أو بيوت ورثوها أبا عن جد..
لذا كان لا بد.. كان لا بد أن يلبوا.. عندما تصل إلى مسامعهم الدعوة إلى أن يقصدوا (البيت)..

** * * * **

كل مشروع كبير، كل مشروع طموح، سيصطدم حتماً بعقبات كبيرة..
من ضمنها عقبة تجعل تحقيق المشروع يبدو مستحيلاً..
مثل أن تؤذن على جبل، مطل على واد غير ذي زرع، لا بشر فيه.. وتتوقع أن يلبي أحد..
كل مشروع كبير.. كان يجد أمامه حتماً شيئاً كهذا..
لكن في عالم السنن، يمكن لمحتضر على الساحل أن يكتب حلمه ومشروعه وخطته، ويضعها في قنينة زجاجية ويرميها في البحر ثم يموت بسلام..
ثم تجد القنينة موجة تنقلها إلى من يساهم في تحقيق هذا المشروع.. ولو مرحلياً..
إلى أن تكون هناك موجة أخرى.. وأخرى.. وأخرى.. تصل به إلى كماله..
لا يعني هذا عدم التخطيط المسبق، بل يعني العمل بالممكن إلى أقصى حد ممكن..
فإن وصل الممكن إلى طريق مسدود..
اعمل وأنت تعلم أن هناك ثغرة ستسربه إلى أفق آخر..

** * * * **

«رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ».

سيأتي البعض راجلين..

وآخرون سيأتون راكبين..

سيبقى هذا التفاوت قائما.. ربما لن ترى من يسير من دولة إلى أخرى على قدميه.. لكنك سترى حتماً وسائل نقل مختلفة، يشي اختلافها بتفاوت المستوى المادي للقادمين..

هناك من سيستغرق منه الدرب أسابيع، في باصات مهلهلة لا تكاد توفر لهم أبسط مقومات الراحة..

وهناك من سيأتي في مقصورة الدرجة الأولى - أو درجة رجال الأعمال – وهناك من سيأتي بين هذا وذاك، لكنه دفع في هذا ما وفره لسنين..

سيأتون..

رجالا.. أو راكبين.. من كل مكان..

** * * * **

«مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»[٣٦]**.**

الفج هو الطريق بين جبلين ..

أوسع قليلاً من شعب الجبال.. لكنه يتحدد بكونه بين جبلين..

وقيل: كل طريق بعيد هو فج..

.. دوما ثمة جبلان..

دوماً هناك جبلان عليك أن تسير بينهما..

دوماً هناك طريق عليك أن تشقه بصعوبة.. تتلمسه..

دوماً **ثمة جبلان يحاولان شدك إلى هذا الاتجاه أو ذاك، يوهمانك أنه المنارة والقبلة، يوهمانك أن العالم يتحدد به، وأن قمة أي من الاتجاهين هي قمة العالم..**

دوماً ثمة قطبان، يحددان لك مسيرك.. ويحجبان عنك الرؤية..

لكن..

دوماً هناك خيار..

أن تشق طريقك بينهما.. رغما عنهما..

---

٣٦ لسان العرب مادة فجج

أن تتحدى وعورة الطريق..
لكي تذهب إلى حيث يجب أن تذهب..

** * * * **

هل هذان الجبلان هما في داخلك يا ترى؟
هل هما من ضمن تضاريسك؟
هل أنت حبيس في الوادي السحيق بين جبلين داخل نفسك؟
هل الشيطان قد وقف لك هناك، في آخر الدرب بينهما، يقول لك أن لا تعبر الطريق، أن تبقى محاصراً بين جبلين.. أن لا تحاول..
بين جبلين.. ربما في داخل نفسك، ربما تعرفهما حق المعرفة، وربما كانا مثل قارتين مجهولتين..
تقف وحيداً..

...
ثم تقرر أن تشق طريقك..
لتلبي النداء..

** * * * **

لا يمكنك حقاً أن تهرب من حقيقة أن هذا الطريق بين الجبلين، سيأتي مرة أخرى في شعائر الحج..
بين جبلين.. هما الصفا والمروة، ستهرول في فج عميق..
سنضع هذه في ملف آخر، ونخزنه لحين العودة إليه..
في فج عميق..

** * * * **

ولعل هذا الفج العميق في داخلك؟
لعلك عندما ترحل إلى الحج، عندما تعتلي هذا الدرب إلى البيت الحرام، **تكون قد قطعت أيضاً أهم الطرق داخل ذاتك..**
لعل كل الطرق الوعرة الموحشة الصعبة في العالم، أقل وعورة وصعوبة من ذلك الطريق الذي تجتازه داخل نفسك..
لعل طريقك داخل مجاهلك، في تلك القارة المجهولة التي هي أنت، هو الفج العميق الذي لا بد أن تمر به حقاً، بغض النظر عن كل الفجاج العميقة الأخرى التي اجتزتها

خارج نفسك، فإن هذا الفج، هو الأعمق.. وهو الأشد وعورة، وهو أيضا الأشد أهمية.. إنه الفج الذي لا يمكن تجاوزه.. ولا يمكن أن تعبره بطريق مختصر سريع..
فجك العميق.. فجك الأعمق، هو ذاك الذي يكون في داخلك.. تمر فيه بكل ما مررت فيه في حياتك.. هو ذاك الذي يأخذ ذلك الشخص القابع في أعماقك، ويجره على درب الفج العميق.. يأخذه إلى البيت..
البيت العتيق..

** * * * **

إنسان الجزيرة الوحيد.. روبنسون كروزو القابع في كل منا.. أو حي بن يقظان القابع فينا الذي ينتظر مرور سفينة ما تنقذه.. يحتاج إلى أن يمر في هذا الفج العميق ليصل إلى سفينة تنقذه.. إلى بر الأمان..
بر الأمان يمر بالفج العميق..
بر الأمان يمر من أعماق أعماقك..

** * * * **

ربما هو كذلك فعلا..
الفج العميق يطلع من أعماقك.. وفي الأعماق ماذا يوجد؟
ثمة كنوز هناك.. ثمة مواد خام غير مستخدمة. معادن غير مكتشفة.
في العمق، بين الجبلين.. في الفج القادم من قعر ذاتك.. ثمة مناجم مجهولة، قد تعيد، عبر اكتشافها، تقييمك لذاتك..
مناجم مجهولة، ستجعل (الناتج القومي) الخاص بك يتضاعف..
ليس المادي بطبيعة الحال..

** * * * **

«لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ».
منافع لهم!
النص لا يحدد ما هي هذه المنافع.
هل هي منافع مادية تراها فوراً؟ هل هي كما قال الكثير من المفسرين: الأسواق والتجارة..
أم هي منافع بعضها آجل: كالأجر في الآخرة..

أم هي منافع أخرى.. لا تلغي بالضرورة الأسواق والتجارة وأجر الآخرة، ولكن تضم بالإضافة لذلك الكثير..

هل هي منافع مرتبطة بإخراج تلك الكنوز من أعماقك؟ بتخلصك من الشخص القديم الذي كان قابعا فيك.. بجره عبر الفج العميق ليصل إلى حيث يجب أن يواجه ذاته..

هل هي منافع مرتبطة باكتشافك لقدرات جديدة في داخلك.. تكتشفها عبر رحلة الحج..

هل تكتشف موارد جديدة، تمكنك من أن تساهم في استثمار موارد هذا العالم كما يجب؟

الكلام عن المنافع هنا، يأخذنا إلى فكرتنا التقليدية عن النفع والضر، دوماً نتخيل أن الأمر مرتبط بمنفعة مباشرة فورية.. وكذلك الضر.. **ونسهو عن مصاعب آنية - ستبدو مضار - ولكنها تخفي خلفها المنافع الآجلة، وكم من منافع عابرة ستزين ما يتضح لاحقاً أنه ضرر مقيم..**

الحج، تلك الرحلة الوعرة في أعماقنا، يعلمنا أن المنافع الحقيقية لا تكون إلا عبر المسافات البعيدة.. لا يمكن تحديد النفع والضر حقاً إلا عندما نراها في المسافات البعيدة.. في المدى البعيد.. ليس على المدى القصير الآجل.. بل المدى البعيد طويل الأجل..

ولا يمكن لهذا أن يكون أصلاً، لا يمكنك أن ترى تلك المسافات، ما لم (تذكر اسم الله)..

فذكر اسم الله، هو ربط لكل ما ترى، لكل ما تصنع، لكل ما تنجز وتنتج، بمنظومة قيمية واضحة هي المنظومة الصادرة عن شرعه عز وجل.. بهذا المقياس يمكن فعلاً أن ترى المنافع والمضار.. حياتك الشخصية قد لا تكون طويلة بما فيه الكفاية لترى نهاية المسافات البعيدة أو الآثار الآجلة.. لكن **الرؤية من خلال المنظومة القيمية الثابتة يمكن لها أن تضع على عينيك عدسة ترى من خلالها المنافع والمضار**، ورحلة الحج، تضيف إلى العدسة منظارا مقربا، وعدسة مجهر.. وترى (المنافع الآجلة) على نحو أقرب.. في ذاتك.. في داخلك.. في عالمك الداخلي الذي تعلم يقيناً أن تغييره لا يقل صعوبة عن العالم الخارجي..

فلم بالذات ذكرت بهيمة الأنعام في هذا السياق؟

ربط البهيمة هنا بالأنعام **لأن البهيمة هي ما أبهم عليها**[٣٧]، **أي ما لا تفهم، والفهم هنا هو ما يميزك عنها، وهو ما فضلك الله به عليها، وجعلك تستحق منصب الاستخلاف، ومنحك السيادة على مخلوقات الأرض، وحق الانتفاع بما عليها وبما فيها، ما دام ذلك ضمن (المنظومة القيمية) الصادرة عنه..**

تذكيرك بالأنعام، هو تذكير لك **بسيادتك عليها، بسيادتك على هذه الأرض**، بتسخير كل ما فيها ليكون لك، لتستخدمه في استخلافك عليها..

وتذكيرك بالبائس الفقير، في إطعامك له، تذكير بجوهر هذا الاستخلاف، بالعدالة الاجتماعية التي هي حجر الزاوية في هذا الاستخلاف.

والبائس هو المحتاج بشدة، وهو ما يذكرنا بمختلف الحاجات الإنسانية، لا الحاجة إلى الطعام فقط، بل الحاجة إلى مختلف الحقوق الإنسانية التي لا تكتمل إنسانية الإنسان من دونها..

الحاجة إلى الكرامة..

الحاجة إلى الحرية..

الحاجة إلى الفرصة لإثبات قدراتهم.. إراداتهم.. عزائمهم..

كل افتقار إلى الحاجات الإنسانية هو بؤس..

وكل ما في ديننا، يشير إلى **إلغاء هذا البؤس بل إلى استئصاله من جذوره..**

ورحلة الحج هذه، هي بطريقة ما سبر لهذه الحاجات..

تسبر حاجاتك الإنسانية حقا، التي تحتاجها حقا، كي تكتشف قدرتك على إلغاء كل ما يحرمك منها..

** * * * **

«ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ».

قال المفسرون في هذه الآية إن قضاء التفث هو مناسك الحج التي تعلن الخروج من الإحرام.. أي الحلق والتقصير والرمي والذبح و قص الأظافر والتطيب..

ولكن التفث لغة هو القذر و الدرن [٣٨].

وهذا يتناسق مع ما قاله المفسرون، فقص الأظافر يزيل الدرن عنها، والتطيب كذلك.. ومناسك ما بعد الإحرام عموما، تفيد معنى إزالة القذر والتشعث الذي لحق بك أثناء الإحرام..

٣٧ لسان العرب مادة بهم
٣٨ لسان العرب مادة نفث

المعنى (المناسكي) واضح.
وكذلك المعنى الأوسع..
فالحج يزيل عنك تفثك يا صاح.. الحج يزيل ما تراكم على روحك من قذر ودرن عبر رحلة حياتك السابقة..
الحج يزيل عنك ما تراكم على بطاريتك من أوساخ، من تكلسات، يعيد لبطاريتك روحها ونشاطها..
الحج يزيل تفثك في الداخل والخارج.. يجعلك جديدا تزهو كما لو أنك ولدت للتو.. بطاقة متجددة للحياة.. طاقة نظيفة لأنها أزالت تفثها..
وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ؟
قال المفسرون هنا إن الأمر يتعلق بنحر ما نذروا من البدن.. وأي نذر كان عليهم في الحج..
وهذا الكلام صحيح شعائرياً..
والنذر هو كل ما أوجبه الإنسان على نفسه..
ولكن ماذا عن النذر الآخر..
نذر أوجبناه على أنفسنا، ولكننا نسيناه..
نذر آخر..
موجود بعمق في لا وعينا.. نذرناه ذات مرة، أشهدنا أنفسنا عليه - ثم تراكمت التفاصيل والنذور على النذر الأول، وملأت ذاكرتنا الثقوب، فتسرب منها النذر الأهم،
ما هو هذا النذر؟..
دعونا نضعه في ملف آخر، ونأخذه معنا في الحج..
فربما سنستعيد ذاكرتنا المثقوبة هناك عند البيت العتيق..
لعلنا نتذكر..

** * * * **

«ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ».
تعظيم الحرمات!
تعظيم الحرمات وعدم الاقتراب منها، خير..

خير من الشعائر؟ من الطواف مثلا؟

ليس بالضبط، لكن **نتائج الشعائر ينبغي أن تبقى في أذهاننا حتى أثناء أداء الشعائر، أهداف الشعائر يجب أن تكون في خطتنا لأداء الشعائر، وتعظيم الحرام هو بالتـأكيد من أهم أهداف الشعائر.. عن جزء من مقاصد الشعائر نتحدث هنا..**

لكن الحرام الذي يجب أن نعظمه، ليس فقط الزنا والخمر وما يقرّب منهما كما قزمت رؤيتنا بالتدريج..

الحرام الذي يجب أن نعظمه، والذي تُـعلمنا الشعائر أن نعظمه هو أيضا أن تُـهدر حياتنا دون هدف، أن نمر على هذه الأرض دون أن نترك بصمة عليها..

الحرام الذي يجب أن نعظمه هو ما يفعله الكثيرون في الحج ومع الحج تحديدا، أن يعتقد أن (الشعيرة هنا) لا هدف لها ولا أثر، وأننا سنحصل على (المغفرة) بمجرد أداء حركات معينة..

في هذا السياق، يأتي الاجتناب المزدوج الذي تحذرنا منه الآيات..

(الرجس من الأوثان) و(قول الزور).

كلمة (اجتنبوا) صارت تعامل اليوم في لغتنا المعاصرة كما لو كانت تعني (التحاشي)، شيء أقرب إلى النصح، «ابتعد قليلا كي تتجنب أن توسخ ملابسك»، شيء كهذا.. «حاول تحاشي المرور في هذا الطريق»..

اجتنبوا - قرآنيا و في لسان العرب[٣٩] - تعني شيئا آخر أشد بكثير، تعني ببساطة أنِ اذهبوا إلى الجانب الآخر.. تعني البعد حد العزلة، حد الغربة!..

الاجتناب تعني أن تذهب إلى النقطة الأبعد الممكنة.. ليس (عدم التماس) الذي يوحي به الاستخدام المعاصر.. وهذا واضح في كل سياق الاستخدام القرآني **«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» (إبراهيم: ٣٥) ..** عبادة الأصنام تلك، لا تتحاشاها بالمعنى المعاصر، بل **تذهب إلى أقصى حد ممكن في البعد عنها..** وكذلك كل تجنب قرآني..

إذن هو تجنب الرجس من الأوثان، والرجس هو كل ما يستقذره الإنسان، والفرق بين هذا المعنى وبين القذر نفسه أن القذر (واضح)، تعافه النفس الإنسانية، على الأقل النفس السوية! **أما الرجس، فهو قذر خفي، قذر يحتاج إلى إعمال عقل، واتباع وحي، لتفهم كنه قذارته ومداها..**

---

٣٩ لسان العرب مادة جنب

لكن هل هناك أوثان غير رجسة لكي تقول لنا الآية اجتنبوا الرجس من الأوثان؟ هل هناك أوثان نظيفة؟!

لا قطعا.

الآية لا تقول لنا أن نجتنب الأوثان الرجسة.

بل الرجس من الأوثان.

ما الفرق؟

الفرق كبير!

الاجتناب هنا للرجس، وليس للأوثان نفسها. **الرجس الذي قد يصيبك في داخلك من الأوثان!.. أما الأوثان نفسها فأنت لا تتجنبها، بل تواجهها، تحاربها، تحطمها.. تنهال عليها بفأس تسلمته من القرآن.**

الأوثان لا تتجنبها.. لا تذهب إلى الجانب الآخر.. بل تقترب منها لتفجرها.. تقتحمها في عمقها.. لا يشترط أن يكون ذلك (تفجيرا ماديا)، بل يمكن أن يكون من خلال نتائج أعمالك، أن تقدم البديل الذي يحطم الوثن في رؤوس الناس، فيعود تحطيمك له مجرد تحصيل حاصل..

لكن ما هو الرجس الذي يمكن أن يأتي من الأوثان؟

أهوَ أن تحارب الأوثان بوثن آخر.. أن تحطم وثناً وأنت تعامل أفكارك كما لو كانت وثناً.. أن تتسرب الوثنية إلى داخلك وأنت تحارب الأوثان..!

هذا كله سيجرنا جراً إلى مفهوم الوثن..

لا يمكننا أن نجتنب (الرجس) من الأوثان، ما لم نعرف ما هو الوثن..

** * * * **

يختلط المفهوم في أذهاننا بين الوثن والصنم.

ورغم القرابة بينهما، إلا أنهما ليسا شيئاً واحداً..

«... قيل هو ما كان له جسمٌ أَو صورة فإِن لم يكن له جسم أَو صورة فهو وَثَن وروى أَبو العباس عن ابن الأَعرابي: الصَّنَمةُ والنَّصَمةُ الصُّورةُ التي تُعْبَد، وفي التنزيل العزيز واجْنُبْني وبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصنام، قال ابن عرفة: ما اتخذوه من آلهةٍ فكان غيرَ صُورةٍ فهو وَثَنٌ فإذا كان له صورة فهو صَنَمٌ..»[٤٠].

إذاً الصنم هو ما يكون له صورة أو مجسم، تمثال أو ما شابه.

---

٤٠ لسان العرب مادة صنم

ما هو الوثن إذاً ؟ **ما يعبد دون جسم ولا صورة..**

يمكن أن يكون هذا شعارا، مفهوما، أيدلوجية، عقيدة، فكرة جديدة..

يمكن أن يكون (صورة مرتسمة في أذهاننا).. منحوتة في عقولنا ورؤانا، ولكنها لم تتجسم في شكل مادي.. ليست تمثالاً نقدم له القرابين، أو ضريحا نطوف حوله كالجاهليين، لكنه (وثن) أيضا، ربما خفي ليكون بذلك أخطر..

الرجس الذي يمكن أن يمسنا من محاربة الأوثان، هو أن نتحول نحن أيضا إلى أوثان، أو أن يتحول ما نحارب من أجله إلى وثن أيضا..

(أن تتحول أنت إلى وثن) أمر مفهوم، ومشاهد بالتجربة.. وقصة البشرية مع أوثانها قصة حزينة، **فلقد حولت (محطمي الأوثان) إلى أوثان بعد فترة وجيزة من أدائهم لمهمتهم..**

لكن كيف تتحول الفكرة إلى وثن؟!

الجواب في معنى كلمة وثن نفسها، في لسان العرب..

(الوثن، الواثن والواتن المقيم الراكد الثابت الدائم في مكانه..)[41]

إنه أن تركد أفكارك في مكانها، أن لا تعرضها للشمس والهواء، أن لا تحركها لتواجه المستجدات الطارئة، أن لا تثيرها لتستخرج كنوزها.. أن تبقيها (بلا حركة) - متوهما أنك تحافظ عليها - لكنك في الحقيقة تفسدها، كما يفسد حتى الماء بالركود.،

هذا هو التحدي، تحدي ركود الأفكار وتحولها إلى (وثن راكد مقيم)، (الرجس) الذي يجب اجتنابه لا بمعنى التحاشي الذي قصرناه عليه، بل بمعنى الذهاب إلى الجهة الأخرى.. المعاكسة تماما..

وهو تحدٍ خطير وحرج.. **فالأفكار إذ يجب أن لا تركد، قد تكون معرضة لأن يدخل فيها ما يخالفها ويخالف ثوابتها، لذا فدعوى (التجديد) و(التحريك) قد تمرر ضمنا (السم في الدسم)**.. قد يبدو أنك تحرك الماء الراكد كي لا يفسد، لكنك قد تضيف إليه أثناء ذلك **مادة تغير طبيعة الماء**، وإن لم يبد عليه التغير أولا..

يحدث هذا كثيراً، ولهذا فالسياق القرآني يقرن **(اجتناب) الرجس من الأوثان، باجتناب (قول الزور)**، وقول الزور ليس فقط (القول الكذب والباطل) كما تعودنا، بل ما هو أدق وأعمق, أكثر شمولا من هذا، القول الزور هو أيضا «القول المزوّق

---

٤١ لسان العرب مادة وثن

المحسن، المموه بالكذب[٤٢] **أي أنه ليس كذبا خالصا، لكنه مموه، بالكذب، هو بعض حقيقة، لكنها مزينة مزوقة على نحو يخرجها عن (حقيقتها) و(مسارها)..**

القول الزور هو هذا القول المزوّق الجميل الذي يغير من مسار الحقيقة لا عبر نفيها مطلقا بل عبر (ليّها).. بحيث تصب في مصب مختلف..

** * * * **

بين اجتنابين نحن إذن..

اجتناب الرجس من الأوثان (الركود الذي يحول الفكر إلى وثن)، واجتناب قول الزور (الذي يحرك الفكر ولكن في اتجاه معاكس)..

اجتنابان مستمران، علينا أن نكون حذرين لدرجة الحد الأقصى من كل منهما..

اجتنابان مستمران سيجعلاننا نمشي كما لو كنا على أطراف أصابعنا..

أو على باطن أقدامنا..

وهذا هو المعنى المباشر لأن تكون حنيفاً..

** * * * **

«حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ».

تعودنا أن نفهم من مفردة حنفاء معنى المخلصين لله الواحد القهار، وهو معنى لا شك فيه لكن أصل المفردة ستقدم لنا معاني مرتبطة وممتدة..

«حنف: الحَنَفُ في القَدَمينِ إقْبالُ كل واحدة منهما على الأُخرى بإبْهامها وكذلك هو في الحافر في اليد والرجل، وقيل هو ميل كل واحدة من الإبهامين على صاحبتها حتى يُرى شَخْصُ أَصلِها خارجاً، وقيل هو انقلاب القدم حتى يصير بَطنُها ظهرَها، وقيل ميل في صدْر القَدَم وقد حَنِفَ حَنَفاً ورجُل أَحْنَفُ وامرأَة حَنْفاء وبه سمي الأَحْنَفُ بن قَيْس واسمه صخر لِحَنَفٍ كان في رجله ورِجلٌ حَنْفاء الأَحْنَفُ هو الذي يمشي على ظهر قدمه من شِقِّها الذي يَلي خِنْصِرَها. يقال ضرَبْتُ فلاناً على رِجْلِه فَحَنَّفْتُها وقَدَم حَنْفاء والحَنَفُ الاعْوِجاجُ في الرِّجْل وهو أَن تُقْبِل إحْدَى إبْهامَيْ رِجْلَيْه على الأُخرى»[٤٣].

الحنف إذاً هو **طريقة في المشي على نحو يبدو فيه الماشي كما لو كان (مائلا) على نحو مستديم..**

٤٢ لسان العرب مادة زور
٤٣ لسان العرب مادة حنف

هل يتعارض هذا مع معنى (الاستقامة) المرتبط بالحنيفية؟

ظاهريا فقط..

الاستقامة الحقيقية لا تعني قط أن تسير (مستقيما) على طريق قد يمر بالحرام..

بل تعني **أن تشق بنفسك الطريق الذي (يجنبك) المرور بالحرام..**

وقد يكون هذا الطريق **(متعرجا) كي تتجنب الخوض فيما يورثك الرجس..** لكنه في المعنى النهائي (مستقيم).. إنه مائل باستمرار ليتجنب مخالطة رجس أو زور.. **لكن المحصلة النهائية له هي الاستقامة..**

ما الذي سيحدث لمن لا يكون على هذا النحو، لمن لا يكون مائلا – مستقيما في رحلة البحث الدائم عن (القيام)؟

سيقع غالبا فيما يأمرنا القرآن باجتنابه..

الرجس من الأوثان، وقول الزور..

وسيشبه ذلك السقوط الحر في فضاء مروع..

قد لا يعرف الساقط هنا أنه يسقط، قد يتوهم أنه ثابت وأن العالم كله يسقط، قد يرى العالم معكوسا بحيث يتوهم أنه يرتفع بينما هو يهوي..

وعندما يتخطفه الطير، قد يتوهم أنه قد عثر على مرساة ومرفأ الأمان.. قد يتشبث به وهو ليس أكثر فرصا من المتعلق بالقشة من الغرق..

ولن يكون أكثر حظا فيمن يسلم دفته وساريته للريح، فتهوي به في مكان سحيق.

** * * * **

ليس صدفة أبداً، المكان السحيق مقابل الفج العميق..

المسافة بينهما شاسعة، تلخص كل شيء.

الفج العميق هو **نقطة الشروع**، النقطة التي يبدأ منها زحفك نحو الأعلى.. وقد تكون فجاً عميقاً في دهاليز ذاتك..

المكان السحيق، هو نقطة نهاية البعض الآخر، نقطة الوصول.. ينتهون لذلك أحيانا عن سابق قصد وتصميم.. وأحيانا وهم يتصورون أنهم يحسنون صنعا.

مكان سحيق تنتهي له..

أو فج عميق تخرج منه..

قرارك الشخصي جدا..

وربما يكون الحج فرصة لا لتحسمه فحسب.. بل لتطبقه..

تغير دفتك، تبدأ بالتحكم بها بدلا من الريح التي ربما كانت تسيرك..
والتي ستهوي بك إلى مكان سحيق..

** * * * **

«ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ».

التعظيم لحرمات الله، قبل آيتين، مرتبط بتعظيم الشعائر..
فالشعائر تجعلنا أقوى على الحرمات.. تجعلنا أفضل فيما يتعلق بالحرمات بكل أنواعها، المحرم من الفعل، والمحرم من عدم الفعل..
تعظيم الشعائر، شعائر الحج وسواها، جزء لا يتجزأ من تعظيم الحرمات، لا يفصل بينهما تماما إلا منافق لا يؤمن بما يقوم به من شعائر، أو جاهل أفهموه أن الشعائر مجرد حركات بدنية مصحوبة بألفاظ وليس هناك بعد أعمق مرتبط بها..
فهم الأبعاد المتعلقة بهذه الشعائر، الأبعاد التي تتجاوز (الحركات) و(الهيئات) هو جزء من هذا التعظيم..
وقصر الشعائر على الحركات، هو عكس التعظيم..
أيا كانت الكلمة التي تعبر عن (عكس التعظيم).

** * * * **

«فإنها من تقوى القلوب».

تأخذنا العبارة هنا إلى (التقوى) وهو المفهوم الذي داخَله الكثير من الالتباس.. كما الكثير من المفاهيم الأخرى..
تأخذنا تحديدا إلى آية أخرى..
«الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ». (البقرة:١٩٧)
الآية مرتبطة بالحج ليس سياقا فقط، بل كسبب نزول أيضا.. حيث صح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ **قَالَ كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»**[٤٤].
التقوى إذاً هي أيضا الأخذ بالأسباب، الاستعداد بكل ما يجب، وتقوى القلوب هي هذا الفهم العميق الواسع المتعدد الأبعاد، هي التي تجعل القلب - الجوهر- مستعداً

٤٤ صحيح البخاري ١٥٢٣

ومتهيئاً لخوض تلك الرحلة..

تعظيم الشعائر، يتضمن أولاً **الإقرار بأن لها أبعاداً اجتماعية – نفسية على الفرد والمجتمع، لا أنْ يعاملها على أنها مجرد حركات بدنية تستنزل المغفرة، أو حركات تأمل باطني كاليوغا..**

الشعائر عظيمة!..

لا يؤديها ذليل، ولا خائف، ولا من هو راض بضعفه..

الشعائر عظيمة.. لو فهمتها حقا، فستقودك حتما في درب (عظمتك) الشخصية.. درب خروجك من قمقمك ومن سقفك الواطئ.. نحو أفق أعلى.. الأفق الذي خلقت لأجله!

** * * * **

«لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ».

منافع مجددا..

منافع لا نعرف تحديدا ما هي، ولا يمكن أن نحصر أنفسنا في إطار مادي ضيق لكلمة النفع، فنتخيل التجارة والربح، بل لا يمكن تخيل أن كل من يحج كانت له تجارة في مكة.. **ولا يمكن أن نقزم المنافع هنا لتكون شرب ألبان الأنعام واستخدام أصوافها!**

المنافع إذاً شيء آخر، يخص كل فرد، كل حاج وكل حاجة..

المنافع لا بد أن تكون مرتبطة بالنفع بمعناه العام، النفع بمعناه القرآني.. النفع الذي «يمكث في الأرض»..

منافع الحج، منافع الشعائر هي من هذا النوع.. **منافع تمكث فيك، في داخلك..**

.. فلم إذاً «محلها إلى البيت العتيق»؟

كيف يكون محلها، منتهاها، إلى البيت العتيق؟

يكون كذلك لأن كل (المنافع)، كل ما هو نافع حقا، يجب أن يصب في ذلك البيت الذي **هو للناس أجمعين.. البيت الذي هو المشروع الجامع للإنسانية كلها.. البيت الذي هو مشروع إعمار دائم مستديم.**

بالتأكيد..

كل المنافع (الحقيقية)، محلها إلى البيت العتيق!

** * * * **

«وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ».

يمتد معنى المنسك من (المكان الذي يعتاده المرء) إلى العبادة ويمر حتما بالذبح[٤٥].. أو الأضحية..

وبكل المعاني، سواء كانت تعني (المكان) الذي يذكر فيه اسم الله على «ما رزقهم من بهيمة الأنعام»، أو عبادة تقديم الأضحية ذاتها، فإنها تكريس لمعنى تجتمع فيه كل الديانات التوحيدية، مع تمايز الإسلام في إلغاء الكهانة كما مر سابقا، وهو تكريس يطرد كل الديانات التي لا تمتلك في أصولها هذه العبادة، فالبوذية مثلا لا تملك أي شعيرة مماثلة وتقف ضدها تماما، كذلك النصوص المؤسسة للديانة الهندوسية تقف ضد هذه الشعيرة (رغم أن الممارسات الهندوسية لاحقا تبنت هذه الشعيرة).. لا يعني هذا أن (الديانة) التي تملك شعيرة الذبح تكون بالضرورة صحيحة، فالسيخية مثلا تملك الشعيرة وهي ديانة وثنية تماما، لكن العكس يكون صحيحا دوما، **الديانة التي لا تملك هذه الشعيرة في أصولها، هي ديانة تتبنى رؤية تسحب من الإنسان موقعه المتميز على مخلوقات الأرض، وبالتالي على كل ما في الأرض من خيرات وموارد..**

كل تقدم البشرية في استغلال هذه الثروات سيكون (سرقة) و(اغتصابا) حسب هذه الديانات **التي سرقت هذه المكانة من الإنسان وساوته ببقية المخلوقات..**

هذه الشعيرة، التي رفعها القرآن لتكون علامة تمايز الإنسان عن بقية المخلوقات، وتساوٍ بين كل بني الإنسانية أيضا.. بلا كهانة ولا فقير ولا غني، هي علامة من علامات الدين الحق، الدين الذي لا يرى في الدم ما يُشمئز منه، إلا الدم الذي حرم الله.. ولا يتكلف هامش (إنسانية) مزيفة لا يمكن اعتمادها في عالم مثل العالم الذي نعيش فيه..

اشمئزاز بعض الديانات، أو أصحاب المذاهب الوضعية من هذه الشعيرة، وعدّها من قبلهم بأنها توحش بدائي، لم يجعلهم أكثر تعاطفا مع دم بشري مسفوك.. مع أشلاء الذبائح البشرية..

فليوفر كلٌ اشمئزازه لما يجب محاربته فعلاً..

دم البشر – الذي يسفك ظلما وبغير حق، هو الأحرى والأحق بالرفض والاشمئزاز..

---

٤٥ لسان العرب مادة نسك

لا دم مخلوقات أعدها الله لنا..
من يرفض هذه الحقيقة، يرفض ضمنا قصة الخلق، ومكانة الإنسان..
لذا أكملت الآية..

«فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ».

تقبّل هذه الحقيقة، المتضمنة في الشعيرة، يتطلب أن تُسلِم لله..
بمجرد أن تقبلها، **حقيقة أن هذه المخلوقات أعدت لأجلك، ستجعلك تتقبل (بقية الأمر..**
أنك الخليفة في هذه الأرض.. أنك المسؤول عن جعلها أفضل وأكثر عدلا وتوزانا..
لا يمكنك أن تأخذ جزءا من الصورة فقط، جزء أن المخلوقات والموارد قد أعدت لأجلك، دون أن تؤدي دورك في الصورة كلها..
أن تتحمل المسؤولية..
«وأسلموا له» هو الاستسلام لهذا !.. **الاستسلام لحقيقة دورك في هذه الأرض..**
الاستسلام لحقيقة العبودية لله، الذي يتضمن أن تكون (الخليفة) في الأرض..

** * * * **

«وبشر المخبتين»..

المخبتون هم المتواضعون..
وعلاقة التواضع بما سبق مهمة جدا، **عليك أن تكون متواضعا بينما أنت تؤدي هذه الشعيرة التي تكرس هيمنتك على بقية المخلوقات.. إياك من أن توهمك الشعيرة أو يوهمك مركزك الذي وضعك الله فيه أن تخرج عن حدودك، أنت (مؤهل) لهذا المركز، لكن تكبرك، تخطيك حدودك، بظلم تقترفه أو تُشرعِنه، سيفقدك هذا المنصب (تلقائيا)..**
لكن كلمة (المخبتين) ترتبط أيضا بمعنى آخر، فكلمة خبت تعني أيضا **«ما اتسع من بطون الأرض.. وقيل ما اطمأن من الأرض واتسع.. والأرض التي ينبت فيها شجر.. والأرض المنخفضة التي يتجمع فيها المطر»**[46] ..
اعط البشارة لمن يكونون كالأرض الواسعة..
بشّر من لا ينتظرون أن يجدوا الثمار جاهزة..
بشّر من لا ينتظرون أن تأتيهم الثمار مستوردة من أراضٍ أخرى..

٤٦ لسان العرب مادة خبت

بل يكونون هم الأرض التي تنتج.. الأرض التي تنخفض، لتجمع المطر، لتبدأ رحلة الإثمار من البداية..

بشِّر أولئك الذين يعرفون أن الخصب مرتبط بالكثير من العمل، أنه ليس هبة أبدية دون عمل ملازم للحفاظ على هذا الخصب وصبه في سياق الثمر.

بشِّر المخبتين، بالتأكيد، فالله لا يضيع أجر عامل..

أما من يتصور أن الإخبات هو التواضع الذليل الذي يحقر ذاته ونفسه والدور الذي خلق لأجله - فلا بشارة له..!

** * * * **

«الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».

نتوهم دوما أن المعنى هنا الخوف والفزع على نحو سلبي.

نربطه حصرا برغبتنا في (الهرب من النار، والتسلل إلى الجنة)..

لكن الوجل شيء آخر..

الوجل كما جاء في القرآن في سياقات أخرى

«إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ» (الحجر: ٥٢، ٥٣)

«وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» (المؤمنون: ٦٠)

نعم ثمة شيء يشبه الخوف هنا، لكنه ليس هذا الخوف التقليدي، إنه أقرب إلى القلق منه إلى الخوف، قلق مشحون متوتر- مترقب..

دخل الغرباء على إبراهيم، وجِل منهم ، ليس الخوف بالضبط، بل قلق وترقب مشوب بخوف، وضع منفتح على عدة احتمالات..

كذلك يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة..

عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: **«وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ»** قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرفون؟ قال لا يا بنت الصديق! ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم «أولئك يسارعون في الخيرات»[٤٧] .

لقد «قدموا» شيئا، وقلوبهم وجلة بانتظار نتيجة العمل..

٤٧ السلسلة الصحيحة ١٦٢

قلقون!..

مثل قلق المقبل على الامتحان أو الاختبار.. **قلق يدفع للمزيد من العمل، من المراقبة.. لا الخوف الذي تم تكريسه في نفوسنا، الخوف السلبي المكبل الذي يجعلك (موسوسا) لا تتقن غير الحركات المجردة، مهووسا بالتفاصيل.. أكثر من الهدف..**

وكذلك «إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» في هذا السياق..

نعم، قلقون، ذكر الله يذكرهم بمهتمهم.. بدورهم في الأرض، في الامتحان الذي خلقوا لأجله..

قلقون قلقا إيجابيا.. قلقا يدفعهم للمزيد من العمل..

قلق الحريص، لا خوف المكبل الموسوس.. العاجز عن الفعل الحقيقي..

** * * * **

الوجل (بهذا المعنى الإيجابي) والصبر، وإقامة الصلاة.. والإنفاق، كلها أجزاء متكاملة من عدة واحدة..

القلق يدفع للصبر، والصبر هو أن تكون مثمرا تتحدى الجدب وتثمر مثل نبتة الصبار، في أصعب الظروف، في الصحراء..

الصبر على ماذا؟.. **على الإقامة والبناء** – إقامة الصلاة كمشروع حياة كامل متكامل..

خلال ذلك؟ الإنفاق مما رزقنا..

دوما نتوهم أن الرزق مرتبط بالأمور المادية حصرا، فنعتقد بناء على ذلك أن الإنفاق مرتبط بها أيضا..

لكن الرزق يكون في نواح متعددة.. **يمكن أن يكون في ثروات مادية، في موارد وخيرات في باطن الأرض، كما يمكن أن يكون في مواهب تتمكن من سبر أغوار العالم وموارده وخيراته.. سبر أغوار البشر وتربيتهم وتعليمهم..**

الرزق أطياف مختلفة واسعة، والإنفاق كذلك، وحصر أي منهما في اتجاه مادي يقودنا إلى ما نحن فيه الآن بالضبط.. إلى هذا الدرك الذي نحن فيه..

والعكس يبتدأ من هذا الوجل، القلق المختلف الحريص على العمل ونتيجته، والصبر الفاعل المثمر على العمر، وإقامة الصلاة كمشروع حياة كامل ومتكامل، والإنفاق من الرزق كل الرزق، لا المال فقط.

معالم أساسية، لرحلة العمر..

وأيضا لرحلة الحج..

** * * * **

«لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ».

لتكبّروا الله على ما هداكم..

ليس الأمر محض تكبير باللسان، **ليس أن تقول وترفع صوتك بـ «الله أكبر» بينما لم تكبّر دورك -ليكون قريبا من دورك الذي حدده هو لك في الحياة - ، دون أن تكبّر في نفسك قدره وطاعتك..**

والتكبير هنا على ما «هدانا إليه»، على هذه المعاني المتدفقة من قلب الشعيرة، من كون الشعيرة منجما يرفدنا بالقيم، يقول لنا إن هذا العالم بكل ما فيه في عهدتنا، مسخر لنا.. وأننا كي نقوم به حق رعايته وقيامه، **يجب أن نكبّر الله.. نكبره في نفوسنا وقلوبنا وسلوكنا..**

كي نكبّر الله حقا، علينا أن نكبر نحن أيضا.. أن نكون ما يريده هو أن نكون..

سياق الآية يذكرنا بلحوم ودماء الأنعام التي تقدم كجزء من الشعيرة..

لكن فلنتذكر هنا، أننا **أيضا، مثل الأنعام، تتكون من لحم ودم..**

يمكننا أن نبقى مجرد لحم ودم.. لا أكثر من ذلك..

لكننا عندما نضحي بلحوم ودماء الأنعام، فإننا **نضحي أيضا بهذا التصور الضيق الذي يقسرنا على أن نكون لحما ودما لا أكثر..**

نتخلص من سجن اللحم والدم عبر تلك التقوى، التقوى التي هي حزمة من المفاهيم التي يمر من خلالها كل شيء فيمتلك معاني مختلفة جذريا عما كان عليه الأمر قبل الدخول فيها..

بالتكبير، بأن تكبر الله، فتكبر لأن كل ما سواه سيصغر..

وأيضا، تكف عن أن تكون مجرد لحم ودم، عندما تكون من المحسنين..

قبل قليل كنا في بشارة المخبتين..

الآن نحن في بشارة المحسنين..

وبين الإخبات، والإحسان، علاقة وثيقة..

** * * * **

لو تابعنا الآيات التي تحدثت عن المحسنين لوجدنا أنها تشير إلى المحسنين بوصفهم قد أدوا فوق ما كلفوا به..

«وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» (البقرة: ٥٨)

المغفرة للجميع، لكن المزيد للمحسنين!

«وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (البقرة: ١٩٥)

أنفقوا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.

لكن الله يحب المحسنين. يحب من يفعل المزيد من مجرد الإنفاق وعدم إلقاء الأيدي إلى التهلكة.

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (آل عمران: ١٣٤)

ينفقون ويكظمون غيظهم ويعفون..

ولكن الله يحب من يقدمون المزيد!..

«لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (المائدة: ٩٣)

آمنوا وعملوا الصالحات..

ثم اتقوا وآمنوا..

ثم اتقوا وأحسنوا..

مراحل متتالية..

تُوجت بالإحسان، والله يحب المحسنين..

** * * * **

حديثه عليه الصلاة والسلام، يضع الإحسان في دائرة خاصة بعد الإيمان والإسلام..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - كَانَ يَوْمًا

بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ». قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ «الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[٤٨].

إنها دائرة عليا حتما، لكنها تتمة حتمية لدائرتي الإسلام والإيمان..

لا يمكن أن تقفز لها.. دون أن تمر بهما أولا.. بل يجب أن تمر بهما، تنتمي لهما، حقيقة التكليف بكل ما تعنيان..

ثم بعدها، يأتي الإحسان..

أن تعبد الله كأنك تراه!..

** * * * **

كيف يمكن أن يحدث هذا، وما معناه أساسا؟ والله لا يمكن أن يُرى بأعيننا، هو الذي لا تدركه الأبصار..

ماذا يعني أن تعبد الله كأنك تراه؟!

يعني هذا أن رؤيتك عميقة، تتجاوز المحسوس والمرئي مادياً، إلى العمق من الأشياء..

إلى أبعادها الأعمق، ومآلاتها..

ليس هذا فقط.

بل أن تنطبق حياتك مع رؤيتك.

أن لا تكون رؤيتك مجرد (نظرية آمنت بها).. بل أن تجسر الهوة بينها وبين الواقع..

أن **تبدع في الربط بين حياتك وبين رؤيتك التي تجاوزت المادي والسطحي المباشر..**

أن تعبده في كل ما تفعل، لأنك ترى آثاره في كل شيء، ترى سننه في كل تفصيل..

هذا هو الإحسان..

هذا هو الإبداع..

** * * * **

---

٤٨ صحيح البخاري ٤٧٧٧

فإن لم تكن تراه، فإنه يراك في كل الأحوال..
وعندما تتحكم (رؤيتك) العميقة بأفعالك، بحياتك، فإن مرحلة أخرى، ستنشأ، هي مرحلة الإحسان، شيء فوق الإتقان ، شيء قد نسميه اليوم الإبداع، لكننا تعودنا أن نضع (الإبداع) في مجالات خاصة محددة (مثل الآداب والفنون) ونسينا أنه يمكن أن يكون في كل المجالات..
أقول الإبداع **لأقرّب معنى الإحسان هنا،** إنه المرحلة التي تجعلك مبدعا في تعبدك لله، ليس بالمعنى البدعي الذي يعني (ابتداع) شعائر لا وجود لها، بل يخص الإبداع في كل ما سوى ذلك في تعاملك مع كل شيء، الذي تنعكس عليه وفيه معاني العبودية أيضا..
الإبداع هو أن تجد دوما فهما جديدا، أن تجد الحافز للعمل في كل شيء، أن يتجاوز عملك مرحلة الاتقان إلى الإبداع والابتكار.. أن تجد طرقا جديدة، أن تكون أفضل دوما..
إنه الإحسان، إنه المحسن الذي يشق حجب التقليد والروتين والتكرار ليقدم رؤية لعالم جديد، عالم لا يخرج عن حدود دائرتي الإيمان والإسلام أفقيا، لكنه يرتفع بهما عموديا، يصعدهما في أطر الإحسان..
المحسن هو المبدع حقا، ليس المبدع هو ذلك الشخص المتفلت من التقاليد والأعراف كما يروج في وسائل الإعلام كصورة نمطية للمبدع..
وليس المحسن هو ذاك الذي يمد يده ليمنح الدراهم للمتسول على باب المسجد، وهي الصورة النمطية الأخرى التي كرست في أذهاننا عبر عصور من (اللا إبداع) و(اللا إحسان).
المحسن حقا، الذي له بشارة، هو الذي يفكر بطريقة مختلفة، فيجد طرقا جديدة لكي لا يكون فيها متسول على باب المسجد!..
بشرط أن يكون ذلك ضمن الدائرتين الأصل..

** * * * **

فما العلاقة بين البشارتين؟ البشارة للمبختين، والبشارة للمحسنين؟
العلاقة صميمة وحميمة.
الإحسان الحقيقي، أي الإبداع الحقيقي.. لا يمكن أن يكون إلا نابعا من (الإخبات).. الإخبات الذي هو أن تكون كالأرض الواسعة.. أن تلتحم بالأرض، بالواقع.. لا أن

تحّلق في أبراج عاجية وتنطلق في أفكار تتوهمها إبداعا وأنت بعيد عن الأرض التي جعلك الله خليفة فيها..

الإحسان، والإخبات، علاقة صميمية وحميمة..

والبشرى المزدوجة لأولئك المخبتين – المبدعين..

** * * * **

فلنتذكر أن هذا (الإحسان) ارتبط في الآية الكريمة، بتكبير الله «على ما هداكم»..

عندما تكبر الله، فأنت تكبُر أيضا..

إي إبداع خارج هذه الحقيقة، يجب أن يعاد تعريفه..

** * * * **

هذه هي آيات الحج في سورة الحج.. تبدأ بالطريق إلى الحج وهو مليء بالعوائق..

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ».

وينتهي بالحديث عن الإحسان.. الإبداع..

أليس كل إبداع ينطلق في أساسه من منع ما، صد ما، تتحداه فتمضي إلى آفاق أبعد؟..

** * * * **

لكن ما الذي تعنيه آيات سورة الحج، بمجملها، في سياق سورة الحج؟

سورة الحج، تقدم لنا رحلة حياتنا، منذ بداية البداية، حتى النهاية..

لا.

بل هي تبدأها منذ ما بعد النهاية، حيث ستكون كل رحلة حياتنا معروضة في ناتجها النهائي..

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (الحج: ١-٢)

الزلزلة إذاً..

زلزلة الساعة التي تطيح بأخس العلاقات الإنسانية وأقواها..

«يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» (الحج: ٤- ٥)

رحلتك إذاً منذ أن كنت نطفة، إلى الوفاة!..

رحلة حياتك من الألف إلى الياء، وما بعد الياء..

كل ما في سورة الحج، يتحدث عن رحلة حياتك..

في رحلة حياتك هذه ستجد:

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ. ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ» (الحج: ٨-٩)

وستجد أيضا:

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ. يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ. يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ» (الحج: ١١- ١٣)

وستجد أيضا:

«أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (الحج: ٣٩ -٤٠)

لكن الحياة فيها مراحل متعددة، متداخلة..

«وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ» (الحج: ٦٦)

إنها الحياة، من النطفة إلى الشيخوخة، ومن ثم إلى الحساب الذي يراجع كل ما فعلته في مدة تكليفك في هذه الرحلة..

**   * * *   **

الحج هو رحلة داخل هذه الرحلة..

رحلة (مصغرة) لما يجب أن تكون عليه الرحلة الأصل.

رحلة يمكن من خلالها أن تعود لرحلتك الأصل وأنت أعرف بالطريق، أعرف باتجاهك فيه، أعرف بالعثرات والمخاطر والمنعطفات فيه.. أعرف بالوحشة فيه، وبالوعورة التي ستعترضك..

أعرف بقدرتك، بنفسك، بالبوصلة في داخلك..

رحلة داخل رحلة، لكنها رحلة تضبط إيقاع واتجاه الرحلة الأصل..

أو على الأقل هذا ما يجب أن تكون عليه الأمور..

** * * * **

لهذا تنتهي سورة الحج بآية لها علاقة عميقة بكل ما سبق

«جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» (الحج: ٧٨)

الحياة رحلة جهاد، جهاد بالمعنى الواسع للكلمة، وليس فقط المعنى الضيق القتالي – العسكري للكلمة، **بل هو بمعنى المواجهة وبذل الجهد فيها في كل مناحي الحياة**، التي تتضمن بالتأكيد المعنى العسكري أحيانا..

تنتهي السورة عند إبراهيم، الذي ابتدأت رحلة الحج بأذانه الخارج من عمق الصحراء إلى كل فج عميق..

تقول لنا إن إبراهيم، قد سمّانا (مسلمين)..

لدينا رحلة حياتنا كاملة، لنثبت استحقاقنا لهذا الاسم..

أو عدم استحقاقنا لذلك.

** * * * **

الفصل الثاني

الحج بأبجدية اقرأ

تعودنا أن نتعامل مع مفهوم الحج كما تعودنا على التعامل مع كل الشعائر والفروض.. على نحو يفرغها من المعاني المرتبطة بحياتنا اليومية، على نحو يحصرها بعيدا في زاوية تكفير الذنوب وتخفيف الضغط، بدلا من أن يجعلها وسيلة للبناء والقيام بما خلقنا للقيام من أجله..

الحج، كما الصلاة، كما الصيام، بل كما الشهادة، الركن الأول، تحول ليكون وسيلة صماء مفرغة من المعاني، بل تحول ليكون هدفا بحد ذاته.. منفصلا عن أي شيء آخر، اللهم إلا (النتيجة الأخروية) التي نفترض دوما انفصالها عن (النتائج الدنيوية) التي ستؤدي لما نستحقه من آخرة..

الحج ليس مختلفا عن بقية الأركان.. وتعاملنا معه كان مشابها..

ولكن ما وصلنا إليه اليوم **يحتم علينا أن ندرك، أن هذه الأركان هي أركان بناء عال شامخ، وليست عكازات نتوكأ عليها كما هو حالنا معها اليوم..**

لقد حولناها إلى عكازات لأمراض النفس وأوجاع الروح.. ضمادات لجروحنا وكدماتنا..

ولأنها يمكن أن تكون ذلك فعلا، ضمن حزمة وظائف متعددة وشاملة، فقد توهمنا أنها مقتصرة على وظيفة تخفيف حدة الألم..

ونسينا أنها تعالج أيضا..

وأنها تبني..

وتنير الدرب..

وكل ما لا نفكر فيه..

** * * * **

لماذا يحج الناس؟

السؤال بسيط جدا..

وسيكون هناك ثلاثة أجوبة:

الأول هو الغالب حتما، وهو ما يجعل الناس يؤجلون أداء فريضة الحج إلى التقدم

في العمر.. السبب غالبا هو أن الحج (**يكفر الذنوب**)، وهذا يجعل الناس يريدون أداءه بعد أن أدوا (أكبر قدر ممكن من الذنوب).. أي أنهم يقدرون أنهم قد أدوا القسط الأكبر من الذنوب التي تستحق (التصفير)، لذا يحجون ليتخلصوا منها، على أمل أن تكون المدة المتبقية من أعمارهم (أقل ذنوبا) – أو ذنوبا يمكن أن تمحوها المكفرات الأخرى (الصلاة - الصيام.. الابتلاء...الخ). أو أن يغفرها الله يوم القيامة وينتهي الأمر..

الحج باعتباره غسالة للذنوب، ومصفراً لعدادها، حقيقة لا يمكن أن ننكرها، هذا المفهوم ماثل في أذهان الناس وفي حقيقة تعاملهم مع ركن الحج، وهو مستند على ما لا يمكن إنكاره أيضا مما صح عنه عليه الصلاة والسلام:

«مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[٣٠].

لكن من قال أن الحج بهذه النية المبيتة، بهذا الفهم، هو من ضمن الحج المبرور؟

ما أقصده هنا بوضوح، أن الحج، لا يعبر **عن كل مقاصده** عبر حديث واحد حتى لو كان صحيحا .. نعم الحج المبرور يقود إلى أن يعود الحاج كيوم ولدته أمه – بلا ذنوب.. لكنه عليه الصلاة والسلام لم يقل إن هذا هو (**المقصد**) من الحج.. كما لم ترد أي إشارة إلى أن هذا هو المقصد في القرآن الكريم.. وهذه العبارة «كيوم ولدته أمه» - وإن علقت في العقل الجمعي عن الحج أكثر من غيرها – **إلا أنها وردت في مناسبات أخرى وفي أحاديث صحيحة أخرى** (كالصلاة بعد إسباغ الوضوء)[٣١] قَالَ «**مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِى هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ إِلاَّ انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**» أو في ابتلاء العبد كما في الحديث القدسي «**إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني وصبر على ما ابتليته به؛ فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا ويقول الرب للحفظة: إني أنا**

---

٣٠ صحيح البخاري ١٨٢٠

٣١ صحيح مسلم ١٩٦٧

قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا (له) من الأجر ما كنتم تجرون له قبل ذلك»[٣٢].

لكن العقل الجمعي تعامل مع الحج – أكثر من سواه - على هذا النحو الذي **(يؤجل) أداء الفريضة إلى ما بعد منتصف العمر، لكي تقوم بوظيفة غسل الذنوب التي اقترفت في نصف العمر هذا، على أمل أن يكون نصف العمر الثاني أقل ذنوباً** (المفترض، فمن منا يعرف متى سيموت؟)..

التعامل مع ركن من أركان الدين على هذا النحو يعكس فهماً سلبياً لمعنى الأركان ووظيفتها في حياتنا، لا أقول إنه فهم انتهازي، فليس من الخطأ أن **ينتهز المسلم مواطن المغفرة**، ولكن المشكلة هي في التعامل مع (الركن) على هذا النحو، كما لو أنه لمغفرة الذنوب فحسب.. ولهذا يفضل تأجيله لكي يقوم بمهمته إلى حدها الأقصى..

الركن، بالتعريف، هو ما يستند عليه البناء ويقوم ليرتفع.

تخيل أنك تبني بيتا، وأن المهندس وضع تصميما خاصا لا يقوم إلا على خمسة أركان..

لكن المقاول يخبرك أنه سينفذ المشروع على أربعة أركان فقط، لسرعة التنفيذ والعجلة فيه، أو للاقتصاد في النفقات..

ويخبرك أن عليك أن تتذكر أن تضيف الركن، لاحقا.. بعد بضعة عقود..

هذا هو ما يحدث مع الحج.

بفارق أننا نفعل ذلك بأنفسنا، ودون وعي كبير، دون تعمد.. لقد نشأنا وكبرنا على مفهوم (الحاج) المتقدم في العمر، خمسون سنة فما فوق..

تخيل أنك تبني بيتا منقوص الأركان.. وتسكن فيه نصف عمرك، بنية أن تكمل البناء لاحقا.. ستكون في هذه الحالة تخاطر بانهيار البيت فوق رأسك ومن معك..

وعندما يكون بناؤك لدينك على هذا النحو، على نحو **(التأجيل المتعمد)** لركن من أركان الدين.. فإن ثمة احتمالاً كبيراً بأن يكون البناء غير صالح للاستعمال حتى لو لم يبد أنه منهار بالضرورة..

غالبا سيكون لديك مشكلة حتى في الأركان الأخرى، لأن فهمك لها، سيكون بنفس الفهم الجزئي القاصر، فهم غسل الذنوب فقط..

** * * * **

---

٣٢ السلسلة الصحيحة ٢٠٠٩

في الحقيقة إن ارتباط ركن الحج من دون كل الأركان بالاستطاعة عبر **«من استطاع إليه سبيلا»** تجعلنا نجزم أن الفكرة، لو تأملنا فيها قليلا بمعزل عن فكرنا التقليدي، لوجدنا أنها **(تحتم) أن يكون الحج في أبكر وقت ممكن**.. فالاستطاعة – على الأقل في جانب مهم من جوانبها - هي القدرة البدنية التي تكون أكثر ما تكون في فترة الشباب..

وأداء **الحج، عند أول الاستطاعة**، أمر ينسجم مع أن دور الأركان في حياتنا **هو أكبر بكثير من دور غسل الذنوب من أجل تجديدها لاحقا..**

أن تؤدي الحج، عند استطاعتك، وأنت شاب موفور الصحة والقوة، والحياة أمامك – ولو نظريا – فإن ذلك يعني أن **هذه الفريضة ستساعدك على أداء ما يجب أن تؤديه في حياتك..**

أن تحج عندما تستطيع، يعني أنك ستعود وفي استطاعتك أن تفعل الكثير..

ربما الركن عندما تؤديه وأنت في قوتك وقدرتك، يجعلك أكثر قدرة ووعياً على أن تفعل لاحقاً عندما ترجع من الحج..

لذا فإن فكرة **الاستطاعة.. تتناقض جوهريا مع فكرة التسويف والتأجيل..**

** * * * **

لكن أن تعود من الحج **كيوم ولدتك أمك**، لا يعني فقط عودتك بلا ذنوب.. **لا يعني فقط المغفرة..**

أن تعود كيوم ولدتك أمك، **يعني أن تعود بلا عُقَدْ، بلا رؤية مسبقة تكبلك عن العمل والعطاء.. تعود دون أن يتراكم على فهمك ما يبطئ بك عن الإبداع والعطاء..**

أن تعود كيوم ولدتك أمك، **يعني أن تنظر إلى العالم بنظرة جديدة، أن تكون متحفزا للتعلم، أن تكتشف العالم والخلق بفضول طفل يتعلم المشي للتو..**

أن تعود كيوم ولدتك أمك **يعني أن تستعيد براءتك.. وتستعيد نقاءك.. أن تكون من جديد أقرب لما خلقك الله من أجله.. أن تستعيد إنسانيتك التي أخذتك منها حياتك السابقة قبل الحج..**

أن تعود كيوم ولدتك أمك، **يعني أن تعود محملا بالأمل.. أن تبدو لك الحياة مشرقة بكل الاحتمالات..**

لا مستحيل لمن ولد للتو..

ربما بإمكانه أن يغير العالم..

لا مستحيل في قاموسه..
لأن قاموسه لم يكتب بعد..
الحج، يبدأ بتعليم هذا الطفل..
يكون مدرسته الأولى..
إنها ولادة الطفل الذي يتعلم عبر استكشاف العالم..
الطفل الذي يريد أن يغير العالم..
«كيوم ولدته أمه»، تفتح صفحة بيضاء من جديد، يمكن أن يسطر فيها هذا الطفل ملحمة حياة مختلفة..
«كيوم ولدته أمه»، يمكن أن تساهم في «يوم تولد الأمة، من جديد»..
الأمر لا يقتصر قط على مغفرة الذنوب إذن في عبارته عليه الصلاة والسلام..»كيوم ولدته أمه»..
لكن العقل الجمعي الذي ركن إلى الكسل والخمول..
لم يقرأ في العبارة إلا المغفرة.. التخلص من الذنوب..

** * * * **

أكرر: الحج المبرور يغفر الذنوب كله.. لا شك في ذلك..
لكن التصور أن **هذا هو الهدف الأساسي من الحج**.. أمر لا يستند على نص ديني، أو فهم متماسك لنص ديني..
المغفرة نعم..
لكن كنتيجة..
لا كهدف بالضرورة..
والفرق كبير..

** * * * **

ثاني سبب يجعل الناس يحجون هو أن الحج **ركن وفريضة وأمر من الله وكفى..**
يحدث هذا مع الصلاة ومع الصيام ويحدث أيضا مع الزكاة بدرجة أقل.
لكنه يحدث مع الصلاة ومع الحج تحديدا بوضوح..
بعض مقاصد الصيام والزكاة تكون جلية على نحو لا يمكن الهروب منها..
لكن الصلاة، والحج، وهما أكثر (شعائرية) من سواهما، يقدمان ما يجعل الكثيرين يفضلون أن يقولوا أنها فرض وكفى.. لا يفضلون الإبحار في معانيها ما داموا

يؤدونها ويحرصون على تأديتها..

هذه النظرة جزء من منظومة متكاملة تستنكر السؤال والتساؤل وتعتبره بدعة، ولا تفرق بين السؤال الذي يهدف إلى الفهم الموصل إلى المزيد من الإتقان والشمول في الرؤية.. وبين التشكيك الذي يهدف إلى الهدم فقط..

النتيجة أن غلق باب الأسئلة، والتأكيد على أن العبادات مقصودة لذاتها، يعكس نوعا من الشك في عدم إمكانية الوصول إلى أجوبة شافية..

وهذا الشك، يعكس بدوره أمرا من اثنين:

الأول – التصور أن هناك ما يأمر به الله **دون أن يكون فيه حكمة**.. وحاشا لله أن يكون ذلك.

الثاني – التصور أن **حكمة الله تكون خافية كليا - وبشكل مقصود - على العقل البشري الذي خلقه الله فينا.. وفي هذا مساس لا بالعقل وحده**. بل بخالقه أيضا.. بحجته على خلقه.

لا أقول هنا إن العقل يمكنه معرفة كل شيء، أو الإبحار في كل بحر، فللعقل حدوده أيضا.. ولكنها حدود مجهولة، لا يمكن لنا أن نستبق وجودها إلا عندما يرد نص يحدد لنا لا جدوى أو لا إمكانية الخوض في هذا البحر..

لن يتمكن العقل بالضرورة من سبر أغوار كل الحكم والمقاصد الإلهية لشعيرة ما مرة واحدة، لكنه سيتمكن حتما من فهم الكثير منها، لا يمكن للحكمة الإلهية لأمر ما أن تبقى خافية طيلة الوقت..

نعم.

يمكن لنا أن نفهم المقاصد..

وأزعم، أن هذا سيجعلنا نتعبد أفضل..

وأزعم أيضا، أن الزعم بغير هذا، يفرغ عباداتنا من معانيها..

يجعلها مثل هياكل ضخمة، خاوية من الداخل..

حتى لو كنا قد برمجنا أنفسنا على البكاء، وقد عددناه غاية ما في العبادة..

** * * * **

السبب الثالث الذي يجعل البعض يؤدي فريضة الحج، هو العاطفة..

البعض يمتلئ شوقاً له عز وجل.. ويجد في الحج موطناً لإطفاء هذه الأشواق وتلبية حاجاتها..

ويكون ذلك غالبا عند من تيسر لهم الحج مرات كثيرة..

ومثل السببين السابقين، لا يمكن الاعتراض تماما على هذا الدافع، لكن **يمكن حتما الجدل بكون هذا ليس هو (المقصد) للحج. ليس هذا هو هو الهدف الذي من أجله شرع الحج وصار ركنا من أركان الإسلام الخمسة..**

لكن، لماذا نحج إذن؟

ما هو الحج؟

ليس الحج كما يبدو في ظاهره، رحلة إلى مكة وما يجاورها.

ليس رحلة نستقل فيها وسيلة نقل، ونقوم بكل إجراءات السفر التقليدية. وأكثر من التقليدية أحيانا. قرعة. انتظار لسنين. تأشيرة. أمتعة. موافقات. تطعيمات..

قد يبدو أنه مثل سفرة عادية ولكن إلى مكان مقدس. مكان غير عادي..

يبدو في الظاهر فقط.

أما في الداخل. في الجوهر.. فالرحلة الحقيقية ليست هي تلك التي نقوم بها عبر الطائرة.

ليست تلك التي نقول بعدها لمن يجلس بجانبنا (حمدا لله على السلامة)..

رحلة الحج هي رحلة في داخل نفسك..

رحلة تبحث فيها عن ذاتك..

نعم..

أنت تنتقل في المكان. في الجغرافية. عبر خطوط الطول والعرض.

لكن هذا سهل.

الرحلة الأصعب هي تلك الرحلة الأخرى..

الرحلة في تلك القارة غير المكتشفة التي تقطنها دون أن تعرف عنها شيئا..

قد تعرف الكثير عن عواصم العالم وقاراته، وكل ما درسته في المدرسة عن الجغرافية، وكل ما حفظته من معلومات عامة عن مواقع تاريخية وسياحية حلمت بقضاء إجازة ما فيها..

قد تعرف الكثير عن ذلك العالم في الخارج..

وقد تتوهم أن الحج هو رحلة إلى جزء من ذلك العالم في الخارج..

لكن الحج هو أيضا **رحيل إلى العالم الآخر في داخلك..** إلى ذلك المكان الذي لم تفكر يوما في زيارته.. المكان الوحيد الذي لا يحتاج إلى تأشيرة ولا إلى جواز سفر، ورغم ذلك فإن الناس تصطف في البرد ساعات من أجل تأشيرة لمكان بعيد آخر.. وتغفل عن زيارة هذا المكان..

الحج هو هذا.. هو ذلك الرحيل إلى ما يجب الرحيل له.. هو الرحيل – لا بحثا عن متعة عابرة أو نزهة أو استجمام - بل بحثا عن نفسك..

الحج هو **رحلة البحث عن الذات..**

البحث عن نفسك التي لا يمكن لك أن تواصل الطريق حقا دون أن تجدها..

الحج هو **رحلة اكتشافك لذاتك ونفسك.. لمعنى وجودك..**

الحج هو الرحيل في داخل ذاتك لكي تجد الشخص الذي يجب أن تكونه.. لكي تسلمه المسؤولية.. لكي تقول له أن يخلصك من ذلك الشخص الآخر الذي يثقل كاهليك بكل ما لا يجب أن تكونه..

الحج، قبل أن يكون رحلة إلى مكة، هو رحلة في داخلك..

رحلة في الداخل تتناسق مع رحيلك إلى مكة خطوة خطوة.. يحدث تزامن بين الرحلتين على نحو استثنائي.. بالضبط كما **تحدّث معلوماتك في جهاز الحاسوب، وتكون قد ربطته بجوالك.. معلومات الجوال سيتم تحديثها تلقائيا..** أو ما يعرف بالتزامن SYNCHRONIZATION.

الشيء ذاته يحدث مع الحج، ليس من رحلة واحدة، بل من رحلتين..

رحلة في طريق الخارج.. ورحلة أخرى في طريق الداخل..

لا يمكن لرحلة الخارج - رحلة خطوط الطول والعرض- أن تتم أهدافها حقا دون رحلة الداخل..

ولا يمكن لرحلة الداخل – رحلة البحث عن الذات- أن تحدث بمعزل عن رحيلك الخارجي.. وإلا كانت مجرد أوهام وتخيلات..

رحلتان باتجاه واحد..

لكن واحدة في العالم الخارجي..

والأخرى في العالم الذي في داخلك..

والهدف واحد..

أن تولد من جديد..

أحمد

لا..

أن يولد شخص جديد، من ذلك الشخص الذي كنته..

من أنقاضك، من ذلك الركام الذي كنته.. يولد شخص آخر..

هو أنت أيضا..

** * * * **

كما كانت (الكشوفات الجغرافية) عاملا أخرج أوروبا من عزلتها، وقادت إلى اكتشاف (العالم الجديد)، فإن رحلة الحج تلك، يمكن أن تكون شيئا مماثلا في أثرها، ولكن في داخلك، وبدوافع مختلفة تماما، لكنها يمكن أن تسفر عن أثر أعمق.

الحج هو مثل تلك الكشوفات الجغرافية، لكنه يحدث في ذلك العالم الآخر الذي نادرا ما نفكر بزيارته.. العالم الذي في داخلك، وكشوفات الحج الجغرافية، مثلها مثل تلك الأوروبية، **تستهدف البحث عن الموارد غير المستثمرة، الموارد غير المستثمرة فيك**، في أعماقك، في تلك المجاهل البكر التي لا تعرف شيئا عنها بينما تعرف عواصم كل قارات العالم.. الحج يكتشف في داخلك **قارة جديدة، قارة اكتشافُها يغير تاريخك الشخصي**، ويجعلك تسعى لأن يكتشف الجميع القارات المجهولة في داخلهم، ومن ثم تعملون، معاً، على تحقيق ذلك على الواقع، على جعل الأرض التي نعيش فيها، مكانا ملائما لإنزال تلك القارة المجهولة – المكتشفة، على أرض الواقع..

كشوفات جغرافية، نعم..

وكما كانت تلك الكشوفات الجغرافية جزءاً من نهضة أوروبا، كذلك هذه الكشوفات. هي جزء من نهوضك أنت.. جزء من قيامك.. وعندما يلتقي نهوضك وقيامك مع نهوض وقيام الآخرين من حولك، فإن ذلك سيساهم في إنتاج نهوض وقيام يغير وجه البشرية ومسارها كما غيرت الكشوفات الجغرافية الأوروبية وجه البشرية وتاريخها، ولكن تغيير المسار هذه المرة سيكون للأكثر عدالة.. وليس كما التغيير الأول الذي أنتج الاستعمار والنهب والسلب.. (ضمن أشياء أخرى إيجابية لا يمكن إنكارها حقاً)..

كشوفات الأوروبيين عثرت على رأس الرجاء الصالح، و**كشوفاتك أنت ستعيد اكتشاف رأسك الصالح ورجائك الصالح وقلبك الصالح.. وستعيد تعريف الصلاح أيضا..**

نعم كشوفات جغرافية، في داخلك أنت..

تعيد اكتشاف نفسك، وتعثر على قارة مليئة بالخيرات، في داخلك أنت..

المقصد، ركناً من أركان الإسلام

البحث المعجمي عن أصل كلمة حج، سيقودنا إلى مفتاحٍ مهمٍ من مفاتيح رحلة الحج ودليلٍ لا يعوض من أدلة إرشاداتها..

المعنى الأول للفعل حجج، وهو ما اشتق منه الحج، هو القصد..!

الحَجُّ القصدُ حَجَّ إِلينا فلانٌ أَي قَدِمَ وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً قصده وحَجَجْتُ فلاناً واعتَمَدْتُه أَي قصدته ورجلٌ محجوجٌ أَي مقصود.

القصد..

هل هو مكان تقصده؟

نعم.. يبدو ذلك مناسبا.. فعندما تحج، فأنت تقصد مكانا بعينه..

تقصد مكة والبيت الحرام والمشاعر المقدسة..

للوهلة الأولى سيبدو هذا مناسبا جدا..

لكن، للوهلة الثانية، ستكتشف إمكانية أن يكون هناك المزيد..

ربما القصد هنا لا يرتبط بالمكان فحسب..

بل يرتبط بأهمية أن يكون لك مقصد في حياتك..

أن يكون لك هدف في هذه الحياة..

هدف واضح محدد.

هدف له موقع وإحداثيات، وليس مجرد فرضية في خيالك..

هدف مرتبط بمكان.. بطريق على الأرض..

بطريق تشقه على هذه الأرض لتصل إلى هدفك.. مقصدك..

أن يكون لك هدف في هذه الحياة.. أن يكون لك مقصد تراه نصب عينيك وتعرفه جيدا..

الحج يعني القصد؟

نعم..

يبدو ذلك أكثر اتساقا الآن..

أن يكون ركنك الخامس الركين، ركناً يبني في داخلك (المقصد)..

أن لا تضيع حياتك سدى وعبثا..

بل أن تشق طريقك بنفسك.. نحو المقصد..

أن يكون المقصد، في كل شيء في حياتك، شاخصا أمامك..
مثل جبل شامخ..

** * * * **

يذكرني ذلك بـ «من استطاع إليه سبيلا»..
فلا أجد فيها هنا الرخصة المعهودة، بقدر ما أجد فيها **تحفيزاً للاستطاعة..**
عندما تؤمن بهدف ومقصد..
وتعلم أن الطريق إليه وعر وصعب وموحش..
قد تكون (استطاعتك) - حقا - أقل من القدرة على تحمل صعاب هذا السبيل..
لكن إيمانك بالمقصد.. إيمانك بأنك يجب أن تقصده.. يجعلك تروض استطاعتك.. تروضها لتزيدها.. تزيد من قدرتك.. تعمل على نفسك لتقويها.. لتزيد من استطاعتك.. فيصير ما لم يكن مستطاعا، في متناول يدك..
نسمع دوما عن أناس تحملوا ما لا يحتمل للوصول إلى مكة.. يكونون من ذوي الاحتياجات الخاصة، ومن ذوي الحاجة الشديدة، ورغم ذلك يكون في استطاعتهم.. يكون في مقدورهم أن يصلوا لما يجده أناس، في استطاعة أفضل، من غير المستطاع أن يصلوا له..
مع الاستطاعة، الأمر لا يتعلق حقا بقدرات جسدية أو بدنية محددة مسبقا ولا سبيل لتغييرها..
مع الاستطاعة، وعندما توضع في السياق الذي وضعه القرآن، **أن يكون على الناس حج البيت «لمن استطاع إليه سبيلا».. يتحول الأمر إلى مجاهدة مع نفسك.. إلى مغالبتها.. إلى صراع مع (استطاعتك) لتكون على قدر ما كلفك الله به..**
هذا هو التحدي الحقيقي..
هذا هو السبيل الصعب الوعر حقا.. السبيل في داخل نفسك.. في مجاهلك.. في تلك القارة المجهولة العذراء وأراضيها البكر..
السبيل في داخل نفسك هو السبيل المؤدي إلى (الاستطاعة) حقا..
السبيل في داخلك هو السبيل الذي عليك أن تقطعه أولا، بل أن تشقه أولا، تعبده، كي يقودك إلى السبيل الآخر.. السبيل على أرض الواقع..
سبيل الاستطاعة هو الذي يقودك إلى أن يكون باستطاعتك الكثير..
وعندما يكون ذلك، فإن ماردك سينطلق من قمقمه..

وماردك، سيحرر إنسانك، في تلك الرحلة..
التي نسميها الحج..
الركن الخامس!

البرهان والحجة

المعنى الثاني الذي يتسرب من لسان العرب ومعانيه في لفظ (حجج)، يقدم لنا مفتاحا آخر من مفاتيح الحج.. ودليلا إرشاديا في تلك الرحلة..
«الحُجَّة البُرْهان وقيل الحُجَّة ما دُوفِعَ به الخصم وقال الأَزهري الحُجَّة الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة وهو رجل مِحْجاجٌ أَي جَدِلٌ والتَّحاجُّ التَّخاصُم وجمع الحُجَّةِ حُجَجٌ وحِجاجٌ وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً نازعه الحُجَّةَ وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً غلبه على حُجَّتِه وفي الحديث فَحَجَّ آدمُ موسى أَي غَلَبَه بالحُجَّة واحْتَجَّ بالشيءِ اتخذه حُجَّة قال الأَزهري إِنما سميت حُجَّة لأَنها تُحَجُّ أَي تقتصد لأَن القصد لها وإِليها وكذلك مَحَجَّة الطريق هي المَقْصِدُ والمَسْلَكُ وفي حديث الدجال إِن يَخْرُجْ وأَنا فيكم فأَنا حَجِيجُه أَي مُحاجُّهُ ومُغالِبُه بإِظهار الحُجَّة عليه والحُجَّةُ الدليل والبرهان يقال حاجَجْتُه فأَنا مُحاجٌّ وحَجِيجٌ فَعِيل بمعنى فاعل ومنه حديث معاوية فَجَعَلْتُ أَحُجُّ خَصْمِي أَي أَغْلِبُه بالحُجَّة وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً فهو مَحْجوجٌ»[٣٣].
البرهان؟
الحجة؟
هل في ركن الحج معنى كهذا؟
نعم..
في عمق ذلك الركن، في أساسه، هناك تلك الحجة التي تقيمها على نفسك..
هناك البرهان الذي تحتاج أنت أن تراه..
الحجة هنا، ليست على خصمك المعلن.. الذي تخوض حربا معلنة شرسة ضده..
بل على خصمك الآخر.. الذي لا تعلن قط حربك ضده، ربما لأنك تتجاهل حقيقة أنه عدوك.. أو تتعامل معه كما لو كان حليفا أحيانا..

٣٣ لسان العرب مادة حجج

خصمك الآخر.. الذي هو أنت..
تحتاج إلى أن تقيم عليه الحجة..
تحتاج إلى أن تقيم عليه البرهان..
خصمك الآخر، الذي هو أنت، يحتاج البرهان..
ذلك الشخص الآخر الذي تنكر وجوده دوما.. ذلك الشخص المليء بالشكوك الذي نادرا ما تظهره أمام أي شخص..
ذلك الشخص المليء بالرغبة في الهروب من كل مسؤولية.. بالكسل.. بالتنصل من كل شيء..
ذلك الشخص الذي يظهر في الس.. بعيدا عن أعين الجميع..
هو من يحتاج إلى ذلك البرهان..
البرهان، الذي يتمثل في الركن الخامس من أركان دينك..
كما لو كان الفرصة الأخيرة..
فرصته..
وفرصتك الأخيرة!

** * * * **

يقودنا هذا المفتاح إلى **حجة الله على خلقه..**
التي آتاها إبراهيم..
«وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (الأنعام: ٨٣)
إبراهيم؟
إبراهيم والحج؟
كل الحج يرتبط بإبراهيم.. كل نسكه وشعائره ترتبط بسيدنا إبراهيم..
لا يمكن أن يكون ذلك صدفة..
لا شيء صدفة..
تلك الرحلة إلى نفسك..
هي على خُطا إبراهيم..
أحيانا، رحلة في داخل إبراهيم..

** * * * **

الفصل الثالث

معالم على الطريق.. إلى الحج

إبراهيم، تاريخيا هو الذي أذن في الناس بالحج..
أول من رفع صوته، داعيا الناس إلى أن يحجوا البيت..
«وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (الحج:٢٧)
ولعله كان وحيدا.. منفردا.. لعله قال في نفسه.. من سيسمعني.. من سيأتي..
لعله وقف وحيدا على قمة جبل.. ورفع صوته.. وهو يسأل: كيف؟ ومن؟
إبراهيم.. وحيدا على قمة جبل..
لا.
ليس بالضبط.
بل معه ربه.
معه إيمانه الذي شق الدرب.
كان السبيل وعرا.. صعبا.. خاليا.. موحشا..
لكنه لم يكن قط فوق (استطاعة) إبراهيم..
كل ما في ذلك السبيل.. كل ما في ذلك الدرب الذي قطعه إبراهيم، سيكون له شأن، سيكون جزءا من شعائر رحلتك إلى داخل ذاتك..
كل ما في قصة إبراهيم.. سيكون جزءا من بحثك عن ذاتك.
كل ما في إبراهيم، سيكون جزءا من إيجادك لذاتك..

** * * * **

لماذا إبراهيم؟
لماذا إبراهيم دونا عن كل أنبياء الله ورسله، احتل هذه المكانة المميزة في الإسلام وفي شعائره؟
الجواب عن هذا السؤال يحمل في طياته استجوابا لكل ما أؤمن شخصيا أنه من ثوابت الإسلام ومن ركائز انطلاقه وتميزه عن بقية الأديان والمناهج..
إبراهيم ليس موجودا في رحلة الحج فقط، بل هو موجود في شهادة التوحيد، كما في الصلاة أيضا..
في ثلاثة أركان على الأقل، من أركان الدين، نجد إبراهيم موجودا، لا بشخصه، بل بآثاره، بما فعله.. بما قام به وأنتجه..
ولعل رحلتنا في داخل إبرَاهيم، ستجعلنا نفهم رحلتنا الأخرى في داخلنا..

لعلنا لو فهمنا إبراهيم حقا، لصار حجنا رحيلا للبحث عن الذات..
لعلنا لو فهمنا إبراهيم حقا، لعدنا من الحج وقد عدنا بشخص جديد قد ولدته أمه للتو.. وهو مستعد لأن يعيد بناء العالم..

** * * * **

أول المسلمين!

إبراهيم هو المسلم الأول..

نؤمن بأن كل الأنبياء دينهم واحد وهو الإسلام **(الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد)**[30] ولكننا نلاحظ أن القرآن لم يستخدم لفظ الإسلام هذا على أي نبي سبق إبراهيم (أي آدم ونوح تحديدا).. بل نلاحظ أن القرآن قد حدد أن إبراهيم هو من (سمى) المسلمين بهذا الاسم..

«مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» (الحج ٧٨)

كما لو أن الإسلام – الموجود جوهرا قبل ذلك - **قد وصل في هذه المرحلة لمرحلة النضوج والتمايز** وصار يمكن أن يحمل معتنقوه اسما يحملونه كالهوية يعبر عن وجودهم..

كما لو أن المسلمين في هذه المرحلة، صاروا جديرين بحمل الاسم.. صار بإمكانهم أن يكونوا مسلمين ويتحملوا عبء الاسم ومسؤوليته..

هل نستغرب أن هذه الآية بالذات، آية «التسمية» قد جاءت في سورة الحج؟

أليس الحج من أركان الإسلام ؟ بل ركنه الخامس الذي يعني اكتمال أساسات هذا البناء؟ كما لو أننا لا نستحق التسمية ما لم نفهم هذه الأركان كما أرادها الله أن تكون.. أي أن تكون أساسا

بل إن القرآن يشير- سياقا - إلى أن إبراهيم هو (أول المسلمين)..

«قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» (الأنعام: ١٦١ - ١٦٣)

فالرسول عليه الصلاة والسلام – الذي يقول الكلمات - يقتدي بملة إبراهيم حنيفاً..

---

٣٠ السلسلة الصحيحة ٢١٨٢

أحمد

وهو بذلك أول المسلمين..

لكي نفهم الإسلام حقا، علينا أن نفهم إسلام أول المسلمين..

فهذا سيكون عاملا أساسيا في الحج، رحلتنا المزدوجة.. الرحلة إلى مكة .. وإلى الذات..

مشهد العقل

في حياة إبراهيم ليلة مميزة جدا..

كل أولئك الشعراء الذين يتغنون بليالي العمر، يفوتهم أنها ليال عابرة، ويغفلون عن تلك الليلة التي أقامت، الليلة التي حولت مسار البشرية.. الليلة التي أفل فيها القمر والكوكب، ولكن (أشرق) فيها العقل..

تلك الليلة، غيرت حياة إبراهيم، أول المسلمين، ومن ثم غيرت كل حياتنا، حتى قبل أن نولد..

تلك الليلة كانت علامة فارقة في كل ما سيحدث لاحقا.. كل ما سيقام ويشيد لاحقا.. سيحمل في ثناياه تلك الليلة وأثرها..

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (الأنعام: ٧٤-٧٩)

تلك الليلة، غاب فيها كل شيء وأفل..

لكن الليلة نفسها بقيت مضيئة في عمق التجربة الإنسانية..

غاب الكوكب وأفل القمر، حتى الشمس بعد الليل غابت..

لكن تلك الليلة، الليلة الأكثر إنارة في تاريخ الإنسانية، شهدت ولادة شيء جديد..

شهدت ولادة أداة إنارة جديدة، مثل كشاف ساطع، سيكون من الآن فصاعدا في يد الإنسان..

تلك الليلة، أشرق العقل، فأعلن أن لا شيء باقياً إلا الله..
أشرق العقل ليعلن أن كل شيء آفل، حتى العقل نفسه..
لا شيء باقياً إلا الله..
الله الذي لا يمكن أن يتجسد أو يتجسم أو يتمثل في أي شكل مادي.. الله الذي يعجز (عقلنا)، ذلك الكشاف الذي كشف أفول كل شيء، عن معرفة كنهه أو كنه وجوده..
ذلك العقل حيد كل الأساليب الأخرى. وضع النقاط على الحروف.
كل شيء آفل، إلا الله..
ولهذا أوجه وجهي له وحده..
هو مرجعيتي، هو مصدر منهجي..
تلك الليلة، اكتشف فيها الإنسان، دون وحي.. المعنى الأعمق للتوحيد..
تلك الليلة، انتظمت نجومها، نجما نجما، لتكون الركن الأول من الشهادة: لا إله إلا الله..
تلك الليلة تلألأت تلك الكلمات لتشكل منارا جديدا للبشرية..
قوة هذا المنار، في تلك الليلة تحديدا، لم يكن في جوهر المعنى فقط..
القوة جاءت هذه المرة تحديدا من حقيقة أن الإنسان هو من وجدها.. هو من وجدها كـ (حل) لكل ما يواجهه من أسئلة.. من حيرة.. من مفترقات طرق..
تلك اليلة، عندما اكتشف الإنسان حقيقة أن (لا إله إلا الله)، صار مؤهلا حقا ليكون إنسانا كما أراد الله له أن يكون.. تمكن الإنسان، ليلتها، بعقله، من أن يكتشف السر وراء هذا الكون الذي سيكون غامضا مخيفا مريعا لولا تلك الحقيقة..

لم يكن الوحي قد جاء ليلتها.. سيأتي الوحي لاحقا، ليتوج ما بدأه العقل.. لم ينزل الوحي على عقل لم يصل لنتيجة.. بل جاء على عقل أنار الدرب فأثبت استحقاقه للوحي..

ذلك هو إبراهيم..
الشخصية المهيمنة على الحج ونسكه..
الحج يبدأ من تلك الليلة..
من ليلة غيرت مجرى التاريخ..
من ليلة **نصبت العقل ليتوّجه الوحي مؤهلا راشدا** ليتسلمه..
الحج، تلك الرحلة إلى الداخل. تلك الرحلة في استكشاف الذات تبدأ من تلك الليلة، الليلة التي تهدم فيها كل مكرسات لا تعتمد على تلك الحقيقة، هي مما يجب أن

يحطم.. ولو كانت من مكرساتك التي بنيت كل حياتك عليها..
الحج، يبدأ من تلك الليلة التي اكتشف فيها إبراهيم أن (الله أكبر).

** * * * **

«وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (الأنعام: ٨٣)

الحجة هي العقل.
حجة الله البالغة على خلقه..
إنها متوفرة عند كل أولاد آدم..
لكن قلة فقط هي من تستخدمها.. بل قلة فقط هي التي تعرف بوجودها.. أو تؤمن بإمكاناتها.. أو تؤمن بأنها يمكن استخدامها في غير تسيير الأمور الحياتية المباشرة جدا.. القريبة جدا.. الدنيا جدا..
إبراهيم وجد الاستخدام الأقصى لتلك الآلة.. أبحر بها إلى أقصى بعد يمكن أن يذهب إليه، وتنكص بعدها..
إبراهيم وجد الحجة..
عمليا هي عند الجميع..
لكنها عندهم كما الكنز الدفين عند قوم لا يحسنون استخراجه.. بل ويجهلون وجوده..
مع إبراهيم، اكتشفت البشرية وجود الكنز الدفين..
وحلقت إلى الأفق الأقصى الذي يمكن الوصول له..

** * * * **

لكنهم سيقولون لك، لأسباب مختلفة، مدعومين بأقوال لعلماء مهمين[٣١]، إن هذا كله لم يحدث!..
ولن يقصدوا بذلك أن الليلة لم تحدث..
لكنهم يعنون أن ذلك الحوار لم يحدث بين إبراهيم وبين نفسه.. لم يكن حوارا داخليا يبحث فيه إبراهيم ويستكشف - بعقله - عطب كل البدائل المطروحة إلا البديل الحق – الأصل.. الله الواحد الذي لا يمكن وضعه في أي مقياس أو معيار..
ببساطة يعتبرون أن إبراهيم كان يناظر قومه، لا يحاور نفسه ولا الكون ولا مكرسات قومه..

---

٣١ • كما خالفهم في ذلك علماء لا يقلون أهمية.

يستكثرون أن يكون إبراهيم قد سأل تلك الأسئلة.. وهو النبي الموحى إليه..
وهذا صحيح لو فرضنا أنه سأل هذه الأسئلة بعد أن أوحي إليه..
لكن من قال ذلك؟
لا شيء في السياق يدل على ذلك..
ليس هذا فحسب..
بل إن النص القرآني نفسه منحنا الجواب - ضمنا - على هذا الافتراض.. فلفظ **«فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ»** يدل على غير ما يقولون..
جن في لسان العرب تعني **«ستر»**[٣٢] ، وهذا يعني أن الليل ستره، أنه كان مستترا بالليل..
وهذا يعني أنه كان وحيدا..
وحيدا إلا مع الله الذي أراد أن يريه أفول كل شيء.. ليصل إلى ما سيصل إليه..
ويوجه وجهه للخالق الذي لا يخضع لقوانين الأفول..
لا مناظرة مع قومه.. بل **حوار مع الذات - عبر العقل - ومع الكون، للوصول إلى النقطة التي هيأت العقل البشري، ممثلا في إبراهيم، نيابة عن البشرية.**
لقد جن عليه الليل، ستره.. في رحلته تلك..
ومن يومها..
لم يعد الليل مظلما كما كان.

** * * * **

نعرف جيدا مدى انتشار جملة (الله أكبر) في الكثير من الشعائر الإسلامية، خاصة في الصلاة والأذان، وكذلك في الحج..
انتشار الجملة أدى إلى تحولها إلى ما يشبه الشعار أو الرمز الذي يستخدم في مواضع العجب والحزن والدهشة... إلخ.
لكن هذه الجملة، على انتشارها شعائريا، لم **ترد صريحة** في نصوص القرآن الكريم..
لكنها وردت ضمنا.. في تلك الليلة التي **شكلت المنعطف الحاد في درب الإنسان إلى ذاته..**
عندما قال «هذا ربي هذا أكبر» عن الشمس، كان هناك بين الآيات حقيقة، حقيقة

---
٣٢ لسان العرب مادة جنن

أن الله أكبر، لم يلفظها إبراهيم حسبما نقل لنا القرآن ذلك الحوار..
لكنها كانت موجودة في نتيجة الحوار.. في «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»..
الله أكبر!..
ليس بالحجم أو المساحة، فهو خارج كل المقاييس والمعايير..
الله أكبر..
ووعاها بعقله.. اكتشف قدرة العقل على أن يكتشف أن الله أكبر..
الحج، تلك الرحلة ذات الطريقين، باتجاه واحد، **تبدأ من شروق شمس الحقيقة في أعماقك..** عندما **تدرك أن الله أكبر من كل أولوياتك، كل أوهامك وأوثانك التي اتخذت أشكالا محببة..**
ها أنت في ليلة ما، في عتمتها، يأتيك هاجس ما بأن تلبي النداء هذه السنة وتذهب للحج.. تتساقط كل خططك.. تقرر أن تخرج عن نمط حياتك السابق، وتقر بذلك ضمنا بخطأ هذا النمط..
ها هي ليلة إبراهيم تتكرر معك.. ها هو الحج يضعك في مواجهة مع أوثانك..
ها أنت تولي وجهك نحوه.. نحو مكة.. نحو البيت الحرام..
الحج..
عندما تقيم الحجة على نفسك..
تجد البرهان في ذاتك..
أن الله أكبر..
وأنه لا إله إلا الله..

** * * * **

تتداخل علاقة إبراهيم مع شعائر الحج، مع تلك الليلة التي أشرق فيها العقل لينير الدرب إلى الوحي الإلهي..
هذا التداخل، يؤكد لنا ضرورة أن نفهم شعائر الحج.. أن نسبر أغوار مقاصده ودوره في حياتنا..
لا يمكن لنا أن نقتفي خطوات (المسلم الأول) ــ الذي اكتشف العقل - في رحلته تلك، ثم بعد ذلك لا نستخدم (راحلته) الأساسية في تلك الرحلة..
الراحلة ــ العقل، الذي مضى إلى الوحي ليلتحم به، لا بد أن يكون راحلتنا الأساسية

في تلك الرحلة..
كيف يمكن لك أن تسير على درب إبراهيم، إن تنكبت عن سنته؟
وكان من ضمن سنته، أنه **اكتشف العقل..**
في ليلة أفل فيها الجميع..
واكتشف العقل، أنه سيأفل أيضا، وأن الوحيد الذي لا يأفل هو الله..
في كل خطوة من خطوات رحلة الحج، لا بد أن نتذكر راحلة إبراهيم، أداته في تلك الرحلة..
في كل خطوة، علينا أن نفهم. أن نستخدم العقل. أن نعمل على التحام العقل مع الوحي.
عندما نفهم..
لن تكون عبادتنا أفضل فحسب..
بل سنكون على سنة إبراهيم، عندما نفعل ذلك..

مشهد الهدم

«إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ. قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ. قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» (الأنبياء:٥٢-٦٨)
التخلص من الأوثان ليس أمرا نظريا.. ليس جدلا مع الذات أو حتى مع الآخرين..
ليس حالة تأمل أو ممارسة لرياضة اليوغا..

لا بد من المواجهة على أرض الواقع.
لا مفر من المواجهة.
لا يمكن لتحطيم الأوثان أن يظل حبيس الوجدان والفكر، لا يمكن أن يكون ثمة انتصار إن لم تتنزل المقارعة إلى أرض الوقع.. ميدان الفعل.. الأفكار لا تنتصر لوحدها.. يكذب كل من يدعي ذلك.. بل هي تنتصر عندما تتمثل في الواقع وتتنافس أو تتصادم فيما بينها..
قد يكون ثمن الصدام باهظا.. قد تكون هناك خسائر فادحة..
لكن ذلك يبقى أفضل من بقاء هذه الأفكار بعيدة عن الوقع، محفوظة في الكتب وفي رؤوس الناس بدلا من أن تنزل إلى الميدان لتثبت فاعليتها أو فشلها..
الصدام لا مفر منه.
وعندما تؤمن أن فكرك هادم للأوثان.. فإن عليك أن تثبت ذلك..
وهذا ما فعله إبراهيم..
كان يعرف تماما أن الأوثان لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا.. ولكنه كان يريد لقومه أن يروا هذه الحقيقة بأعينهم..
حطمها ليثبت لهم أنها لا فائدة فيها.. أنها كانت عاجزة عن حماية نفسها.. أنها تستمد قوتها من إيمانهم بها.. أنهم هم من يوفرون لها الحماية..
هل أدت المواجهة إلى انتصار فكر إبراهيم؟
للوهلة الأولى لا..
لم يحدث..
لكن من قال إن كل المواجهات يجب أن تنتهي فورا بالانتصار..
طبيعة الانتصار تحتم أن يمر بمراحل..
بل لا يمكن الوصول له إلا عبر مراحل.. كل مرحلة تحمل نصرها (المرحلي) الخاص بها والذي يقود إلى المرحلة التالية التي ستحتاج إلى مواجهة مختلفة بمواصفات انتصار مختلفة..
و(موقعة المعبد) تلك، التي مثلت مواجهة إبراهيم لأوثان قومه مباشرة وعلى أرض الواقع، كان لها نصرها الخاص بها..
نتوقع أن يكون النصر هو أن يؤمن قوم إبراهيم بالله الواحد الأحد ما داموا قد رأوا أن الأوثان عاجزة عن حماية أنفسها أمام فأس إبراهيم..

لكن هذا لا يحدث على أرض الواقع.. **الناس لا تترك ما آمنت به طيلة حياتها فقط لأنه أثبت أنه لم يكن بالكفاءة المظنونة..** قد يهتز إيمانهم.. قد تتسرب الشكوك.. وقد يكون في منظومة هذا الإيمان ما يجعل المؤمنين به مستعدين لهزات من هذا النوع - كأن يكون هناك ثمة اختبار لإيمانهم - وقد يؤثر هذا سلبا على فئة من المؤمنين وهم يرون مصدر إيمانهم يتحطم..

لكن عموما الناس لا تترك ما ألفته وعاشت ضمن رؤيته لمجرد أنه أثبت فشله..

قد يعتبرون فشله عابرا..

وقد يعتبرونه امتحانا..

وقد يعتبرونه انتصارا، ينكرون كل فشل أو هزيمة ويعيدون تعريف كل المفاهيم ورواية كل الأحداث ليصلوا إلى حقيقة معكوسة هي أن (معبودهم قد انتصر) فيما يراه الجميع هزيمة منكرة..

كل هذا يحدث، حدث مع قوم إبراهيم وهم يرون الآلهة وقد حطمت..

وحدث مع أصحاب كل النظريات والمنظومات الفكرية التي فشلت في منح معتنقيها ما يريدون من سعادة أو استقرار أو تحقيق لأهداف محددة.

ولكنك تجدهم، كما فعل قوم إبراهيم بالضبط، **يرون آلهتهم محطمة، ويهرعون لحرق إبراهيم بدلا من حرق أفكارهم وروؤسهم التي جعلتهم يؤمنون بتلك الآلهة الفاشلة..**

فهل من معنى في المواجهة إذن؟

بالتأكيد..

قرار هؤلاء ليس نهائيا بكل الأحوال، وقرارهم أيضا منطقي حسب منظومة تفكيرهم..

لقد سكنوا في منزل ما طيلة حياتهم.. أحبوه وألفوه..

ثم جاء من يقول لهم إن المنزل آيل للسقوط.. بين لهم الشرخ الموجود.. وشرح لهم كيف أن البيت لم يعد آمنا.. وتشقق السقف وانهار جزء منه كما لو كان يمنح المصداقية لما قيل لهم..

سيصرون على الإنكار.. على الترميم.. على تنظيف الأتربة الساقطة من الشرخ..

سيحاولون قدر الإمكان تجاهل الأمر..

منطقيا هذا غير منطقي..!

لكن الإنسان ليس كائناً منطقياً دوماً..
هل ينتظر ممن تعبد لبقرة أو لصنم أو لرجل ميت أن يكون منطقيا؟
لا. حتما..
ولهذا فسيصر غالبا على إنكار حقيقة أن البيت آيل للسقوط حتى لو كان ينهار على رأسه.. سيصر على المضي في سفينة غارقة حتى لو كان يرى تدفق الماء إليها..
لماذا؟
لماذا يعمد البعض إلى هذا وتجاهل كل ما نراه قاطعا ويقينيا؟
لأنهم ببساطة لن يتركوا ما ألفوه واعتادوه إلى **بديل غير موجود بعد.. بديل قيد التكوين.. بديل قيد الإنشاء..**
وإبراهيم في هذه المرحلة لم يكن **قد بنى البديل بعد..**
كان في مرحلة الهدم.. وهي مرحلة ضروية. حتمية. لا يمكن لأي بناء إلا أن يبدأ بها..
لكنها مرحلة لا **تجذب إلا الواعين المدركين،** وهم فئة قليلة نسبيا، فاعلة ومؤثرة ربما.. لكنهم (قلة).. إنهم من أدركوا أن الانهيار قادم لا محالة، ربما وضعهم في (المجتمع) - في أسفل طبقاته مثلا - جعلهم يدركون هذا أكثر.. وربما رأوا ببصيرتهم فشل المنظومات الهالكة.. فشل تلك الآلهة المستهلكة..
لكنهم سيبقون قلة..
أما الغالبية، فستبقى متمترسة في البناء الآيل للسقوط.. في السفينة الغارقة..
في تمسك بالآلهة المحطمة..
في تمسك بالمنظومات الفاشلة..
إلى أن تقترن صعوبة الاستمرار في البقاء، بوجود بديل واضح، يمكن الانتقال له..
عندها سترى هؤلاء (يدخلون في المنظومة الجديدة) بحماس...
لم يكن يمكن لذلك أن يحدث في (موقعة المعبد)..
فقد كانت مرحلة الهدم التي لا تجذب بطبيعتها إلا القلة..
لكن لاحقا، وعندما سيرتفع البناء.. سترى الوضع مختلفا..
حدث مع إبراهيم..
ومع محمد عليه الصلاة والسلام..

وما كان سيحدث، لولا أن هدماً عميقاً، في الأسس، في قواعد المجتمع المعرض للانهيار، قد مهد للبناء اللاحق.. الذي صار مركز جذب..

** * * * **

فلنتذكر هنا أن المواجهة – الهدم تؤدي غالبا إلى خسائر فادحة..
إبراهيم مثلا كان يمكن أن يحرق لولا أن تدخل عز وجل ليأمر قوانين النار أن تكون بردا وسلاما عليه..
حتى بعد نجاته.. كان لا بد لإبراهيم أن يترك قومه ومدينته..
وهذا بحد ذاته خسارة، كان لا بد أن تحدث..
الهدم إذن جزء من رحلة إبراهيم..
لكنه هدم من أجل بناء لاحق..
ليس بالضرورة أن تمتلك كل الخرائط للبناء البديل.. ليس بالضرورة أن تكون قد أعددت كل مواد البناء وكل تجهيزات المقاولة..
لكن من الضروري أن تعلم أنه لا بد من الهدم..
ولا بد أن يكون خطوة أساسية من أجل البناء..
ولا بد من معرفة أن الخسائر أمر لا بد منه..
وأن الناس لن تلتف حولك في مرحلة الهدم!!!

** * * * **

كما كان هذا الهدم جزءا من سيرة إبراهيم ومن رحلته، فإن الهدم أيضا جزء من رحلة الحج.. إنه جزء خفي وداخلي وقد يكون مغيبا من الرحلة.. قد يكون مغيبا خلف التهاني والتبريكات والأمنيات والدعوات التي تستلمها من الناس فور إعلانك بأنك ستذهب إلى الحج..
خلف ذلك الغلاف البراق من التهاني ثمة حرب عليك أن تواجهها.. ثمة فأس تنتظرك أن تأخذها وتهيل بها على أوثان ما.. تحيلها جذاذا..
المشكلة أنك قد تسهو عن ذلك في خضم التحضيرات..
تسهو عن تحضيراتك لمعركتك في الداخل..

** * * * **

بطريقة ما، تحطيم أوثان الداخل **ليس أقل صعوبة ولا خطورة من تحطيم الأوثان في الخارج..**

بل هو أحيانا يواجه بتحديات أكبر..
أوثان الخارج **محاطة بحماية اجتماعية وحرس قديم**، ولكنك مقتنع تماما بضرورة مواجهتهم ومواجهتها..
أما أوثان الداخل، **فحراسها هم أنت..** أنت من يحاول حمايتها على غفلة من كل الناس، أنك مقتنع تماما بخطئك في خضوعك لهذه الأوثان.. أنت تعرف تماما أن هلاكك قد يكون في خضوعك لواحد منها، وأن تلك الشهوات السرية، بمختلف وجهاتها، هي التي تجعل حياتك على غير ما يجب أن تكونه..
تلك الأوثان، أنت وحدك تعرفها، كما تعرف ضعفك، وأنت من يحرسها، أنت (حرسها القديم) الذي يحاول الإبقاء عليها عبر صفقة ما.. ربما الطمع في مغفرته عز وجل؟ ربما الحج نفسه يريد حرسك القديم أن يسخره ليكون جزءا من صفقة ترضية لضميرك في تناسي ما فات..
ما هي أوثانك؟ تراها دوما على قائمة أولوياتك.. **الأنا المتضخمة؟ العيش المترف؟ الشهوات التي تعرف أنك تجاوزت حدود الحلال فيها؟ اعتناقك لحياة شخصية مخالفة تماما لوجهة القبلة التي تصلي عليها؟**
أنت تعرف..
أنت تعرف!!

** * * * **

عشية الحج، ربما في الخارج جو احتفالي لتوديعك..
لكن في الداخل في هيكل ذاتك، يتقدم منك إبراهيم بهدوء..
يضع الفأس في يديك..
يمكن لك أن تنهال به على أوثانك فتحيلها جذاذا.
ويمكن لك أن تتركه يسقط من يديك..
أن تحتفي بمودعيك..
أن تضعه بعيدا، تؤجل استخدامه.. أو تخدع نفسك بوضعه في مكان آمن..
الفأس في يدك..
وكذلك الخيار..

** * * * **

ولو حدث وفعلتها، وأمسكت بالفأس لتحطم أوثانك، **فعليك أن تعلم أن نارا ما في انتظارك..**

نارا في داخلك، نارا يعدها حرسك القديم، أي أنت بطريقة ما..

ستتلظى في تلك النار، تحطيم الأوثان سيكون مؤلما، ستتعذب وأنت تتخلص من أسوأ عاداتك.. ستتعذب وأنت تحارب شهواتك.. ستتعذب وقائمة أولوياتك ستطاردك كما يطارد الجراد فريسته..

ستكون مثل مدمن يرتجف قهرا وقد سلب منه أفيونه..

سترتجف طويلا بينما خلاياك وكريات دمك تتلظى وتريد أن تعود إلى ما كانت عليه..

وشيئا فشيئا.. بينما ينظف دمك من إدمانك..

تصير النار بردا وسلاما عليك..

مشهد السنن

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (البقرة: ٢٥٨)

في الدرب من الهدم إلى البناء، ثمة مشاريع أخرى.. أبنية أخرى، تعترض طريقك..

كما اعترضت طريق رائد الرحلة سيدنا إبراهيم..

إنها مشاريع لا يمكن القول أن لا بناء فيها، **بل فيها بناء قد يكون متطاولا وباذخا وقد يبدو لك أو لسواك قويا متماسكا..**

في الحقيقة مظهره حتما فيه من القوة والتماسك الكثير..

لكن هذه المشاريع تقوم على أسس وقواعد، مغايرة بل ومضادة لقواعد وأسس البناء الذي تريد أن تشيده.. قواعد وأسس تؤمن أنها ستكون السبب الذي يجعل هذا البناء معرضا للانهيار ولو بعد حين.. بالضبط كمن **«أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» (التوبة: ١٠٩)**

هذه المشاريع تشكل خطرا لا يمكن تجاهله قط، فقوتها وجاذبيتها تكمنان في أنها

مشاريع حقيقية، مشاريع على أرض الواقع، مشروعك لا يزال **(قيد الإنشاء)**..
وهو بالنسبة للكثيرين لا يزال مثل الحلم.. أقرب للوهم منه إلى الحقيقة..
أما هذا المشروع المتطاول فهو حقيقة..
رغم كل عيوبه ومساوئه.. فهو حقيقي.. بينما **مشروعك لا يزال في مرحلة التخطيط..**
قوة هذا المشروع قد تجذب حتى بعض ممن يفترض أنهم من بناة مشروعك، قد تجعلهم يقتبسون من المشروع المتطاول، قد تجعلهم ينهزمون أمامه لا شعوريا، فيدخلون نمطه وتصميمه وحجارته في بناء مشروعك..
لا يعني هذا أن عليك أن تتجاهل المشاريع القائمة. على العكس، **تجاهلها غالبا ما سيكرس قوتها وسيجعل حضورها مهيمنا أكثر في لا شعور الجميع..**
لكن عليك بمقارنة كل شيء، بالقاعدة والأساس الذي بني عليه هذا المشروع، **هل هذا التفصيل الذي يجذبك مرتبط بأساس مخالف لقواعدك وأسسك؟** أم أنه مرتبط بما يمكن أن يكون مشتركا بينكما (وكثير من المشروعات البشرية فيها مشتركات)..
دراسة وفهم المشروع القائم، دونما انبهار أو رفض مسبق، هو الحل الوحيد للخروج من السقوط في أسر المشروع المتطاول المزدهر، بينما مشروعك لا يزال قيد البناء..

** * * * **

النمرود الذي تحداه إبراهيم ليس مجرد طاغوت من طواغيت عصر قديم..
بل هو رمز لكل منظومات الحضارات الطاغوتية، حتى تلك التي تتغنى بالديمقراطية والليبرالية والحرية الشخصية..
كل منظومة حضارية، تقوم على أسس تتعدى على أسس وقواعد اختارها الله لخلقه هي حضارة نمرودية بشكل أو بآخر..
وحوار إبراهيم والنمرود هو حوار مع كل المنظومات الحضارية الأخرى عبر الأزمان والعصور..
جوهر الحوار قائم على فكرة واحدة.. السنن..
إبراهيم يتحدى النمرود بسنن الله.. بقدرته على الإحياء والإماتة..
والنمرود، يستخدم قوانين أخرى، وضعها الله أيضا، ليتحدى تلك القدرة.. **إنه يستخدم قوانين بسيطة مثل أن السيف أو الرصاص أو أي قوة أخرى، يمكنها أن**

تقتل أيضا..
النمرود، وكل حضارات الطغيان، تستخدم السنن التي وضعها الله في خلقه، تسخرها لتتحداه..
لكن إبراهيم يحاججهم بما هو أكبر من ذلك..
يطلب منهم أن يغيروا القوانين..
يطلب منهم أن يعكسوها ويأتوا بضدها لا أن يستخدموها..
الشمس تأتي من المشرق..
اعكسوا مسار الشمس إن كنتم فاعلين!..
كل ما تطاولتم به قائم على استخدام لقوانين وسنن وضعها الله في خلقه..
ورغم ذلك، فإن أساس بنائكم يخالف ما يريده الله، يعاكسه..
أي تناقض!
لو كنتم منسجمين حقا مع قواعدكم.. غيروا السنن والقوانين الإلهية التي بني عليها الكون..
فبهت الذي كفر.. والله لا يهدي القوم الظالمين..
والظلم هنا، يعني، ضمن معانيه الكثيرة، **أن تستخدم السنن والقوانين الإلهية التي تسير هذا الكون، لكنك تستخدم هذه السنن ضد ما يريد واضعها..**
منتهى الظلم..

** * * * **

الحج هو بطريقة ما رحلة في طريق السنن الإلهية.. السنن التي لا مفر من الإنكار أننا حاليا في أبعد طرقنا عنها..
لكن الحج، هو رحلة سنن.. السنن الإلهية التي بني الكون على أساسها..
كل حياتنا مبنية على سنن وقوانين وضعها الله واستثمرناها نحن طويلا دون تمييز..
لكن الدخول في معترك التفاصيل اليومية المتراكمة، يجعل إحساسنا يتبلد، يتكلس.. يعمى بالتدريج عن رؤية ما هو جوهري، وينشغل بالتفاصيل الصغيرة الدقيقة الملهية عن رؤية الجوهر..
وهكذا لن تصبح السنن سننا، بل ستصير مجرد ما تعودنا عليه.. مجرد روتين يمر في حياتنا وتمر حياتنا عليه دون انتباه.. دون تمييز لمصدر هذه السنن، دون تسبيحة

تصدر من عقولنا وقلوبنا تجاه كل تفصيل لأنه في حقيقته (معجزة خارقة)..
لكن كل شيء في حياتنا يتراكم عليه الكلس والصدأ.. بالذات (استقبالنا) لكل شيء..
كل شيء يطحننا ويحولنا إلى كائنات منشغلة بكل ما هو تفصيلي..

الحج يخرجنا من طاحونة التفاصيل..

الحج يخرجنا من نمط حياتنا التقليدي.. كل شيء يتغير فجأة.. كل ما في السبيل إلى الحج مختلف عن طرقنا التي نسلكها في حياتنا اليومية..

فجأة كل ما نقوم به مختلف..

ملابسنا مختلفة.. الطريق الذي نسلكه مختلف.. ننام في أماكن مختلفة وعلى نحو لم نألفه من قبل..

فجأة يسقط غطاء التفاصيل.. تسقط الغشاوة عن أعيننا..

ويصير بصرنا حديدا..
نستطيع بعدها أن نتأمل في السنن كما لو كنا نراها لأول مرة.. بل ربما كنا نتأملها فعلا لأول مرة..
طريقنا.. طرقنا.. طريقتنا..
كل شيء في حياتنا، سنستعيد معناه كما أنه لم يكن من قبل..
سنتأمل العالم كما لو أننا نتعرف عليه للمرة الأولى.. **مثل قروي يرى الكهرباء لأول مرة وقد قضى عمره على ضوء شمعة..**
سيأخذنا الحج من نظرتنا التقليدية لأنفسنا، سنبدو أشخاصا مختلفين بملابس الإحرام وسيبدو العالم كله مختلفا عما سبق..
سيجعلنا هذا أقرب للسنن في حقيقتها، فقط لأن كل شيء سيبدو الآن وقد أزيل عنه تراكم الصدأ والتبلد..

سيكون للشروق معنى.. وللغروب معنى.. للحصى معنى.. للمشي معنى.. للهرولة معنى.. للأرقام معنى.. للماء معنى..

حتى السور التي اعتدنا على قراءتها تماما في كل صلواتنا، فجأة ستصير كالسنن الكونية.. **تتدفق معاني..**
كل شيء، كان يبدو سابقاً روتينياً وتقليدياً وعادياً.. سيستعيد الآن، عبر الحج، هويته الأصلية.. سيكون جزءا من السنن التي أودعها الله في هذا الكون..
لكن هذا كله.. لن يكون فقط **من أجل أن تقول (سبحان الله) على نحو أكثر تأثرا..**

أو تتأمل وتتفكر في خلق الله على نحو أكثر عمقا..
الأمر هو في وضع السنن، **في أن تستخدمها كما يريد من وضعها..** أن تستثمرها كما يشاء وفيم يشاء..
كل منجزاتك وتطاولك وبنيانك.. كل ما ستفخر به من آثار في هذه الدنيا..
ستكون مستقاة من السنن الإلهية..
وسيكون من الظلم أن تستخدمها في غير ما يريد، لتطاول بناء لم يبن على قواعد وأسس مستقاة منه..
إن شئت فحاول تغيير السنن الكونية..
اجعل الشمس تشرق من المغرب..
بعض المشاريع الحضارية **تستخدم السنن الجزئية التفصيلية على نحو صحيح..**
أما **السنن الشاملة فهي** تحاول عكسها..

** * * * **

يقودك الحج إلى ذلك المشهد بين إبراهيم والنمرود.. تجد نفسك فجأة بين السنن التي يحاجج بها إبراهيم..
ينبهك الحج إلى أنك كنت دوما جزءا من هذا المشهد..
لكنه سينبهك إلى أنك لم تكن دوما في جانب إبراهيم..
لقد كنت أحيانا، دون أن تدري مفتونا بالنمرود..
يمنحك الحج - بينما يزيل عنك غشاوتك – الفرصة لأن تغير هذا..
الفرصة لأن تغير موقعك من المشهد!

مشهد القلب

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (البقرة: ٢٦٠)

العقل، قد يكون مقتنعا..

لكن القلب، ذلك الكائن الغامض الذي يسكننا ونسكنه.. **هذا القلب، يحتاج أحيانا إلى لغة أخرى، إلى أبجدية لا تناقض أبجدية العقل بالضرورة، ولكنها أبجدية تبث على موجة مختلفة.. موجة أخرى غير تلك التي يبث عليها العقل..**

فأين أبجدية الوحي إذن؟

أبجدية الوحي هي الوحيدة القادرة على الجمع بين العقل والقلب. هي الوحيدة التي يمكن أن تبث على نحو مزدوج إلى العقل والقلب.. الوحي الصادر عن رب العالمين الذي أحسن كل شيء صنعه.. وهو الذي صنع الإنسان.. و»بثه» – وحده عز وجل – هو الذي يمكن أن يتقبل من الإنسان، كل الإنسان، عقله وقلبه..

الإنسان كل لا يمكن تجزئته، عقل وقلب..

والوحي يخاطب الاثنين..

** * * * **

وقال إبراهيم.. أرني كيف تحيي الموتى..

أولم تؤمن؟

بلى.

ولكن ليطمئن قلبي.

قلبه لم يكن مطمئنا.. يريد أن يرى كيف يحيي رب العزة الموتى..

لم يتهرب من شكوكه.. والشك أمر إيجابي أحيانا.. نحن نتهرب من شكوكنا كما لو كانت شيطانا رجيما.. كما لو كانت تقودنا بالضرورة إلى غياهب الحيرة والضياع، وننسى أن الشك يمكن أن يقودنا إلى إيمان أقوى.. إلى يقين.. إلى أجوبة أكثر دقة.. إلى صورة أكثر شمولا ورؤية أكثر توازنا..

الشك يمكن أن يحملك مسؤولية البحث عن أجوبة..
قلبه أراد أن يعبر إلى الطمأنينة.. لم يرتح وتلك الأسئلة عن إحياء الموتى تؤرقه..
ولكنه لم يهرب من المواجهة..
بل واجه مشكلته كما تواجه كل المشاكل، **باقتحامها**..
لا بكبتها ودفنها وتجاهلها.. وتركها تتضخم في الظلمة بعيدا عن الضوء..
بل بالمواجهة..
نعم.. أريد أن أزيل شكي ليطمئن قلبي.. إيماني ثابت. لن يتزعزع بهذا الشك.. لكنه سيصبح أقوى وأكثر نماءً وازدهارا لو اطمأن قلبي..

** * * * **

جاء الجواب عن السؤال على نحو **عملي، تطبيقي..**
أُمر إبراهيم بأن يقوم بتجربة عملية، كانت نتيجتها أنه شاهد بعينه كيف يحيي الله الموتى..
نتيجة قد لا نستطيع الحصول على ما يماثلها، فللنبوة مقامها الكريم الذي جعل الجواب يكون مباشرا وآنيا..
لكن الجواب الإلهي لسؤال سيدنا إبراهيم تضمن ما ينير درب كل الأجوبة لنا..
قال لنا الجواب، **إن الحصول على أجوبة يتم عن طريق التجربة.. عن طريق خوض ميدان التجارب العلمية لمعرفة المساحات الهائلة اللا متناهية لقدرته عز وجل..**
العلم، وآفاقه التجريبية التطبيقية، هو الذي يمكن من خلاله أن نستكشف ولو جزءا يسيرا وبسيطا من قدرته عز وجل..
عندما يفتح لنا العلم أسرار الخلق والحياة وقدرته عز وجل فيهما، فإن ذلك وإن لم يتطرق لإحياء الموتى، إلا أن الأمر سيبدو مثل التحصيل الحاصل لكل ذي عقل..
كل من يشهد قدرة الله في خلق الحياة، ويشهد كيف أن المعرفة البشرية عن هذه القدرة تتزايد كل يوم لتكشف عن جهلنا بقدرته.. كل من يرى ذلك، لا بد أن (يحدس) الجزء الذي لا يراه من الصورة، كل أجزاء الصورة، بروعتها وتفاصيلها، لا بد أن تقود إلى ذلك الجزء الذي لا نراه من الصورة.. إحياء الموتى..
الصورة المتكاملة، الصورة من منظور أكثر شمولا.. الصورة الكبيرة.. (أكبر ما يمكن رؤيته!)

ستدلنا على ذلك الجزء الذي لا نستطيع رؤيته..
ولن يكون ذلك أقل مصداقية وتأثيرا من الرؤية المباشرة..
فالعقل يبصر أفضل من العين المجردة..!
وكل ذلك، لا يمكن أن يحدث، دون (علم تجريبي.. تطبيقي)، لا مفر من الإنكار ببعدنا عن مفرداته اليوم..
علم تجريبي، انطلق من عندنا، ربما تأثراً بسلسلة تفاعلات جدحتها هذه الآية أو سواها..
نعم.. خرج من عندنا..
لكنه خرج ولم يعد..

** * * * **

جبل بعد آخر..
وقف إبراهيم وهو يفرق الطير..
أربعة جبال..
لا نعرف أين حدث ذلك..
لا نعرف هل كان ذلك في مكة؟ أو كان ذلك في مرحلة أبكر من مكة؟..
هل كان أحد تلك الجبال جبل النور حيث نزل الوحي على من سيحمل المسيرة الإبراهيمية إلى ذروتها؟

هل كان أحد تلك الجبال جبل ثور، يوم اختبأ عليه الصلاة والسلام، وهو في درب إيصال المسيرة إلى قمتها؟
أم لعله كان جبل ثبير.. حيث سيفدى الذبيح بكبش؟
تلك الجبال، أو سواها، وقف عليها إبراهيم ليجري تلك التجربة..
وقف ليصل إلى طمأنينة القلب..
الجبل الأكثر ارتفاعا..

** * * * **

لا نعرف على أي جبل وقف إبراهيم ليجد قلبه المطمئن..
لكنك أنت تعرف تماما على أي جبل ستقف.. لتجد قلبك المطمئن..
تعرف تماما أين سيكون (مهبط) قلبك المطمئن..
على صعيد جبل عرفة، ستقف.. وهناك ستجد قلبك وقد التأمت شقوقه وتصدعاته..
ستجده يهرول من كل صوب عليك..
قلبك الممزق حيرة وتعبا وركضا ولهاثا، قلبك المضخة التي تنفث مشاعرك دخانا وغضبا وألما وإحباطا.. قلبك المضغة التي فيها خلاصتك وخلاصك.. الحائر مثل قطة صغيرة تحت المطر، المرتبك مثل طفل في أول يوم له بمدرسة جديدة.. قلبك، الذي يريد أن يطمئن، والذي لن تنفعه حبة مسكن أو حبة منوم..
قلبك الذي توهمته قد فارق الحياة منذ زمن طويل، الذي توزعته همومك ومشاغلك وأوهامك وأمراضك..
قلبك الذي توهمته قد فارق الحياة.. ها هو يعود ليردم تصدعاته.. ها هو يسعى إليك..
وعلى جبل عرفة، في يوم عرفة.. ستدق في صدرك المعجزة..
قلبك الذي أغطسته في عرفة، عاد إلى الحياة..
وهاهو يدق كما لم يفعل قط، مثل طفل يعلن حبه للحياة بالقرع على طبل يؤكد وجوده.. مثل جنين يركل أمه ليرسل لها رسائل سرية بأبجدية لا تعرفها إلا هي، وربهما الذي خلقهما معا وربطهما بتلك الرابطة..
قلبك المطمئن، الذي توهمته خرافة مثل الغول والعنقاء والخل الوفي..
ها هو يتجسد أمامك.. وتتعرف عليه.. ويتعرف عليك..
على صعيد عرفة!

** * * * **

مشهد الأمل

«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ»(الذاريات:٢٤-٣٠)

«وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ»(هود: ٦٩-٧٥)

يأخذك المشهد إلى **الأمل الذي ينبت من أرض بور**.. أرض قد أيقنت أن لا شيء سينبت فيها.. قضيت عمرك على أن لا شيء سيخرج منها.. وأخرجتها من حساباتك كلها..

إبراهيم وزوجه هنا كانا كأي زوجين، يريدان حتما أن يكون لهما ذرية..

لكن زوج إبراهيم لم تنجب.. ولا بد أنها كامرأة كانت تعاني من ذلك.. كما لا يمكن لإبراهيم إلا أن يكون قد عانى من ذلك..

مهما كانت منجزاتنا عالية وشامخة، مهما كانت أفكارنا تفتح للآخرين دربا يبنون من خلاله عالم جديد.. مهما تعالينا عن الصغائر.. وقدمنا أعمارنا للقضايا الكبرى..

نحن في النهاية بشر.. مفطورون على أن نريد ذلك.. مفطورون على أن نريد أن يكون لنا ولد.. مهما حاولنا أن نفسر ذلك ونفلسفه ونجد له التعليلات والدوافع..

نبوة إبراهيم، وحجم القضية التي ألقي على عاتقيه، لم تلغ هذه المشاعر الإنسانية لديه..

نعم..

كان يريد الذرية..
فالأنبياء بشر.. وأصحاب القضايا الكبرى بشر.. وبناة الأمم ونهضاتها بشر..
ومثل كل البشر..
حملهم لقضايا الأمة لا يلغي حملهم لهموم البشر.. وأحلامهم وآمالهم..
هل هي مشيئته عز وجل أن يؤخر - أو حتى يحرم - البعض من عباده من تحقيق هذه الرغبات البشرية كي يفرغهم لما قد يكون فيه مصلحة عامة لمجتمعهم وأمتهم؟
هل هي مشيئته عز وجل .. أن يجعل ألمهم وحرمانهم من شيء ما، يدفعهم للإبداع والعطاء والمزيد منهما؟
ربما..
كل هذا ممكن، وهو أدعى لكل من حرمه الله من نعمة ما، أن يفرّغ نفسه وحياته لهدف أعلى، يعوض فيه، ولو نسبيا، ما لم ينله..

** * * * **

بالنسبة لإبراهيم وزوجه، فإن الأمر كان قد تجاوز (الأمل) في هذه المرحلة.. لأسباب ذكرتها هي في سياق الآيات «**أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا**»..
كان الويل بالنسبة لها، في مرحلة سابقة، يوم كانت صغيرة في السن وكان إبراهيم شابا، الويل كان أن تكون عاقرا..
مع الوقت، مرت بهذا الويل، وتأقلمت معه، **ربما لم تجد أنه (ويل) حقا.. ربما تصالحت مع العقم ووجدت فيه الكثير من الخصب الخفي.. ربما جعلها هذا أكثر حكمة وأقل اندفاعا نحو العاطفة.. ربما جعلها ترى الأمور بموازين مختلفة.. وربما جعلها تعتني بأطفال الآخرين.. بمن فقد أمه.. ربما جعلها هذا كالسنديانة في قبيلتها.. يقصدها الجميع للمعونة والمشورة..**
ربما جعلها هذا العقم، وجعل إبراهيم، أكثر قدرة على التحرك.. أكثر قدرة على الرحيل والترحال بين المراكز الحضارية التي جال فيها إبراهيم ودرس خواءها وعوامل انهيارها ودعا فيها لحضارة لا إله إلا الله..
ربما لو كان معه أولاده، وهو ينتقل بين حضارات بلاد الرافدين والشام ومصر، لكانت حركته أثقل.. ربما تأثر بعضهم بتلك التجارب الحضارية على نحو سيكون فيه تفاعل إبراهيم مع تلك الحضارة أكثر شخصيا سلبا وإيجابا..

لا نعرف لم كان هذا تحديدا.. لكنه كان لحكمة حتما..
وهو يحدث دوما، ودوما لحكمة..
بعض النسوة يحرمن من الذرية.. أو من إمكانيتها أصلا، فيحرمن من الزواج..
ولكن بدلا من الغرق في الكآبة والندب، وبدلا من أن يعشن دور العنوسة الوهمي الذي ما أنزل الله به من سلطان، فهن يتحولن ليصبحن شمعة تنير الدرب لأجيال وأجيال..
لا يشترط أن يحدث هذا على صعيد اجتماعي عام.. لا يشترط أن تكون تلك المرأة – أو ذلك الرجل الذي حرم معها - ممن يشار لهم بالبنان..
يمكن أن يكون ذلك على صعيد أضيق، ولكن لا يقل أهمية..
صعيد الأسرة الواحدة.. حيث تقوم العمة أو الخالة التي حرمت من الذرية أو من فرصتها بدور شديد الإيجابية والأهمية في حياة أبناء الأخ والأخت..
وعلى صعيد الحي، والمدرسة.. وربما العمل..
أولئك الذين حرموا من شيء ما، لهم فرصة أن يعوضوا عطاءهم وحنانهم في أفق آخر.. أفق ربما خلقوا ليحلقوا فيه..
بعضهم يكتشف ذلك مبكرا ، أو قبل أن يفوت الأوان..
وبعضهم يفوته ذلك الأفق.. ويبقى يندب حظه الذي لم يدخله في ذلك القالب المسبق الذي يتصور أنه خلق له..

** * * * **

تأقلمت زوج إبراهيم مع ذلك.. حتى بدت لها البشارة للوهلة الأولى **(ويلا) !..**
أن تتغير المعطيات فجأة!..
أن يحيا الأمل القديم فجأة.. بعد أن نبتت محله آمال آخرى وتطلعات أخرى.. ومواجهات يومية أخرى..
أن يستيقظ ذلك الحلم الموجود في أعماق كل امرأة.. والذي تخيلت زوج إبراهيم أنه صار مستحيلا.. ودفنته بالنسيان وبالانشغال في أحلام أخرى..
كان ذلك كثيرا جدا..
وقد استحق أن تأتي الملائكة بنفسها لتزفه..
كما حدث ذلك دوما، في كل مرة تخرق فيها السنن، بسنن أخرى لم نتعودها..
سنن تقول لزوج إبراهيم، ولنا من بعدها، **أن لا أحد (عقيم) حقا.. مهما بلغ من**

العمر..

ما دمت مؤمنا، فأنت لست عقيما..

لديك دوما ما ستكون خصبا منتجا فيه.. حتى لو كنت لست كذلك في جانب آخر..

لكنك لست عقيما قط..

ما دمت مؤمنا بأن من خلقك قد خلقك لهدف ما..

وما دمت حيا!

** * * * **

لكن تلك البشارة لم تكن قط فقط بالغلام!..

لم تكن بأي غلام!..

بل كانت «بغلام عليم»!..

المسألة ليس أن تترك ذرية في هذه الأرض (كيفما اتفق)..

بل ذرية تتابع ما سعيت لأجله. تتابع العمل والبناء.

هل يمكن أن يكون ذلك إلا بالعلم؟..

لم تذكر البشارة شيئا عن تمام صحته وخلقته – على سبيل المثال - لم تذكر شيئا عن وسامة الطفل القادم.. أو أي تفصيل مما يهتم به الوالدان عادة..

غلام عليم.

هذه هي.

تلك هي البشارة حقا.. في رحلة إبراهيم..

** * * * **

هل تخليت عن أحلامك؟

هل تنازلت عنها؟

هل وضعتها في درج سري خاص وأغلقت عليها بالمفتاح ثم أضعت المفتاح عامدا؟

هل وضعتها في العليّة مع دفاترك الملونة وألعاب طفولتك وذكرياتها واعتبرت أنها مثلها.. مجرد ذكريات لمرحلة انتهت.. (مرحلة كنت فيها لا تزال على قيد الحياة.. وعلى قيد الحلم؟)..

هل تعايشت مع اليأس؟

هل قررت أنها النهاية؟

هل قررت أن ذلك الشخص الذي حلمت أن تكونه لا يمكن له أن يكون أبدا.. وقررت أن تجهضه تماما فقط لأنه لم يولد بعد؟

هل قررت أن تتجاهل كل ما حلمت به ذات يوم. فقط كي لا تؤذيك حقيقة أنك لم تحقق أحلامك؟

هل تدرك أنك تنتحر؟

أنك تموت قبل أن يحين موعدك؟

وأن هذا لا يمكن له أن يستمر.. مع الحج!

** * * * **

يقول لك الحج، إن من تسير على خطاه في تلك الرحلة قد بشره الله، في خضم رحلة حياته، بغلام عليم، بعد أن بلغ من العمر هو وزوجه ما لا يسمح عادة بالإنجاب..
يقول لك الحج ألا تتخلى قط عما تريد.. أن تتمسك به.. **إن حرمت من شيء، فلا تقف عنده طويلا جدا ولكن أيضا لا تتخل عنه..**
ضع أحلامك في ملف في وعيك.. أو في لا وعيك.. وتدرج بالوصول إليها.. لكن لا تكف..
هل حقا حرمك الله من أن تكون أبا؟ من أن تكوني أما؟
هل كل من لم يحرم من ذلك أدى مستحقات الأبوة - أو الأمومة؟
بإمكانك أن تؤدي مستحقات ذلك حتى لو لم تكن أبا.. أو لم تكوني أما.. **بإمكانك أن تساهم في تربية جيل جديد بجعل البيئة التي ينشأ فيها هذا الجيل أفضل..**
يمكن لك أن تفرغ حنان أبوتك أو أن تفرغي حنان أمومتك في **عمل بنّاء..**
لن يخفف هذا من ألم الحاجة إلى أن يكون لك من صلبك ومن رحمك ولد..
ولكن.. ليكن الألم دافعا إلى العمل..
لا إلى القنوط والكآبة..

** * * * **

أن تحرم امرأة ما من أمومتها.. أمر شائع.. ولكنه يبقى ضمن هامش إحصائي محدد..

لكن الحج، في مشهد البشارة هذه، يحدثك عن **حرمان آخر شائع جدا**، يعاني منه الكثيرون، رجالا ونساء..

حرمان من وجود شخص ما.. تحن إلى وجوده كما تحن الأم إلى طفل لم تحمله في أحشائها بعد..

نعم..

ثمة حنين إلى شخص ما.. حنين قديم ومتراكم وعميق..

مع الوقت صار حنينك لهذا الشخص يشبه الأمل المستحيل اليائس بلقياه..

مع الوقت، لم تعد تفكر فيه أصلا..

مع الوقت، تناسيته..

ثم نسيته..

يأتي الحج.. ببشارة إبراهيم.. ليقول لك **إنك ستلتقي أخيرا بهذا الشخص..**

يأتيك الحج ببشارة..

تقول لك، إن لقاءك بذلك الغلام العليم، لم يعد مستحيلا..

ثمة أمل لك.. بأن تلتقيه..

** * * * **

من هو هذا الغلام العليم الذي كنت آيست من لقائه؟ بل من وجوده!

إنه أنت..

إنه ذلك الشخص الذي اشتهيت أن تكونه يوما ما..

إنه ذلك الشخص الذي كنت ترسمه في ذهنك لنفسك.. ذلك **الشخص الأفضل الذي لم تكبر لتكونه..**

ذلك الشخص الأكثر نقاء والأكثر شجاعة والأكثر نشاطا.. الذي خذلت نفسك عندما لم تمنحه الوجود..

الحج يقول لك، لست **عقيما ولا عجوزا قط.. ما دمت حيا ويتدفق الإيمان في عروقك..**

الحج يبشرك..

يمكنك أن تكون ذلك الشخص الأفضل..
الأفضل حتى من كل أحلامك..
يمكنك أن تكون.. أن تبدأ من جديد..
الحج يحمل لك بشارة ، أن ثمة شخص ما في أعماقك، آن لك أن تخرجه..
آن لك أن تكونه..

** * * * **

.. وتعرف أن ذلك الشخص مفتاحه العلم ..

** * * * **

هل لهذه البشارة علاقة بما مررنا به سابقا من أنك تعود كيوم ولدتك أمك؟
ربما..

مشهد الدمار

«وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ .قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ» (العنكبوت:٣١ -٣٢)

«قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» (الذاريات: ٣١-٣٤)

«فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» (هود:٧٤-٧٦)

تداخلت البشرى، مع خبر آخر.. هو بشرى أيضا، لكن بطريقة مختلفة..
فالملائكة التي حملت بشارة الغلام العليم، حملت معها أيضا خبر أن قرية قوم لوط سيصيبها الدمار والملائكة سيقومون بتنفيذ هذا (الدمار).
غلام عليم، جيل جديد يولد.. **ولكنه لن يولد إلا على أنقاض حضارة أخرى لم تعد تستحق البقاء..**
حضارة **استنفدت فرصها**.. وآن لها أن تزول..
إنها الحياة تتداخل.. جيل جديد يولد، ليبني من جديد على أسس جديدة..
وجيل آخر قديم، لم يعد له مكان في هذا العالم، جيل استنفد فرصه..
لم يكتف بعدم الإصلاح.. لم يكتف بالدور السلبي في هذا العالم..
بل تفوق على ذلك بالوصول إلى درك غير مسبوق..
بالإتيان بفاحشة لم يأتها أحد من العالمين..
وكان الهلاك – المستحق- في الطريق إليهم..

** * * * **

سنرى إبراهيم وهو هنا في هذا المشهد كما لو كان يحاول أن يوقفه!
سنرى يده تكاد تمتد لتوقف ما يحدث.
لماذا يا إبراهيم تريد أن توقف العذاب عن القرية التي تعمل عمل السوء غير المسبوق؟

لماذا يجادل إبراهيم رسل ربه، وهم الذين يفعلون ما يؤمرون ولا يفترون؟
كيف يمكن له أن يفكر **بتعطيل السنن؟ أو تأجيلها؟.. أو جدالها؟!**
بأي شيء كان يفكر يا ترى؟

** * * * **

في تلك المرحلة، كان إبراهيم **لا يزال يؤمن بإمكانية الإصلاح..**
بالضبط كان يؤمن **أنه ليس من حد أو نهاية لذلك.**
ليس من حد تنتهي عنده محاولات الإصلاح.
كان لوط ومن معه من المؤمنين يحاولون الإصلاح قدر الإمكان..
وكان إبراهيم عليه السلام يرى أن هناك **فرصة لنجاح ذلك..**
ربما كان يعتقد، أنه ما دام قوم لوط لم يمنعوا لوطا من الدعوة ولم يتعرضوا له مباشرة، كما فعل معه قومه يوم حاولوا حرقه، فلا مشكلة في الاستمرار في دعوتهم ومحاولات إصلاحهم..
لكن للسنن منطقاً آخر، وكان سيدنا إبراهيم يتعلم منطقها تباعا.. خطوة خطوة..
منطق السنن الإلهية كان أن **للإصلاح ومحاولاته حدودا لا يمكن المضي بعدها..**
يصير كل شيء بعدها تضييعا للوقت والجهد وربما تمييعا للقضية وثوابتها..
نعم.. ثمة حدود لكل شيء.. وعندما تجرب أساليب الإصلاح والدعوة دون أن تؤتي ثمارها.. فليس هناك معنى للاستمرار فيها.. بل إن ذلك سيكون عبثا لا طائل من ورائه..
ثمة حد للإصلاح..
وثمة حد لتحمل الفساد ودرجته والدرك الذي انحط له المجتمع..
وثمة منطقة، إذا اختار مجتمع ما أن يهبط إلى قاعها.. فإنه يختار هلاكه..
ولهذا فقد أطلق عليهم القرآن الكريم لفظ (المسرفين)..
لقد تجاوزوا كل حدود الإصلاح.. وأسرفوا في الذنوب.. **وليس ثمة مجال إلا لهلاك، بطريقة ما..**

إنها السنن!

** * * * **

.. ولعل إبراهيم وقف عند طبيعة العذاب الذي سيلحق الدمار بتلك القرية..
حجارة من طين؟ مسومة عند ربك للمسرفين؟..
الحجارة التي يرتفع بها البناء.. الحجارة التي هي رمز العمران.. هي ذاتها التي ستهدم البناء على رؤوس أصحابه هذه المرة..
الحجارة.. مرة للبناء ومرة للهدم..
مثل كل شيء يمكن أن يستخدم بوجهين..
مرة لكي يعلو البناء..
ومرة كي يهدم..

** * * * **

ماذا عن الحج؟
كيف يمكن أن يكون هذا المشهد، مشهد دمار القرية، جزءا من الحج؟ في أي جزء من الحج يمكن أن نستحضر دمار قوم لوط وإبراهيم يجادل عنهم؟..
هذا المشهد موجود بعمق في مناسك الحج..
كيف؟
الحجارة التي تدمر حضارة الدرك الأسفل..
ستكون موجودة في الحج.. ستكون ممثلة على نحو ما.. **ممثلة في حصى صغيرة ستكون في يديك هذه المرة، أثناء قيامك برمي الجمرات..**
نعم.. ها أنت تستحضر الحجارة التي نفذت أمر الله في إهلاك ما يجب إهلاكه.. ها أنت تمسكها بيديك.. لم تستحضر جدال سيدنا إبراهيم معها، فقد ورثت العبرة والدرس واستوعبت أن **بعض التجارب الحضارية لا يمكن إصلاحها لأنها استنفدت فرصها في الإصلاح**، وأن بعض التجارب قد ولغت في الفساد حتى صار الفساد أساسها مما لا يمكن نزعه عنها..
الحصى في يدك، رمز لذلك المشهد في الرحلة الإبراهيمية، المشهد الذي أدت فيه الحجارة دور الهدم، كما تؤدي في سواه دور البناء..
لكنك اليوم، وعبر ما تؤديه من مناسكك، تفهم أن دورك لم يعد مثل دور إبراهيم عليه السلام في ذلك المشهد.. كان إبراهيم شاهدا على السنن، بل وحاول تأجيلها..
أما أنت، يا من تتبع خطواته عليه الصلاة والسلام، فقد صارت الحصى – ممثلة عن الحجارة - في يديك..

أحمد

ما الفرق؟

لقد صرت جزءا من السنن الإلهية.. لم تعد متفرجا سلبيا ينتظر أن تهلك الأمم الظالمة بصاعقة أو حجارة من سجيل أو زلزال أو فيضان.. كل هذه الأنواع من الهلاك كانت قبل أن يكمل النوع الإنساني تسلم دوره ومسؤوليته في هذه الأرض.. منذ أن تسلمت دورك في هذه الأرض، صرت جزءا من هذه السنن الإلهية.. لم يعد يمكنك أن تنتظر أن ينزل الحل من السماء، الدليل الإرشادي للحلول قد نزل من السماء وقد تضمن أنك يجب أن تكون جزءا من الإرادة الإلهية ومن تنفيذها أيضا.. الحصى في يديك وأنت ترميها على الشيطان، بل على ما يمثله من تجارب بشرية اتبعت الشيطان .. هلاك الباطل إذن صار على يديك..

هل يعني هذا أن عليك أن تهلك كل تجربة بشرية صار الفساد جزءا من أساساتها؟ أو لم يعد الإصلاح مجديا معها؟..

قطعا ليس بالمعنى السطحي المباشر للهلاك.

فالهلاك يتجلى في أشكال مختلفة..

وكما تمثل في الفيضان والحجارة والصاعقة والريح والزلزال.

فهو يتمثل أيضا في خراب اقتصادي، في تفكك اجتماعي، في مجتمع مهزوم من الداخل..

الهلاك يكون أيضا في كشف أسس هذه الحضارة.. في بيان ما ينخر قواعدها..

في بيان عوراتها، التي قد تكون سترت بفلسفات متقنة، في بيان تأثير هذا العوار على من يعيش فيها..

الهلاك له أشكال متعددة..

والحصى في يديك رمز للهلاك الذي هو من مسؤوليتك..

ليس بالضرورة الحرب.

لكن هذا ليس مستثنى تماما من الأمر..

مشهد الزرع

وهل هناك زرع في رحلة إبراهيم؟

للوهلة الأولى لا، بل ثمة إشارة إلى (واد غير ذي زرع)!
لكن لو تأملنا قليلا، لعرفنا أن مجرد ما فعله إبراهيم حين ترك ذريته في ذلك الوادي الذي بلا زرع، كان عملية زرع بطريقة أو بأخرى.

«إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»(إبراهيم: ٣٥-٣٧)

تركهم في وادي مقفر، لكنه حدد في الدعاء خطته وهدفه، حدد رؤيته لهذا المكان المقفر، سمّاه البلد! ولم يكن أكثر من أرض مقفرة.. لكنه رأى في **تلك الأرض (بلدا)**، **ورأى ذلك البلد «آمناً»..** وتلازم الأمان في رؤيته بانتفاء عبادة الأصنام من هذا البلد، لقد كان حجر أساس بناء البلد في تلك الرؤية الإبراهيمية هو هذا التوحيد..
عندما ترك إبراهيم ذريته في هذا الوادي المقفر، الوادي الذي بلا زرع، كان **بطريقة ما يزرع!** كان يترك بذرة، غرسة، فسيلة، في ذلك الوادي..
لماذا تركهم هناك؟ ألم يكن من الممكن أن يكون ثمة خيار آخر؟ أرض خصبة بماء وفير؟.. ألم يكن إبراهيم قد مر بمراكز الحضارات التي نشأت على أحواض الأنهار، في رحلته تلك.. ألم يعلم أن نشوء البلدان ارتبط بالماء وبالزرع؟
نعم، كان يدرك حتما، لكنه رغم ذلك ترك ذريته هناك، لا، ليس **(بالرغم من ذلك)، بل (بسبب ذلك)..** لأن البذرة الاستثنائية التي كان يتركها، كان لا بد لها أن تثبت نفسها في ظروف (غير ذات زرع) كهذه.. كان لا بد أن يجعل من يتجمع هنا، في تلك البقعة، يجتمع على أسس مختلفة عن الأسس الاقتصادية التي تقوم عليها عادة المدن والمجتمعات والمراكز الحضرية.. **لا بد من أساس مختلف يجمع الناس ويختبرهم** في صعوبة هذا الاختلاف..

الزراعة في واد غير ذي زرع، هي هذا التحدي المثمر الذي كانت حياة إبراهيم رمزا له..
الزراعة المختلفة، الاستثنائية، التي تزرع في واد غير ذي زرع، لكنها تجعل هذا الوادي منجما يفيض على الإنسانية بمواسم حصاد وفيرة..
الزراعة المختلفة، التي انتهجها إبراهيم، في ذلك الوادي الذي «غير ذي زرع»، تكتشف قارات جديدة بأراض بكر لم يمسها محراث فلاح.. تبدع سهولا ووديان خصبة، تكتشف سمادا جديدا، بذورا لم تبذر من قبل، مياه أكثر رياً وسقيا..
الزراعة في واد غير ذي زرع، مختلفة جدا، من الحرث إلى الحصاد..
وناتجها أيضا مختلف..

** * * * **

في رحلتك أثناء الحج، وأنت على مشارف مكة، بينما أنت تلبي نداء إبراهيم، لا بد أن تنتبه إلى أنك في واد غير ذي زرع..
ربما جئت من بلد يفتخر بخضرة أراضيه، أو من بلد تمكن من تنظيم (الخضرة) فيه.. لكن هذا الذي تمر فيه الآن، لا بد أن يشعرك بشيء مختلف.. ستشعر بصعوبة التحدي، ستشعر أن إبراهيم يمد لك الفأس والمحراث والمنجل، ويعطيك البذور في إحدى يديك، وكيسا من السماد في يدك الأخرى، ثم يقول لك: **ازرع!..**
الوادي الذي غير ذي زرع الذي تمر به حتما، حول مكة وصولا لها، هو نموذج للعالم الحقيقي، نموذج للعالم الذي يجب إصلاحه، نموذج للكوكب البائس الذي يتنكر أحيانا بقناع خضرة زائف فقط كي يخفي كل الألوان الحقيقية تحت القناع..
هذا العالم الذي يسيطر فيه الملأ الظالم، ملأ الاحتكار في كل زمان ومكان، هذا العالم الذي يزداد فيه الأثرياء ثراء والفقراء فقرا، هذا العالم الذي تصبغه الدماء وينام على أنين المعذبين وبكاء الأطفال، هذا العالم كله، مهما تطاول بنيانه، مهما بدت أرضيته خضراء زاهية، فهو في النهاية، بعد تجريده من كل تفاصيله، هو مجرد واد غير ذي زرع.. مجرد أرض مقفرة صعبة قد تبدو للوهلة الأولى غير مؤهلة للزراعة..
الحج يضعك في مواجهة حقيقة العالم.. **إنه واد غير ذي زرع رغم كل ما يبدو أنه عكس ذلك.. إنه عالم قاس، صعب، شديد الوعورة..**
لكنك رغم ذلك، رغم كل صعوبة هذا العالم، وما يبدو من عدم أهليته للزراعة، رغم

ذلك، فأنت مصر على أن تزرعه..

بعبارة أخرى: **الحج يجعلك مصرا على ذلك..**

يمنحك فسيلة.. أو بذرة، فأساً ومعولاً، يعطيك خطة للزراعة، ويقول لك أن تزرع..

الحج **يواجهك بحقيقة العالم الجرداء**، حقيقة أنه مجرد واد غير ذي زرع، ولكنه أيضا يواجهك بحقيقة أنك **يجب أن تزرع فيه بالرغم من ذلك**، يواجهك بحقيقة مسؤوليتك عن هذا العالم، بإمكانات كامنة فيه..

بإمكانات كامنة فيك أيضا..

** * * * **

يواجهك الحج أيضا بحقيقة أنك ربما تكون مثل هذا العالم المقفر، مثل هذا الوادي الذي لا زرع فيه، وأنك رغم حرصك على أقنعتك إلا أنك تعرف بينك وبين نفسك أنك مقفر مثل أرض بوار..

الحج هو عن هذا أيضا.. عن أن تستخرج من نفسك أفضل ما فيها، أن تستصلح ذاتك وتحولها من واد غير ذي زرع إلى أرض خصبة وفيرة الخيرات..

الزراعة في واد غير ذي زرع، درس من دروس الحج، **هندسة زراعية** بطريقة ما، تساهم في إعادة **بناء – أو زراعة – الإنسان في داخلك..**

لكي يزرع العالم!

مشهد الذبح

«وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» (الصافات: ٩٩- ١٠٧)

تخيل أنك كنت تريده دوما ليكون عضدك وساعدك، هذا الغلام الذي لا يحمل اسمك ورسمك فحسب، بل يحمل أيضا همك وقضيتك وإيمانك بكل ما حاربت من أجله..

تخيل أنه جاء، وأنه بلغ السعي معك، أي أنه **صار ينوب عنك ويقوم مقامك في أعمالك ومشاويرك.. تخيل أن كل آمالك وطموحاتك قد تحققت فيه..**

ثم.. فجأة.. يجب أن يزاح من كل هذا..

لا.. لن يكون هذا بحادث، بقضاء وقدر مما لا سبيل أمامه إلى الصبر..

بل سيكون بيديك أنت.

تخيل أنك تذبحه بيديك.

تذبح ابنك..!

** * * * **

من بين كل الابتلاءات والاختبارات التي مر بها الرسل والانبياء، فإن القرآن الكريم، لم يصف أي منها بكونها **«البلاء»** ناهيك عن أن يصفه بـ **«البلاء المبين»** إلا في هذه التجربة..

البلاء المبين..

كل أب، وكل أم يعرف وتعرف أي نوع من البلاء هو هذا.. أن تذبح ابنك بيديك، بل ربما يستطيع الكل، حتى من غير الآباء والأمهات، تخيل صعوبة ذلك..

نتحدث عن الأسوياء هنا، فقد أنتجت الحضارة المعاصرة أمراضا جعلت الأب يقتل ابنه ويعذبه..

قد تفهم أن يقوم أب ما بتسليم ابنه للعدالة مثلا وهو يعرف أنه سيعدم..

لكن أن يقوم بذبحه بيديه، وهو كل ما أراده من الابن أن يكون..

الانتحار، قد يكون أسهل على أي أب من هذا..

نعم..

بلاء مبين.

لا.. ليس مجرد بلاء مبين.

بل «البلاء المبين».

أعظم امتحان يمكن أن يواجهه إنسان على الإطلاق..

أن يضحي بابنه..

** * * * **

لم يكن امتحانا لإبراهيم فحسب..

بل لابنه أيضا..

إبراهيم واجه ذلك البلاء المبين.. أن يذبح ابنه..

لكن إسماعيل، واجه أيضا ذلك البلاء.. بلاء أن يذبحه أبوه.. إنه «البلاء المبين» مرة أخرى..

** * * * **

حوار إبراهيم وإسماعيل يبين لنا الكثير عن نوع العلاقة التي كانت تربط بينهما..

إبراهيم يقول لابنه «إني أرى في المنام»..

لا يقول له إن الوحي يأمره بذلك.

يقول له رأيت في المنام فقط.

تراه يترك له مجالا ليتأول ذلك ويتهرب منه؟!

تراه يفتح له الباب الذي يمكن له من خلاله أن يتفادى تنفيذ الأمر؟

تراه يختبره أيضا على هذا النحو؟.. أم يختبر نفسه؟..

بل إنه يقول له «فانظر ماذا ترى»!!!

يترك له المجال ليقرر ما يراه بشأن رؤية أبيه!..

أنا رأيت.. فأنت ماذا ترى؟!

إبراهيم فهم الأمر وأخذ قرارا حاسما من طرفه.

لكن هذا لا يجعله يقرر بالنيابة عن إسماعيل.. على إسماعيل أن يقرر بنفسه.. على إسماعيل أن يجتاز البلاء المبين بنفسه إن أراد.. لكن هذا القرار لن يكون إبراهيميا منفردا قط..

أحمد

سنرى إسماعيل وهو يرى ما يراه إبراهيم، ويخبره أنه سيكون – إن شاء الله – من الصابرين، «صابرين» على ماذا؟ على ذبحه!!
هل ثمة من يعتقد أن إسماعيل كان منسحقا هنا أمام أبيه؟ كان ضعيف الشخصية على نحو مريض ومستلب مما يجعله خانعا أمام أمر كهذا؟
على العكس.
إسماعيل يشعر بما يعانيه أبوه.. لكنه ليس الطفل المدلل الذي سيستغل مشاعر الأبوة لجعل والده يتجاوز مبادئه وقضيته..
إسماعيل الذي **بلغ السعي**، يدرك تماما أن جوابه لأبيه هنا، يمثل الاختبار الأكبر لأبيه: هل نجح فعلا في بنائه؟.. هل نجح فعلا في جعل القضية تسير في دمه وتتنفس معه في شهيقه أو زفيره؟.. أم أن كل شيء بدا كما لو كان كذلك لكنه لم يتجاوز السطح إلى الأعماق..
لكن إسماعيل كان قد بلغ السعي حقا، **بلغه طولا وعرضا وعمقا وبجميع الأبعاد والاتجاهات..**
إسماعيل الذي نضج وبلغ «السعي».. كان هدفا لهذا البلاء.. وكان رده يدل على اجتيازه الاختبار الصعب.. بما يفوق الامتياز..
كان يمكنه أن يجادل أباه، قائلا إنها مجرد رؤيا.. وأن الوحي لم يخبره بذلك حرفيا.. خاصة أن القرآن الكريم لم ينقل لنا قبل ذلك أن «رؤى الأنبياء حق» حتى لو فهم ذلك لاحقا.. لكن في هذه المرحلة المبكرة, لم يكن شيء يدل على أن ذلك كان واضحا..
كان ذلك منفذا ما..
كان ذلك يحتوي إمكانية تأويل ما.. فلنقلها بصراحة: حيلة شرعية ما..
لكن من «يبلغ السعي» يكون أنضج من أن يفعل هذا..
يا أبت افعل ما تؤمر..
ستجدني إن شاء الله من الصابرين..

** * * * **

«فلما أسلما وتله للجبين»!

كانا مسلمين منذ البداية.. حتما.. لا يمكن لأحد أن يجادل في هذا..
لكنهما في تلك اللحظة الصعبة، عندما «تله للجبين».. أي أمسكه من رأسه، جبينه،

ليذبحه..

تلك اللحظة التي ذبحت فيهما كل إمكانية للتردد..

أثبتا، حقيقة إسلامهما..

أثبتا، لنا، ولكل الأجيال التي سبقتنا والأجيال التي سبقناها.. **أثبتا كيف يكون الإسلام حقا..**

** * * * **

تذكرون، يوم سار إبراهيم في ذلك الدرب..

أعلنها..

«قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)

كل ما في حياته.. وكل ما في مماته.. لله رب العالمين..

الكلام سهل حتما. كلنا نلفظ هذه الكلمات.. ونكررها..

لكن إبراهيم عاشها حقا..

وجعل إسماعيل يتشربها أيضا..

وعندما جاء **البلاء المبين.. مثل جهاز لفحص الصدق..** جاءت النتيجة **إيجابية جدا..**

جاء الموقف، الصعب، الأصعب من كل تصور..

وأثبت إبراهيم وإسماعيل.. أنهما تشبعا ما يقولانه ويؤمنان به..

حد أن يذبح الأب ابنه..

وأن يقدم الابن نفسه ذبيحة..

** * * * **

لا يريد منك الله أن تذبح ابنك..

كما لا يطلب منك أن تكون ذبيحة لأحد..

لا..

ليست هذه هي الفكرة إطلاقا..

الفكرة أن تكون **مستعدا للتضحية بكل شيء..** أن تكون مستعدا للتنازل عن كل ما بنيته وأحببته وتعلقت به، حتى لو لم يكن فيه ما يخالف شرعه عز وجل.. لكن أن تكون مستعدا للتضحية به رغم ذلك، في لحظة ما، من أجل أن تنصر قضيتك..

إنه أن تكون مستعدا.. **لا لكي تجعل قضيتك والإيمان بها (الرقم واحد) على سلم الأولويات.. بل إن لا يكون هناك سلم أصلا.. أن تكون القضية هي الرقم الوحيد الموجود.. الأول والأخير..**

هذا الاستعداد، الذي قد لا تحتاج إلى تنفيذه لاحقا، هو الذي يجعل سلم الأولويات يزدهر ويضيء وينقلك إلى آفاق أعلى وأكثر رحابة..

هذا الاستعداد، لأن تضحي، حين تحين لحظة الحقيقة، بكل شيء.. كل شيء.. في سبيل الشيء الوحيد المهم..

هو الامتحان الحقيقي..

** * * * **

في الحج، تأتيك تلك اللحظة..

تأتيك حياتك كلها، كل ما كنته، كل ما بنيته، كل ما هو أنت، بسموك وسقوطك، بنجاحك وفشلك، بحسناتك وسيئاتك.. بعبادتك وخطاياك.. كل ما هو أنت.. أنت الذي لا يعرفه أحد سواك وخالقك.. أنت بأقنعتك ومن دونها.. أنت بمنجزاتك وبقائمة فشلك..

البلاء المبين..

كل ما هو غال عليك..

عليك أن تضعه على المذبح..

والسكين بيدك..

عليك أن تكون مستعدا لأن تفعل ذلك..

عليك أن تكون مستعدا لتقبل حقيقة أن **الجوهر في إسلامك، في أن تكون مسلما، هو تلك اللحظة التي ترضخ فيها لهذا..**

عندما تكون مستعدا للتضحية بكل شيء..

عندما تكون مستعداً لأن يدور نفس حوار إبراهيم وإسماعيل، الأب وابنه، في داخلك..

عندما تكون مستعدا لمواجهة هذه الحقيقة..

الحج يضعك في مواجهة المذبح..

يضعك أمام إبراهيم وهو يرى الرؤيا، يستيقظ على حقيقتها المرة الحادة الصعبة..

الحج يضعنا أمام إبراهيم وهو ينطق تلك الكلمات التي لا يتخيل أب أن ينطقها..
يضعنا الحج أمام الدرب المفروش بالأشواك التي لا بد وأن مر إبراهيم عليها قبل أن يقول تلك الكلمات..
يضعنا في داخل إسماعيل، وهو يسمع أبيه.. يقول له إن منام الليلة السابقة، التي بدت هادئة وطبيعية.. كان يحمل ذلك الأمر..
ومن ثم يقول له ما قاله..
يضعك الحج أمامهما.. بل يضعهما في داخلك.. ويجعلك تقف على المذبح..
والسكين بيدك..
ويضعك أمام إبليس الذي حاول معهما، مرارا وتكرارا.. وفشل..
ها أنت في قلب المشهد.. إبراهيم، وإسماعيل، وذلك الاستعداد للذبح منهما..
وها هو إبليس، يخاطبهما أن يعرضا عن الأمر.. أن يتأولا.. أن يبحثا عن مخرج شرعي..
ويهمس في أذنيك، من كل الجهات، يقول لك.. **ما دخلهما بحجك؟** كيف يمكن أن يقنعك أحد بهذا؟ ما حصل لهما كان خاصا بهما.. أنت جئت للحج كي تغفر لك ذنوبك، وبعدها تعود لحياتك كما كانت بالضبط.. لست مضطرا للتضحية بشيء.. لست مضطرا لذبح شيء ما من حياتك.. إنها مجرد شعائر، **أدها كما هي ولا تفسدها بهذا التفكير..**
يضعك الحج في مواجهة كل هذا..
وأنت تعلم، أن جوهر إسلامك، مصداقيتك في كلمة الشهادة، ترتبط بموقفك هنا..
ترتبط باستعدادك لأن تضحي بكل شيء.. حتى لا تضطر لاحقا لذلك..
تلك اللحظة التي تقرر فيها.. القصيرة كبرهة.. المديدة كأبد.. هي التي تحدد كل ما هو أنت حقا..

** * * * **

وعندما تتمكن من اجتياز الاختبار، ولو بالنسبة التي تؤهلك فقط لاجتيازه..
فإنك تكون قد وضعت أحدهم على المذبح.. وذبحته فعلا..
إنه ذلك الشخص الذي أخذته معك عندما ذهبت للحج..
وتمنيت أن لا يكون معك عندما ترجع..
إنه أنت القديم.. الذي لا مفر من تغييره..

مشهد البناء

«وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (البقرة: ١٢٧-١٢٨)

ها نحن نصل إلى النهاية..

هذا هو المشهد الختامي للرحلة..

إبراهيم وابنه يرفعان البيت..

بالضبط يرفعان «القواعد من البيت»..

الأساسات.. الأساسات التي يقوم عليها البناء ويرتفع.. كما لو أنهما **يرفعانها لتكون واضحة لنا، فالقواعد غالبا لا تكون مرتفعة،** بل تكون عميقة في الأرض، ويمنح عمقها القوة والمتانة للبناء بأكمله..

لكن القواعد هنا ترتفع ـ بالضبط ترتفع على أيدي إبراهيم وإسماعيل..

لا بد أن يكون لذلك معنى..

هل القواعد هنا، أكثر أهمية من البناء نفسه، بحيث يذكر ارتفاعها ـ لا ارتفاع البناء؟

هل من المهم أن تكون القواعد شاخصة، مرتفعة، بحيث نراها جميعا، **لأن دورنا هو أن نبني عليها؟ دورنا أن نتخذ من هذه القواعد أساسا لبناء مستمر، بناء متواصل، بناء يمثل هدفنا في هذه الحياة..**

بناء نبنيه من كل صوب، وبكل طريقة.. لا بد أن تكون أساساته مرتفعة، واضحة، كي نستطيع أن نميزها عن سواها من الأساسات التي تنتمي لحضارات أخرى وتصب في مصباتها..

قد تتشابه الأبنية التي تنتمي لحضارات متباينة في بعض الجوانب..

لكن الأساسات لا تتشابه قط إلا في القليل، **بضدها تتمايز الأساسات.. وبضدها تبدع وتنجز أفضل ما عندها.. وليس بالتشابه الذي يميع الاختلافات فيقتل التميز والتنافس.. وبالتالي يُقتَل الإبداع..**

يرفعان القواعد، عليهما الصلاة والسلام، يرفعانها من أجلنا، تسهيلا لنا في ما يجب أن نفعله.. في إتمام العمل والاستمرار به..

البناء لم ينته إذن؟..
لا..
لم ينته..
إنه فعل مستمر..
فعل مضارع مستمر.. يدل على حدث وقع في زمن يدل على الحال والاستقبال..
فعل البناء - على القواعد التي رفعها إبراهيم - سيكون مستمرا دوما..
على الأقل ستكون تلك الاستمرارية كامنة، محتملة..
وسيكون إنجازها أمرا تابع لقرارنا..

** * * * **

القرآن نفسه يقول لنا ذلك..
يقول لنا إن الفعل مستمر.. كما لو أنه يشير لنا، بل يدلنا على أن نشارك فيه..
كيف؟
كيف قال لنا القرآن ذلك؟
من بين كل السياقات التي مرت والتي عرضت فيها مشاهد الرحلة الإبراهيمية.. **كل شيء كان يسرد بالفعل الماضي..** كل السياقات كانت تدل على فعل حدث في **زمن ماض..** انتهى كفعل وكحدث ولم ينته حتما كعبرة ودلالة..
أما مع هذا السياق تحديدا.. فقد تغير أسلوب الخطاب القرآني **ليستخدم الفعل المضارع..**
هل يمكن أن يكون هذا مصادفة دونما معنى خاص مقصود؟
يستحيل.. حاشا أن يكون في الخطاب القرآني ما لا يقصد أن يحثك على التفكير والتخطيط والعمل..
وهذه الإشارة هنا، **عندما يتحول السياق الذي يتحدث عن فعل (قام به نبي ما وابنه معه) في مرحلة تاريخية ماضية، عندما يتحول السياق ليصف الحادثة بالمضارع، خلافا لكل السياقات الأخرى.. فإنه لا بد أن يكون هناك ما هو مقصود في هذا..**
وعندما يرتبط هذا السياق بالبناء ورفع القواعد.. فإنك تعرف ضمنا أن هذا يعني أن عملية البناء والارتفاع مستمرة..
وأنت تعرف أن الفعل المضارع يحتاج إلى فاعل..
وتعرف أيضا أنهما عليهما السلام قد أديا دوريهما في هذا الفعل..

وأنه لا بد الآن من فاعل آخر..

ربما من جيل (فاعل) آخر..

** * * * **

ربنا تقبل منا..

إنهما يعلمان أن هذه القواعد التي ترتفع، والتي سيكون عليها البناء هي من صميم ما يجب أن يتقبل منه عز وجل..

لا يفصلان هنا بين أعمال الدنيا و أعمال الدين.. لا يتصوران أن البناء هو من أمور الدنيا - غير الخاضعة لقبول الله أو عدم قبوله له - بينما الشعائر هي التي يمكن أن تقبل أو ترفض منه عز وجل..

بالنسبة لهما، **البناء نفسه كان من صلب الشعائر!!..**

والشعائر كانت في صلب عملية البناء..

لا فصل هناك بين البناء والشعائر..

ليس كما توهمت ذرية لهما، لاحقا.. بعد قرون طويلة..

** * * * **

كما لو كانا يعرفان..

أن هذا الفهم الذي لا يفصل بين البناء والشعائر، سيجد من يحنطه، ويفصل بينهما، يضع برزخا بين البناء، بين ما تنجزه في الدنيا، وبين الشعائر.. هذه لله، لكن تلك، التي تستغرق الجزء الأكبر من حياتنا، فهي لحساب آخر تماما.. هي لنا، لفكرتنا عن (الدنيا)، لأوثان اخترعناها وبنينا لها هياكل ومعابد وطقوس وشعائر.. لفلسفات اخترعناها كي تبرر تعبدنا لأوثان المال والجنس والذات، أو تربطنا خلال ذلك بعبودية خفية لمؤسسات استهلاكية نرهن أرواحنا عندها مقابل المزيد من السلع والبضائع..

كل الوقت يكون لشعائر تمجد هذه العبودية..

والقليل جدا، شيء لا يكاد يذكر، يكون للشعائر الموجهة لعبادته عز وجل.. شيء يرضي ضمائرنا، يوهمنا أننا لا نزال نعبده رغم كل شيء..

كأنهما وقد خبرا النفس البشرية، علما أن البعض سيعمد إلى الفصل بالتدريج..

لذا قالا، في دعاء البناء والارتفاع..

«وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ»

الذرية تكون أمة، لها ما يجمعها ويوحدها..

وتكون مسلمة..

ليس بالمعنى الذي تعودناه بطبيعة الحال..

ليس بمعنى أنهم يقولون الشهادة، وكتب الإسلام في خانة الديانة في الهوية، وأداء الشعائر..

بل بمعنى **الإسلام كما شاهدناه في المشهد السابق..** مشهد الذبح..

فلما أسلما وتله للجبين..

معنى التضحية بحدها الأقصى.. أو الاستعداد لها على الأقل..

كانا يعرفان حتما، أنه لا يمكن لأمة كاملة بكل أفرادها أن تكون بسوية واحدة من ناحية التضحية والاستعداد لها..

لكنهما يعلمان أيضا، أنه يمكن للأمة، إن وعت ذلك، إن فهمت أن هذا هو الجوهر الحقيقي للدين، أن تقدم نسبة ما، تجتاز فيه البلاء المبين، بتضحيات تساهم في إعلاء البناء..

في دعاء البناء، طلبا من ربهما.. أن تكون ذريتهما (أمة).. ليس أي أمة..

بل أمة مسلمة..

علمتنا السنة الكثير عن دعاء السفر ودعاء المرض ودعاء الحاجة ودعاء النوم..

القرآن يتوج ذلك بتعليمنا **دعاء البناء..**

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»

أن يبدأ دعاء البناء، بالتقبل، وينتهي بالتوبة..

ويمر بالذرية التي يريد من يبني ويرفع القواعد أن تكون أمة مسلمة..

أن تكمل البناء.. على ذات القواعد..

** * * * **

ليست فقط الصياغة المستمرة للفعل المضارع هي التي تنادينا للمشاركة..

بل ذكرنا في ثنايا الدعاء.. **ذكرنا نحن..**

الذرية التي يفترض أن **تكون الفاعل في الفعل المضارع المستمر..**

الذرية التي تكمل المشهد..
تلتحم به..
وتبني على القواعد..
القواعد التي تنتظر من يبني عليها.. كل حين..

** * * * **

وأرنا مناسكنا..
كانت مناسك الحج، تتشكل في هذه الأثناء..
والمناسك ترتبط بكل شعيرة وكل عبادة توجه لله عز وجل..
بالضبط هي كل ما يتقرب به إلى الله عز وجل.
وهي أيضا ما يميزنا، ما يعبر عن رؤيتنا الحضارية.. **إنها شعائر.. ولكنها تختزل ضمنا رؤيتنا للحياة وعقيدتنا وطبيعة إيماننا..**
أرنا مناسكنا..
وكانت المناسك تتشكل، البيت يرتفع، وتحوطه المناسك، المناسك التي ستحكي قصة بناء قواعد هذا البيت والدرب الذي أوصل إليه..
المناسك التي سنطبقها نحن..
أرنا مناسكنا..
أثناء البناء، يقولان.. أرنا مناسكنا..
كم هي ملتحمة إذن **بالبناء والارتفاع، هذه المناسك.. وكم هي بعيدة مفاهيمنا عن هذه المناسك عن ارتباطها بالبناء والارتفاع..**
أرنا مناسكنا..
هل كانا يقصدان فقط رؤيتها بمعنى تعليمها لهم؟ أم رؤيتها بمعنى رؤية آثارها عليهم؟ على حياتهم؟
هل كانا يقصدان رؤية آفاق معانيها.. أفقا بعد أفق.. جيلا بعد جيل.. من أجيال الذرية.. الأمة المسلمة..
أن يكون دعاء البناء.. يتضمن (أن نرى المناسك)..
أي معنى!

** * * * **

ولقد بنيا (البيت)..
البيت الذي هو الكعبة التي نتجه لها في كل صلاة نصليها..
والتي نقصدها أيضا عندما نحج..
البيت الذي هو بيت الناس جميعا..
بيتي وبيتكم أيضا..
البيت الذي يضم الناس كلهم..
الإنسانية كلها..
كم هو عظيم معنى أنهما كانا يبنيان (بيت الناس)..
لم يكن بيتا لهما.. لم يكن بيتا للعشيرة.. أو لعابري السبيل..
كان بيتا لكل الناس..
للإنسانية بأسرها..
مبنيا على قواعد من صنع الله، خالق كل الناس..

** * * * **

هذا البيت الذي نرحل إليه في الحج..
هو أيضا البيت الذي نتجه له كل يوم خمس مرات على الأقل.. إنه (عنواننا الدائم)..
ولكن ليس عنوان إقامتنا الدائم.. بل عنوان **توجهنا الدائم**.. حيث نتجه دوما في أفكارنا وقلوبنا وعقولنا ومنهج حياتنا.. (أو بالأحرى حيث يفترض أن نفعل ذلك)..
إنه الهدف الذي يجب أن تضبط البوصلة عليه.. الهدف الذي يجب أن تجعل كل طرقك تقود إليه..
هدفنا في كل مرة نقف فيها لنصلي..
هدفك الذي تضبط عليه بوصلتك خمس مرات على الأقل كل يوم..
أينما كنت.. كيفما كنت.. عليك أن تترك كل شيء، لتتأكد من صحة اتجاهك.. لتتأكد من موقعك.. من صحة طريقك..
وعندما يحدث ذلك - حقا، لا مجرد اتجاه فيزيائي- خمس مرات كل يوم..
فإن الأوقات بين تلك المرات الخمس، ينبغي أن تضبط تلقائيا.. **نحو الهدف ذاته.**
بعبارة أخرى..
عندما تكون القبلة، قبلتك حقا، عندما تستحضر معانيها في كل مرة تقف لتصلي..
فإنها لن تكون قبلة صلاتك..

بل ستكون **قبلة لحياتك** بأسرها..

** * * * **

ليست (القبلة) هي التي تمنحك هدفا في الحياة..
فكل ما في عقيدتك وإيمانك يمنحك هذا..
لكن القبلة - عندما تفهمها حقا - تربطك بهذا الهدف..
تذكرك به على نحو مستديم.. تجعلك جزءا منه وتجعله جزءا منك.. مثل توأمين سياميين لا يمكن فصلهما لأنهما بقلب واحد..
القبلة مثل علامة تذكير دائمة، كمن يغير من موضع الساعة في يده كي يتذكر شيئا ما محددا...
كذلك القبلة..
تذكرك أن على حياتك أن تكون صوب البيت الحرام.. حياتك بمنهجها وأهدافها وأولوياتها وضوابطها..
لو فهمناها حقا.. واستحضرنا ذلك الفهم..

** * * * **

وعندما تكون قبلتك في الحياة (بناءً) هو ذلك البيت الذي وضعه الله للناس، وبني وارتفع بأيدي إبراهيم وإسماعيل..
فإن ذلك يحتم عليك أن تجعل من كل حياتك، كل أهدافك، كل أولوياتك تصب في أن تكون (بناءً)..
ليس أي بناء!
بل بناء يكون مثل بيت للناس جميعا، أو أي إنجاز يقويه، يدعمه، يحصنه، يحميه من التفكك..
إنه أن يكون إنجازك مما يمكن أن يخدم الإنسانية كلها..
أن تضع الإنسانية كلها هدفا لك..
كل الإنسانية؟ حتى المشركين والملاحدة؟.. كيف والبيت الذي تلتحم به في الحج حرام عليهم؟..
نعم.. ليكن هدفك أن **تقدم نموذجا يجذبهم بحيث يردهم إلى إنسانيتهم..** بحيث يجدون أنفسهم وقد صاروا بالتدريج أقرب إلى أنفسهم.. أقرب إلى المسلمين..
أو على الأقل.. تقيم الحجة عليهم، لا بكلمات مجردة.. قد تبدو لهم غير مفهومة.. أو

نظريات غير قابلة للتطبيق وقد يصنفونها بأنها خارج التاريخ..
تقيم (الحجة) عليهم بنموذج تبنيه، على قواعد وضعها الله ورفعها أنبياءه بسواعدهم في عملية بناء لم تنته ولن تنتهي قط.. عملية بناء مستمرة عبر عنها القرآن بالفعل المضارع.. وأنت، أنت الفاعل الذي يحتاجه الفعل لتكتمل الجملة..
الحج يضعك في مواجهة (البيت).. ذلك البناء الشامخ الذي يجب أن يكون حجرا أساس لحضارة قائمة على نفس أسس وقواعد هذا البيت..
الحج يضعك أمام حجتك عليهم وعلى الناس أجمعين..
لا..
الحج يضعك أمام الحجة التي يجب أن تقيمها عليهم..
وهو بذلك، يقيم الحجة عليك أنت تحديدا..

** * * * **

الحج يضعك أمام ذلك البيت الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل.. البيت الذي تتجه إليه في صلاتك.. وتتجه إليه حياتك..
ها هو الحج يضعك أمامه..
وها هو شاخص أمامك.. بما لا تعبر عنه الكلمات..
لكنه ضمنا يقول لك..
هدفك الحقيقي أن تبني.. أن تنجز..
وأن يكون بناؤك هذا لكل الناس.. مما يخدمهم جميعا..
لكن أن يكون على قواعد محددة.. قواعد وضعها عز وجل.. ضوابط وثوابت **إذا حاد عنها البناء كف عن أن يكون استمرارا لذلك الفعل المضارع الذي يحتاج فاعلا كي يكتمل..**
الحج يضعك أمام أهدافك في شكلها النهائي..
بدأ الأمر بليلة أشرق فيها عقل إبراهيم ليضيء الدرب، ويكشف زيف الأوثان.. ثم كان هناك الهدم كجزء من عملية البناء.. وكان الالتحام بالسنن.. وكان هناك القلب الذي لن يطمئن إلا بحضن التجربة.. وكان هناك ذلك الأمل الذي لا يموت بل يتحدى الجدب، وكان الأمل شقيقا لدمار المجتمعات الجاهلية التي تتمادى في البعد عن الفطرة.. ثم كان ذلك الاستعداد للتضحية إلى الحد الأقصى..
ثم ينتهي ذلك الدرب إلى نهاية مفتوحة جدا..

نهاية مفتوحة لتضمك إليها.. لتبدع بدايات وبدايات جديدة..
ها هو البناء يرتفع..
يمكنك أن تضع يديك في جيبيك، وتتصرف كما لو أن الأمر لا يعنيك.. لقد جئت لتكفر عن ذنوبك فحسب..
ولكن يمكنك أيضا أن تمد يدك لتساهم في البناء الذي وضع لبنته الأولى إبراهيم..
يمكن أن يكون حجك، مشروعا بهذا الحجم..

** *** **

لا يمكن هنا أن نهرب من تلك الإشارة التي جاءت في القرآن الكريم إلى البيت المعمور..

«وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ. وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ» (الطور: ١-٦)

الطور جبل مرتفع، لكنه مخلوق مثلنا.. خلقه الله عز وجل وجعل السنن سببا في شموخه وارتفاعه.
أما البيت المعمور، فهو **بيت تعمره يد الإنسان**.. قد يصبح شامخا مثل الجبل، لكن الإنسان هنا يصير جزءا من السنن، يساهم فيها ويكون شريكا في سنن التغيير..
الطور **جبل نزل فيه الوحي..** نزل فيه (الكتاب).
أما البيت المعمور فهو (مشروع بناء)، مشروع بناء ينطلق من (الوحي)..
(الكتاب)..
(البيت المعمور) هو رمز للمشروع العمراني المرتكز على الكتاب.. قواعده ومنطلقاته وخطة بنائه ومواد بنائه من الكتاب..
البيت المعمور هو **هذا العمران الذي قد يشابه في بعض جوانبه (التطاول) الذي تملكه بعض المشروعات الحضارية الأخرى**، لكنه مجرد تشابه عابر غالبا، فالقواعد مختلفة، والمنطلقات مختلفة، ومواد البناء مختلفة.. ونمط البناء مختلف.. ربما الارتفاع متشابه، وربما بعض المواد في البناء تكون متشابهة، لكن نسب المكونات مختلفة حتما..
البيت الذي نطوف حوله في الحج، والذي نتجه إليه في صلاتنا أينما كنا، يحمل رمزية **(العمران)** المستمرة، العمران الذي هو مسؤوليتنا جميعا.. **العمران المستند على الكتاب المسطور في رق منشور..**

كل المناسك المرتبطة بهذا البيت، حجاً، طوافاً وصلاة، هي في جوهرها مناسك للبناء، مناسك للعمران، مناسك تجعلك تتحفز للبناء، تهيئك للبناء والعمران فتخرج من مناسكك وقد زودتك بهمة البناء.. زودتك بخريطة البناء..

وربما جعلت منك، أنت شخصيا، **مادة للبناء**، وأداة لها..

مناسك العمران - عندما تفهمها حقا - تجعلك كل ذلك، تجعلك تساهم في عملية البناء المستمرة منذ أن قام إبراهيم وابنه عليهما السلام برفع القواعد..

مناسك العمران تجعلك فاعلا، في ذلك الفعل المضارع المستمر، الممتد من الماضي العميق إلى المستقبل الأكثر عمقاً ما دام يرتبط بذلك الماضي..

مناسك العمران تعمرك أولا، فتصبح بعدها مؤهلا لتكون (الفاعل)..

مناسك العمران لا تجعلك تفهم العمران فقط على نحو مختلف، بل تجعلك تفهم إيمانك أيضا على نحو مختلف.. على نحو (إعماري)، على نحو هو النحو الذي فهمه وطبقه من رفع القواعد ومن أكمل البناء وكل من سار على طريقهم..

«إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» (التوبة: ١٨)

هذا هو الإعمار حقا، إيمان وصلاة وزكاة كأجزاء أساسية من مكونات البناء مع الحجر والرخام والطابوق والإسمنت والحديد.. **جزء أساسي من خلطة البناء..**

يمكن لبناء أن يعلو دون هذا النوع من المكونات، وبالمكونات المادية فقط..

لكن العلو ليس من ضمن الأهداف القرآنية.. بل الإعمار، قد يشبه العلو في بعض النواحي، لكنه شيء مختلف تماما في نهاية المطاف.. قيم مختلفة تؤدي إلى نسب مختلفة من المكونات، ومكونات مختلفة أيضا..

** *** **

هذه المكونات المختلفة في خلطة الإعمار، تجعل من (سقفك مرفوعا)..

إيمانك بالله، إقامتك للصلاة، زكاتك، كلها ترفع من سقفك، من سقف طموحاتك وقدراتك ورؤاك..

لا يمكن لسقفك أن يرتفع دون (الكتاب)، لا يمكن لسقفك أن يرتفع ليلتحم بالسماء دون هذا الكتاب الذي يصل بينك وبين السماء..

لا يمكنك أن تعانق الذرا، إن كنت تعيش في سقف طموحات وقدرات منخفضة.. **في**

سقف (أدنى) حيث يعيش أقزام النفوس..

السقف المرفوع، الذي جاء في هذا السياق القرآني، هو النتاج الطبيعي لإيمان بطبيعة عمرانية، أي لإيمان إسلامي حقا..

هذا السقف المرفوع يصير جزءا منك.. **يصير سقفك..**

وعندما يصبح ذلك، عندما يرتفع سقفك، فإن مشاركتك في إعمار البيت، ستكون تحصيلَ حاصلٍ..

الفصل الرابع

الحج خطوة خطوة

النية..

كل عمل ننجزه في حياتنا، يجب أن يكون مدفوعا بنية ما..
كل عمل (جوهره) ولبه هو النية التي تحركه.. بمعزل عن ظاهره، وبمعزل عن تفاصيله.. وبمعزل عن نتائجه أيضا..
كل عمل، يحوي في داخله (نواة) مركزية ما..
نواة هي القلب منه.. وهي المحركة له..
اسمها الحقيقي: النية..

** * * * **

النية هي القصد والإرادة.. وهي أصل في كل عبادة من العبادات في الإسلام (وكل ما يتقرب به إلى الله عبادة)..
وهي أصل في الحج كذلك..

** * * * **

هل يمكن لمن يحج أن لا ينوي؟ أليس ذلك تحصيلَ حاصلٍ؟ ألم يكن ذلك في (نيته) وهو يتم الإجراءات؟ وهو يدفع المبلغ الذي أعده لذلك؟..
بالتأكيد.. هو يريد الحج..
لكن النية هي جوهر الأمر..
ماذا يريد أصلا من الحج؟
المغفرة من أجل جولة جديدة من الذنوب؟ أم لأنه يريد أن يبدأ حياة جديدة خالية من (كبائر معينة ارتكبها في شبابه)؟ تصفير عداد الذنوب؟ بعض مكملات الوجاهة والمكانة الاجتماعية التي تعمل أحيانا على نحو لا واع؟
كل هذا ممكن. والبعض منه لا يمكن الجدال بأنه خطأ..
لكن تحجيم النية لتكون هكذا فقط، أمام مشروع هائل الحجم كالحج، هو أمر يمكن الجدال فيه.. ومعه..

** * * * **

النية الكامنة وراء أداء (المشاريع الكبيرة) - مثل مشروع الحج عندما يكون حجا مبرورا- تشبه النواة في الذرة..

النية هي النواة داخل الذرة..

والنواة هي مركز الذرة - وهي التي تحتوي على البرتونات – الموجبة الشحنة – والنيوترونات المتعادلة.. أي أن هذه النواة تكون موجبة، مشبعة بالإيجابية..

ولكن الشحنات السالبة – الإلكترونات - تحوم حولها تماما..

وكذلك النية، إنها في الأصل موجبة، **دافع إيجابي للعمل والتغيير والبناء..** ولكن هذا الدافع محاط بدوافع سلببية تحوم حوله وتريد أن تثبطه أو تحرفه عن مساره أو تحيده عن العمل الإيجابي على الأقل..

كلما كانت هذه النية إيجابية أكثر، **كانت قادرة على تحرير طاقة هائلة في داخلك لتجعلك تعمل وتنجز..**

كذلك الطاقة التي يمكن لها أن تنبعث من داخل النواة.. إنها الطاقة النووية التي يمكن لها أن تغير وجه العالم خيرا وشرا.. يمكن لها أن تملأ صحاريه خضرة وزرعا.. ويمكن لها أن تمحوه كذلك من الوجود..

هذه هي القوة المودعة في النية..

قوة محايدة التوجه ابتداءً.. لكنها هائلة الحجم.. **يمكنك أن توجهها لما فيه خير هذا العالم بالبناء والإنجاز وإعداده ليكون عالما أفضل..**

ويمكن لها أن تسخر للمزيد من الخراب والفساد في هذا العالم الذي يحتاج إلى من يعيد إليه صوابه..

وبين هذا وذاك، هناك من يتعامل مع هذه النية كما تعاملنا لقرون مع كل الثروات والموارد الخام الكامنة في أراضينا.. بعدم المعرفة.. بالمرور عليها دون أن نعرف بوجودها أصلا..

النية مصدر للطاقة في دواخلنا..

ومثل كل مصادر الطاقة، هي معرضة لأربعة احتمالات..

أن تستخدم فيما كانت من أجله..

أن تستخدم في **هدف جزئي**، قد لا يكون خاطئا بالضرورة، لكنه هدف مختزل جدا ولا يعبر إلا عن نسبة بسيطة جدا من (الهدف الأكبر).. الهدف الحقيقي..

أن لا تستخدم على الإطلاق.. أن لا تتحرر أي طاقة من التفاعل.. أن يمر الأمر كما لو أنه لم يحدث أصلا.. كعادة روتينية رتيبة.. مثل تنظيف الأسنان كل يوم.. تفعله

لأنه عادة.. لا تفكر في مقاصده ودوافعه وأسبابه..

أو أن تستخدم كما يجب..

** * * * **

فما هي النية في الحج أصلا؟

سترد.. أن تعود كيوم ولدتك أمك.. بلا ذنوب..

حسنا.. المغفرة أمر لا يمكن التقليل من شأنه..

لكن فلنتذكر أن (العودة كيوم ولدتك أمك) تعني أيضا (ولادة إنسان جديد).. إنسان أقوى.. إنسان أفضل.. إنسان أكثر اتساقا مع ما خلق لأجله..

إنسان جديد..

نيتك على أبواب الحج يجب أن تكون هذه..

إنسان جديد..

ليس أقل من هذا!

** * * * **

وهذا الإنسان الجديد، لا يمكن أن يأتي، ما لم تحتو تلك النية، على **أثر لإبراهيم** عليه الصلاة والسلام..

هل يعقل أن تنوي الحج دون أن تستذكر إبراهيم؟!

هل يعقل أن تنوي الحج وتنسى أنك إنما تلبي نداءه العتيق العريق؟!

هل يعقل أن تنسى أنه أول من أذن في الناس بالحج؟

هل يعقل أن تنسى أن البيت الذي تقصده قد بناه إبراهيم؟..

لا يمكن..

لو فكرت قليلاوأنت تنوي، **لوجدت إبراهيم في نيتك..**

إبراهيم المسلم الأول. الذي شق الدرب إلى الإيمان بالعقل. إبراهيم الذي حطم الأوثان. إبراهيم الذي وجد القلب المطمئن. الذي كان مستعدا للتضحية بكل شيء..

الذي بنى..

الذي بنى..

الذي بنى..

في لقطة واحدة سريعة.. لو تذكرته.. لو تذكرت رحلته إلى ذلك الوادي الذي غير

ذي زرع..

لتدفق الخصب في نيتك ليزرع الصحارى ويهطل على الوديان..

في لقطة واحدة سريعة، تختزل كل ما هو في وعيك ولا وعيك عن إبراهيم..

ممزوجا بنيتك..

لكي تتفجر (النية) طاقة نووية هائلة..

لا بد من إبراهيم.. ومعوله.. وتلك الرحلة..

** * * * **

النية في كل عمل، هي محرك ودافع لا يمكن للعمل أن يكون حقا من دونها..

لكن النية – تحديدا في الحج - ترتبط بما هو أكثر من ذلك..

فالفعل (نوى) الذي تشتق النية منه، يعني أيضا **السفر**[٣٠]**!**

وهل هناك تلاحم أكبر، بين هذا، وبين الحج؟**!**

** * * * **

الجوهر الحقيقي للنية هو الوعي..

الوعي بما يجب فعله.. بما يريده الله منك هنا..

أن تعي ما ستفعله..

وأن تؤمن بقدرتك على فعله..

** * * * **

---

٣٠ لسان العرب مادة نوى

الميقات: البعد الآخر للزمان والمكان!

الميقات في لسان العرب: هو الحد[31].
فقهيا هو زمن العبادة ومكانها..
إنه ببساطة الموقع الذي تبدأ منه الشعائر عمليا..
والميقات مشتق من الفعل (وقت) وهو يرتبط بالزمن.. هو بالضبط المقدار من الزمان..
الميقات بهذا هو **مساحة مشتركة بين المكان.. والزمان..**
المكان هو المواضع الخمسة التي حددها الرسول عليه الصلاة والسلام..
والزمان هو الأشهر الحرم..
هذه المساحة المشتركة بين هذين، هي التي يدخلها الحاج، وقد بدأ حجه بدخولها..
إنه لا يدخل مكانا محددا فحسب..
بل يدخل زمانا ومكانا..
المكان تحديده واضح..
والزمان يذكرك به اسم الموضع الذي دخلته.. تتعدد الأسماء، ولكن كلها (ميقات)..
هذا (الزمان – المكان) الذي تدخله لتخوض هذه التجربة الجديدة هو **علاقة جديدة بين الأشياء..**
أنت تدخل توا في **واد خارج الأبعاد التقليدية**.. يختلط فيه الزمان والمكان.. لا أقصد بالزمان هنا (أشهر الحج) المعلومة فحسب.. بل أقصد أن دخولك هذا البعد (الزماني – المكاني) يدخلك في **تاريخ سحيق عميق يمثل الامتداد التاريخي للشعائر التي بدأت للتو بأدائها..**
أنت الآن تدخل في زمان خاص، تستحضره في أعماقك فتحضر في أعماقه وأصقاعه.. زمان لا يعرف أحد - سواه عز وجل - مدى بعده عنك وعنه عليه الصلاة والسلام.. لا يعرف أحد بالضبط أي تقويم يمكن أن يحدد تأريخ تلك الرحلة.. **كما لو أن الحكمة الإلهية قد شاءت أن تجعل ذلك مبهما وغير محدد ليكون لهذه الرحلة أثرها الساحر..**
كما لو كنت تركب آلة الزمان.. تستحضر التاريخ، في لحظة فارقة منه، في مكان محدد على مشارف مكة، فيما يجب أن يكون لحظة فارقة من حياتك.. فيما يجب أن

---
٣١ لسان العرب مادة وقت

يؤثر على (المستقبل)..
في الميقات، هذا الزمكان، يتداخل المكان، مع الماضي، مع الحاضر الذي أنت فيه، **مع المستقبل الذي تريد أن يتشكل على نحو أفضل بسبب مرورك في هذه المحطة..**

** * * * **

خمسة أماكن حددها عليه الصلاة والسلام لتكون (الميقات) اعتمادا على الجهة التي يأتي منها الحاج..
خمسة أماكن تحيط بمكة..
خمسة.. وليست أربعة..
كما لو أنه يذكرنا عليه الصلاة والسلام أن الجهات ليست أربع.. هناك دوما اتجاه آخر.. هناك دوما أفق آخر.. هناك دوما جهة يمكن أن يأتي منها الناس ليلبوا النداء ولم تكن في حسبانك.. هناك دوما جهة أخرى.. وطريقة أخرى.. وطريق آخر.. سيصب في السبيل ذاته..
دوما هناك نهر جديد يتفجر من الصخر، ويشق دربه ليصب في البحر ذاته..
خمسة مواضع[٣٢] للميقات لكل من جاء من غير مكة..
هل نحتاج أن نذكر أن معظم هذه المواضع، يوم حددها عليه الصلاة والسلام، لم تكن قد فتحت بعد.. وبعضها لم يكن فيها مسلمون أصلا..
لكنه كان في ذلك البعد الآخر.. في البعد الذي يرتبط فيه الزمان بالمكان، والماضي بالحاضر بالمستقبل..
وعندما حدد تلك المواضع - التي لم يكن فيها مسلمون - كان يشير إلينا..
كان يقول لنا إنكم ستأتون..

** * * * **

في هذه اللحظة بالذات، لحظة الميقات الزمانية – المكانية..
ستدخل فيما لن تغادره حتى تنتهي من المناسك..
ستدخل، فيما يشبه الخطة المحددة..

---

٣٢ ١ - ذو الحليفة: وهو ميقات أهل المدينة ومن جاء منها. وبينها وبين مكة تسع مراحل وهو أبعد المواقيت عن مكة.
٢ - الجحفة: وهي ميقات أهل الشام ومصر ومن مر عليهما من غير أهلهما. وقد أبدلت اليوم برابغ.
٣ - يلملم: وهو ميقات أهل اليمن وتهامة والهند. ويلملم جبل صغير على بعد مرحلتين من مكة.
٤ - قرن المنازل: وهو ميقات أهل نجد والحجاز وهو جبل مشرف على عرفات على بعد مرحلتين منه.
٥ - ذات عرق: وهي ميقات أهل العراق وسائر أهل المشرق وهي قرية على بعد مرحلتين من مكة وسميت بذلك لوجود جبل فيها يسمى عرقا يشرف على وادي العقيق.

تدخل المكان من هنا، في توقيت محدد، تغادر إلى هناك، تقوم بعمل شيء محدد سلفا، كل شيء سيكون حسب خطة واضحة محددة.. تحركاتك.. وأوقاتها..

هل هي خطة عسكرية؟ ..

هل أنت في حرب ما؟

هل أنت في حرب مع الشيطان؟

هل هي حرب مع أتباعه؟ بمختلف أشكالهم وأصنافهم؟

هل هي حرب شاملة مفتوحة الجبهات؟ أم حرب خاطفة مثل غزوة سريعة؟

هل هي عملية (تدخل سريع) لهدف محدد، مثل إنقاذ رهينة ما؟

(هل أنت هو هذا الرهينة يا ترى؟!)...

أم أنها خطة للبناء؟ خطة تذكرك أن البناء لا يمكن أن يكون إلا بالتخطيط المسبق والتنظيم المحدد والجدول الزمني..

أم أنها كل ذلك دفعة واحدة؟

حرب شاملة من أجل تسهيل عملية تدخل سريع لإنقاذ رهينة سيكون لاحقا جزءا من خطة بناء العالم؟!!

ربما كانت فكرة الخطة بحد ذاتها، بمعزل عن تفصيل كون ذلك خطة لأي شيء، **ربما كان أن تؤمن بضرورة التخطيط.. أن تؤمن بالخطة.. جزء من المنافع التي سيرجع بها الحاج إلى موطنه!**

** * * * **

يسمون من جاء من خارج الحرم (الآفاقي)..

أي أنه جاء من الآفاق.. من الأماكن البعيدة..

أغلب مسلمي اليوم هم آفاقيون.. يأتون من آفاق مختلفة وبعيدة..

لكن ما هو مهم هنا..

هو أن يجعلهم الحج يفتحون الآفاق..

من الآفاق (الجغرافية).. إلى الآفاق التي يتداخل فيها الزمان والمكان.. الآفاق التي تترك الأثر في هذا العالم..

يمكنك أن تختار ما تريد..

أن يكون أفقك مجرد مكان جئت منه بواسطة ما.. وستعود إليه لاحقا بعد انتهاء الحج..

أو أن ترتقي في الآفاق، بعد رحلتك هذه..

أن يجعلك الحج، قادرا على ارتقائها..

** * * * **

الإحرام.. أن تكون حراما..

ها أنت تحرم..
ما إن دخلت حدوده.. أو أطراف حدوده، عند الميقات، حتى تبدأ بالإحرام..
والنية جزء من هذا الإحرام..
لكن الإحرام يتضمن ما هو أكثر من ذلك..
إنه ما بعد النية.. إنه اللحظة التي تبدأ فيها النية بالتفعيل..
عندما تعلن لنفسك.. للعالم من حولك.. أنك قد دخلت في الميقات..
دخلت في وضع جديد..
في طور جديد من أطوار خلقك وتشكلك..

** * * * **

لماذا هذه الكلمة تحديدا؟
لماذا الإحرام؟
هل يشبه الأمر **(تكبيرة الإحرام)**.. عندما تدخل في الصلاة فتعلن **(الله أكبر)**؟
هل أنت الآن في حالة مشابهة.. كما لو أن كل النسك القادمة، مهما طالت، ستكون في حالة تشبه حالتك في الصلاة..
ربما..

** * * * **

الإحرام عند اقترابك من البيت الحرام!
هذا هو الأمر إذن..
الإحرام لأنك هنا، ستصير جزءا من البيت الحرام..
ستتخلى عن هويتك السابقة الطارئة.. التي كنت تعتقد أنها (هويتك حقا)..
ستتخلى عن ذاتك القديمة..

وتصير جزءا من المكان الجديد.. تلتحم به بالتدريج..، كما لو أنك تصير حجرا من أحجار بناء قيد الارتفاع والاستمرار.. هو البيت الحرام.. المشعر الحرام..
وأنت.. أنت قد دخلت (طور الإحرام)..

** * * * **

أصل تسمية البيت الحرام، والمسجد الحرام، يرتبط بكونها (محرمة) على المشركين..
واليوم، ها أنت تصير جزءا من هذا..
اليوم أنت (خالص)..
محرم على الشرك..
اليوم الشرك لن يدخل نفسك أو جسدك أو عقلك..
الشرك؟ ستحتج!
لم تشرك قط.. لم تسجد لصنم قط..
كلامك صحيح إذا كان الشرك يخص التعبد للتماثيل فقط.. وإذا كان التعبد يقتصر على (الشعائر) الموجهة لها..

وأنت (تحرم) ستكتشف أن الأمر أعقد بكثير.. وأن الأوثان التي عليك أن تتخلص منها خفية في داخلك.. أخطرها هي أنت، وأخبثها هي تلك التي تفلسف لك أخطاءك وأهواءك، وأكثرها رواجا هي تلك التي تجعلك (عبدا) - لا يدري بعبوديته - لذلك الملأ المسيطر المتحكم برأس المال..

وكما البيت محرم فيه الدم..
فإن الصراع في داخلك، بينك وبين شياطينك، بينك وبين نفسك، تلك الحروب الصغيرة الكبيرة التي تنشب في داخلك ولا يعرف فيها أحد.. هذا الصراع قد انتهى..
الإحرام..

هدنة تعلن في داخلك. لا مكان للصراع مع أحد.. حتى ولا مع نفسك.. أنت اليوم ستجرب حقا وعمليا أن تكون كلك، كلك كلك هذه المرة، لله!

وقف إطلاق للنار.
بانتظار أن يكون هذا الطور مؤديا إلى **النصر الحاسم..**

** * * * **

أن يرتبط إحرامك بالبيت الحرام، يعيدك إلى ذلك المشهد..
مشهد إبراهيم وإسماعيل وهو يرفع القواعد..
الإحرام يربطك بدورك في ذلك العمل!..
لا مفر هناك..!

** * * * **

ومن واجبات الإحرام ارتداء ملابس حددت بدقة[٣٣] هي ملابس الإحرام..
وملابس الإحرام البيضاء، هي أكثر ما يرتبط في أذهاننا بالحج.. الصورة الذهنية التي في مخيلتنا عن الحج فيها ملابس إحرام بيضاء - داخلها - رجال يطوفون حول الكعبة أو يقفون على صعيد عرفة..
ملابس الإحرام، ينظر إليها كما لو أنها (الهوية) الخارجية للحاج. وهي كذلك فعلا. لكنها، مثل كل هوية، تحمل معاني خاصة بمحتوى هذه الهوية..
هوية العسكري ملابسه العسكرية، وكذلك الممرضات وأعضاء الكوادر الطبية، ملابسهم هي جزء من هويتهم الأعم والأشمل، ولكن اختيارها على نحو محدد، ملابس (بيضاء في أغلب دول العالم إلى فترة قريبة)، يرتبط بأسباب موضوعية.. (بيان نظافتها للجميع، حيث إن الأبيض يتسخ بسهولة، الإيحاء بالنقاء وبكل ما يرتبط باللون الأبيض من المعاني... الخ).
كذلك ملابس الإحرام..
هوية الحاج..
لكن ليس دونما سبب..

** * * * **

لعلها تشبه الكفن؟
نعم.. هي تشبه الكفن بلا شك.. وستذكرك بالكفن الذي لن تملك ذاكرتك يوم ترتديه حقا.. إنها **فرصة لا تعوض لترتدي الكفن بينما أنت لا تزال على قيد الحياة.. لا تزال على قيد العمل.. لا تزال تملك خيارك بأن ترتدي كفنك لاحقا بعد أن تكون أديت ما عليك إلى أقصى حد ممكن..**
نعم الكثير من المناسك تذكرك بالآخرة.. تذكرك بما يجب عمله وبناؤه لتكون آخرتك أفضل..
وملابس الإحرام تذكرك بذلك أيضا.. تذكرك بالكفن الذي سيلفك يوما ما لا مفر منه.. بين ارتدائك لها اليوم، وارتدائك للكفن لاحقا، هناك مسافة زمنية لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل..
هي فرصتك لكي يكون ما سيملأ الكفن أفضل!

** * * * **

٣٣ للرجال فقط. أما النساء فيحرمن بملابسهن العادية ولكن مع التأكيد على كشف الوجه والكفين.

يقولون في الأمثال عندنا في العراق: الأكفان ليس لها جيوب..!
يقال هذا للبخيل الذي يجمع المال ويكدسه بلا إنفاق..
لمن تجمعه؟ الأكفان ليس لها جيوب!.. لن تأخذ شيئا معك..
نعم.. الأكفان ليس لها جيوب..
وكذلك ملابس الإحرام.. ليس لها جيوب..
ليس لأنك لن تأخذ شيئا معك.. بل لأن ما ستأخذه معك - حقا - لن تكفيه كل الجيوب في العالم..
متاعك من نوع آخر..

** * * * **

ملابس الإحرام، التي هي (الزي الموحد) الذي يلتزم فيه الحجيج جميعا تجعلنا نشعر **كم نحن متشابهون جدا**.. دون أن نعي ذلك بالضرورة..
مهما حاولنا أن نتميز، ولو كانت هذه المحاولة دون وعي مسبق، بل تحصيل حاصل لما تعودناه في حياتنا السابقة..
أقول: مهما حاولنا أن نتمايز هنا، مهما حاولت (ثقافتنا) أو (شهاداتنا) أو (مراكزنا الاجتماعية) أو (مناصبنا الوظيفية) أن تملي علينا - دون صوت واضح - أن نظهر ذلك.. **ملابس الإحرام ستكون لنا بالمرصاد..**
نعيش في مجتمعات استهلاكية تقوم بتكريس فكرة في داخلنا - أن الإنسان يقَيم بما يملكه من سلع.. لا يمكن القول أن ذلك جديد تماما، فكثير من المدنيات الجاهلية عبر التاريخ، تبنت هذا بدرجة أو بأخرى.. لكن لا يمكن مقارنة ذلك بالتغول الذي بلغته الحضارة الغربية اليوم في شكلها الرأسمالي البشع..
لقد تم تحويل الإنسان إلى سلعة، سلعة تقيم بقدرتها الشرائية للمزيد من السلع.. ثم المزيد من السلع.. ثم النسخة المحدثة من السلعة التي بالكاد استعملتها..
لقد تم (غسل أدمغتنا) على نحو قذر جدا..!
تم إيهامنا بأن (شخصيتنا) لا تكتمل إلا بهذه السلع.. لا بد من هذه السيارة الفخمة التي تميزك عن جارك أو زميلك في العمل.. لا بد من سيارة تبرز (نجاحك).. ومنزل فخم يعبر عن ذلك.. لا بد من أن تعبر (العلامات التجارية) - الماركات الشهيرة – عن نجاحك وعنك.. لا بد من أن تضعها على مقتنياتك: ملابسك، حذائك.. نظارتك.. حقيبتك.. ملابس أولادك وألعابهم ومدارسهم.. زوجتك يمكن أن

تكون معرضا متنقلا يعلن للناس عن قدرتكم كعائلة على الظهور بمظهر النجاح (حتى لو كان ذلك مزيفا ومليئا بالديون والإحباطات)..
تلك (العلامات التجارية) اليوم، تختصر إنسانية الإنسان.. وتقيّمه بمقدار ما يحمل منها..
لكن ملابس الإحرام، لا تخضع لهذا..
لا علامة تجارية على ملابس الإحرام..
ذلك أن ملابس الإحرام هي بحد ذاتها، علامة..
علامة تجارية أيضا، لكن لتجارة أخرى، علامة تدل على ما هو مختلف تماما عن كل ما تدل عليه العلامات التجارية المعروفة..

** * * * **

كل ما في الحج يدل على المساواة بين (الناس) جميعا..
لكن ملابس الإحرام تحديدا، **هي حصن هذه المساواة الحصين..** الحصن الذي لا يمكن اختراقه..
يمكن لك أن تحج (خمس نجوم)، يمكن لك أن تتفاخر بالمبلغ الذي دفعته لحملة الحج التي جئت من خلالها، أن تسكن في برج مرفه على بعد خطوات من الحرم، أن تكون وجبة طعامك مثل وليمة تكفي لسد جوع عشرة جياع في هذا العالم الذي فقد صوابه..
نعم.. يحدث هذا (للأسف) ويؤثر حتما على فكرة المساواة بين الناس أجمعين..
لكن مهما حاولت.. سيصل الأمر إلى ملابس الإحرام ولن تستطيع أن تميز نفسك بشيء..
اذهب إلى محل بيع الملابس. واسأل البائع أن يعطيك أغلى ملابس إحرام متوفرة..
قل له ذلك بوضوح.. وقد يكون هناك فعلا ما هو متفاوت في أسعار هذه الملابس..
لكن، عندما ترتدي هذه الملابس، **لن يكون هناك أي فرق بينك وبين أي شخص آخر اشترى ملابس إحرامه بأرخص سعر ممكن..**
ها هي نقطة البداية التي ينطلق منها الجميع وهم متساوون.. لا أصل ولا عرق ولا شهادة ولا مال ولا حساب بنكي أو شهادات ملكية لعقارات..
الجميع متساوون..
يقفون على خط واحد.. متشابهون بحيث لا يمكن لأحد ما أن يميزهم فيفضل واحداً عن آخر..

لا علامة تجارية تتدلى من ملابس إحرامك.
بل أنت ـ كلك ـ ملفوف بعلامة من نوع خاص..
علامة لأربح تجارة عرفها البشر في كل تاريخهم..

** * * * **

ملابس الإحرام لا تلغي الفوارق والتمايز بين الطبقات فحسب!
بل هي تلغي الفوارق بين الشعوب والأعراق أيضا..
تزيل عنك أوهامك فيما يخص عرقك والشعب الذي تنتمي إليه..
فجأة أنت تشبه القادم من جنوب شرق آسيا.. والقادم من الهند.. والآخر القادم من أفريقيا.. من البلقان.. من دول لا تعرف مكانها على الخارطة.. ولم يسمعوا هم أيضا بدولتك ومدينتك..
فجأة تزول الحدود، توحدنا ملابس الإحرام بأكثر مما تستطيع الشعارات والعلاقات الدبلوماسية أن تفعله.. فجأة يشعر القادم من دولة غنية بغرابة وضعه.. ويشعر القادم من دولة فقيرة بالظلم الموجود..
فجأة يتأمل كل منهما الحشود التي ترتدي الزي الموحد..
تشعر أنها كالسيل الهادر الذي يمكن أن يشق طريقه ليزيح الجبال..
ثم تتذكر الواقع..
فتتذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد قال عنهم إنهم سيكونون غثاءً كغثاء السيل..
ستشعر أنك تفهم ما قصده عليه الصلاة والسلام للمرة الأولى..
نعم.. كل هذه الحشود (اختارت) – ربما دون وعي- أن تكون كغثاء السيل..
ولهذا كان هذا هو واقعها..
لكن الحج ـ عندما يكون وسيلة لتغيير الوعي ـ يمكن أن يكون فرصة لتغيير ذلك..

** * * * **

ملابس الإحرام، تحتوي أيضا على ما هو أكثر من ذلك، على أهمية ذلك..
إنها ليست مجرد زي موحد للحجيج يزيل عنهم فوارقهم الطبقية والعرقية..
ولا هو مجرد تذكير بالكفن وبالآخرة..
على أهمية هذين الشأنين..

** * * * **

ملابس الإحرام[٣٤] تتكون من:
إزار، رداء، ونعلين..
الإزار يلف به الخصر.. الرداء يلف الجذع..
ويشترط في كل منهما أن لا يكون (مخيطا)..
ومعنى أن لا يكون مخيطا أن لا يكون قد خيط على نحو يفصل الجسم، كما مع القميص والسروال والجبة..

** * * * **

هل هناك من معنى في ذلك؟
هل يمكن أن لا يكون هناك معنى في ذلك؟!
ملابس الإحرام هنا هي **رمز تلك الشريعة التي تلفنا..**
الشريعة التي تركنا عليها عليه الصلاة والسلام، بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك..
هذه الشريعة تحيط بنا، تلفنا، إنها كل متكامل.. نسيج لوحدها.. وهي لا تقبل أن يكون فيها من سواها، لا يمكن لك أن (تصلها) بشيء من شريعة أخرى.. لا يمكنك أن (ترقعها) أو (تجملها) من منظومة ثقافية أو حضارية أخرى..
كذلك ملابس الإحرام.. نسيج لحاله.. دون أن يخيط .. لا يمكنك أن تصله بنسيج آخر.. أو تركب عليه قطعة أخرى..
إزار ورداء يلتفان حولك.. قطعة واحدة.. لا يمكنك أن تترك واحدة وتأخذ الأخرى.. كما لا يمكنك أن تختصرهما..
إنها الشريعة.. كاملة.. تحيط بك.. تكفيك..
لست بحاجة معها إلى نوع آخر، إلى استيراد ثقافة من منظومة مغايرة..

** * * * **

ليس هذا فقط!
فقد يسأل سائل لم لا تكون كالقميص أو السروال إذن، وحديثه عليه الصلاة والسلام لما سئل عما يرتدي في الإحرام، ركز على ما يمنع (مثل السروال والقميص) وترك بذلك الباب مفتوحا أمام الإزار والرداء.. الجواب: **لأنهما لم يخيطا ليفصلا حول عضو من أعضاء الجسم..**

---
٣٤ للرجال فقط، أما النساء فيحرمن في اللباس الشرعي مع عدم الانتقاب.

لكن.. ما المغزى من هذا هنا ؟
المغزى أنك عندما ترتدي قميصا أو سروالا.. فإنه يستقر عليك وينتهي الأمر..
مع الإزار والرداء، تكون حريصا على أن يبقيا عليك.. تتمسك بهما.. تكون حريصا على ذلك كل لحظة..
كذلك الأمر مع الشريعة التي تركنا عليها عليه الصلاة والسلام..
لا ينبغي أن نطمئن قط إلى أنها قد (أحاطت بنا)..
بل علينا أن نتأكد من ذلك كل حين.. أن (نأخذ الكتاب بقوة).. نتمسك به بتلابيبه..
لا أن نتركه مرتخيا سائبا ونحن مطمئنون إلى عدم سقوطه لأنه قد فصل وخيط ليكون كذلك..

** * * * **

ليس عبثا أن تكون ملابس الإحرام غير مخيطة..
أن تكون نسيجاً لوحدها.
فهي تمثل (الشريعة) التي تحيط بك..
وهي شريعة كافية ومكتفية..
لا تحتاج إلى ترقيع، ولا تقبل الإضافة من منظومات الآخرين..
وليس عبثا أنك تحتاج دوما إلى التأكد من ثباتها حولك..
لأنك تحتاج إلى فعل الشيء ذاته مع الشريعة أيضا.. أن تتأكد من أنك داخلها وأنها حولك..
وإلا بانت عورتك..

** * * * **

والبياض..
هل هي الصفحة الجديدة التي قررت أن تملأها؟
هل هي راية الاستسلام التي ترفعها له؟
هل هي (الشريعة) - البيضاء ليلها كنهارها - .. الوضوح القاطع الحاسم الذي لا يقبل أي تردد؟
هل هو النقاء؟
هل هو الإشارة إلى استمرارية التطهير.. الذي بدأه إبراهيم يوم قال له ربه.. أن طهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود؟

هل هو أن تعلن عبر هذا البياض، حرصك على أن يبقى أبيض، رغم أنك ستنخرط في العمل؟

زيك الموحد هذا، هو مثل بدلة عمل..
بدلة العمل لعمال البناء غالبا تكون غامقة..
نعم.. عندما يكون البناء ماديا فحسب..
لكن بناءً مثل الذي يعدك الحج له.. سيحتاج (البياض)..

** * * * **

قبل أن تحرم، يستحب لك أن تغتسل، أن تضع الطيب، أن تقص أظافرك وأن تزيل الشعر من جسدك..

قبل أن تحرم..

بالتأكيد..

كمن يستعد للقاء مهم وينبغي عليه أن يكون في أفضل حالاته..

لكن في لحظة دخولك الإحرام، سيصبح كل ذلك من المحظورات[٣٥]

لا يريد منك الله أن تكون قذرا حتما.. لكنه **لا يريد أن تجمل القذارة بقناع زائف من الطيب..** يمكنك أن تغتسل.. لكن وضع الطيب محظور.. **الطيب يزيف لك وضعا قبيحا.. قد تشعر برائحة كريهة (ربما طبيعية أيضا) تنبعث منك.. لن يكون الحل بأن تضع العطر لتغطي على مصدر الرائحة الكريهة.. الحل بأن تزيل مصدر الرائحة.. الحل بأن تواجه المشكلة باقتحامها..**

تاريخ صناعة العطور، خاصة في الغرب وفي فرنسا تحديدا، يخبرنا أنهم (برعوا) في ذلك واكتسبوا الخبرات فيه لأن ذلك كان بديلا بالنسبة لهم عن الاغتسال بالماء والصابون..

لا يعني ذلك أن لا تتعطر ولا تضع الطيب في الأحوال العادية..

لكن يعني أن تتنبه دوما أن **لا يجعلك العطر تضع قناعا من الرائحة المميزة التي تغطي بها على (الرائحة الكريهة)..**

إحرامك يحرم عليك الأقنعة.. أنت كما أنت.. **تغتسل نعم.. لكن بلا عطر ولا طيب.. أنت كما أنت.. والآخرون أيضا كما هم.. عليك أن تحاول التعود على ذلك.. عليك أن تحرص على أن لا تزعجهم برائحتك.. لكن هذه المرة ليس عبر الحل الأسهل..**

---

٣٥ عدا الاغتسال، فلا شيء فيه..

ليس عبر بخة العطر السريعة إياها.. بل عبر المواجهة الجذرية لمصدر الرائحة..

** * * * **

عدم تقليمك لأظفارك.. أو إزالتك للشعر في جسمك أثناء الإحرام.. واعتبار ذلك من المحظورات، هو إعلان لك بأن عليك أن تغير **أولوياتك..**

جسدك، والاهتمام والعناية به، لم يعد مدرجا في هذه القائمة مبدئيا.. الآن عليك أن توجه اهتمامك وحواسك لبعد آخر... ستترك (طبيعتك) تنمو، دون أن تعترض عليها، ستقول لنفسك، بضعة أيام فقط، لن يكون (تقليم الأظافر) مُلِحّاً..

سيدهشك كم سيكون مُلِحًا ذلك !

ستكتشف كم هو مهم تحطيم الأوثان في داخلك..

إن كان الأظفر، الذي لا يطول أكثر من ثلاثة مليمترات - كمعدل- في الشهر، قادرا على أن يزعجك ولو قليلا في بضعة أيام، فقط لأنك تعودت على تقليمه.. فكيف بباقي ما تعودته وما عودته لجسدك؟!..

ستفهم كيف أن **جسدك هذا وثن آخر تسكن فيه..** وأن مواجهتك مع (تقليم الأظفار) هي مجرد رمز صغير لمواجهة أكبر مع كل ما يجب تقليمه في علاقتك مع هذا الجسد..

لن تصير راهبا ينفي وجود هذا الجسد..

فهذا مجرد وجه آخر من العبودية له..

لكنك ستنتصر عليه.. ستتعلم أن حربك معه ليست معه تحديدا.. بل مع أن يصير هو المسير لك ولرغباتك.. تريد أن تسيطر عليه.. أن تقوده وتسوسه.. لا أن يقودك..

لم تتعود أن تفصل بينك وبين جسدك.. فسكنك فيه أوهمك أن لا حدود هناك بينكما..

لكن ها هو ظفرك، ظفرك! يعيد تذكيرك بالحدود بينكما..

أنت لست جسدك. أنت تسكنه فقط. تستعمله فقط. هو مقرك المؤقت. مجرد أداة..

ولن تسمح للأداة أن تسيطر عليك..

هو مجرد وسيلة تقلك إلى ما تريد..

لكنه تحول إلى هدف عند البعض..

بالضبط كما تتحول السيارة عندهم من وسيلة نقل، إلى هدف للرياء وإبراز الثراء والهوية الاجتماعية..

وبدلا من أن تخدمك السيارة.. تصير خادما لها..
كذلك جسدك..
وهنا تأتي محظورات الإحرام، لتضعك في مواجهة حادة، ليس مع نفسك..
بل مع جسدك..
تقول لك إنهما ليسا واحدا، كما توهمت!

** * * * **

ولماذا لا بد من النعلين؟
سبق لموسى أن خلع نعليه في الوادي المقدس طوى..
اليوم أنت ستخلع جلدك القديم..
ستنسل كما تنسل السلحفاة من صدفتها.. من مفاهيمك القديمة.. من أوثانك التي طالما تحكمت بك.. من قيودك التي ثبطتك..
ستخلع نفسك من كل ذلك..
لكن ارتد نعليك.. فأمامك عمل كثير!!..
وكعبك - لا بد أن يظهر- يجب أن يدق الأرض..

** * * * **

وماذا عن إحرام المرأة؟
لِم على المرأة أن تحرم من كل هذه المعاني في إحرامها فلا ترتدي ما يحمل كل تلك المعاني التي يرتديها الرجل؟ لماذا يرتدي الرجل كل هذه الرموز بينما لا ترتدي المرأة سوى ملابسها العادية؟
الحقيقة أن المرأة **تحمل الشريعة هوية لها طيلة أيام السنة**، لقد تشرفت بالتكليف بذلك كما تشرفت بدورها الكبير في الحمل والإنجاب. وكما تشرفت أكثر بأن تعبر عن مكانتها إحدى شعائر الحج تحديدا كما سنرى لاحقا..
المرأة ترتدي طيلة السنة، ما يميزها، ما يعبر عن هويتها، بل **ما يعبر عن هوية الأمة بأسرها..** قدر آخر شرفها وكلفها..
لذا.. لا ملابس مميزة لمن ملابسها مميزة طيلة أيام السنة!

لاءات الحج الثلاث

«فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» (البقرة: ١٩٧)

ثلاثة من النواهي العامة، تكون جزءا أساسيا من تجربة الحج ، من مرورك بالحج ، ومن مرور الحج عليك..

ثلاث لاءات، هي في حقيقتها **جزء من المواجهة الشاملة**، هذه المرة ضد نفسك، كجزء من تدريبك على ترويضها وكبح جماحها، في درب إخراج أفضل ما فيها..

في درب تغييرها نحو الأفضل..

ثلاث لاءات، قد تبدو لك أثناء الاستعداد للحج سهلة هينة ولا تستحق التحذير، بل قد تعتبرها تحصيلَ حاصلٍ..

لو كان الأمر كذلك، تحصيلَ حاصلٍ، لما ذكره عز وجل في كتابه..

الأمر أعقد من هذا.

إنه يمنحك أسلحتك، ويقول حارب!..

هذه المرة تحارب **ما كنت تعتقد أنه نفسك..**

** * * * **

للوهلة الأولى، قد يبدو لك أن كلاً من هذه النواهي تختص بجانب مختلف عن الآخر..

لكن الحقيقة هي أن هناك رابطا يجمع هذه اللاءات مع بعضها.. ويجمع ما تمنعه وتنهى عنه..

لاءات الحج الثلاثة، هي مثل س**لاح ثلاثي الرأس.. عليك أن تفهم حقا لم توجهه بهذا الاتجاه.. كي يصيب الهدف حقا..**

الـ (لا) ليست مجرد لا..

ليست منعا اعتباطيا - حاشا لله - أن يكون في شرعه ما هو اعتباطي وبلا هدف أو حكمة.. بل هو منع يفتح لك أبواباً كثيرة لم تكن تتخيل وجودها أصلا..

خلف كل (لا) من هذه اللاءات.. **ثمة (نعم) كبيرة وشاسعة ومضيئة..**

لن يقولها لك أحد.. لن يقولها لك القرآن حرفيا..

عليك أن تكتشفها بنفسك..

بعد أن تلتزم بتلك الـ (لا)..

** * * * **

الرفث هو كناية عن الجماع..
وهو في لسان العرب:[٣٦] كل ما يريده الرجل من المرأة..
وهو أيضا: الفحش..
إذن، الرفث هو العلاقة الجنسية، ومقترباتها، ما يؤدي إليها عادة، وكذلك الكلام عنها، سواء كان فاحش الكلام والبذيء منه، أو الكلام الذي يتجنب الفحش ولكن يدخل في هذا الأمر..
الرفث، إذن، هو هذه **المنطقة من العلاقة بين الرجل والمرأة، تحديدا، المنطقة الجنسية من العلاقة بينهما..**
العلاقة الجنسية مرفوضة ومحرمة قطعا بين الزوجين في الإحرام.
لكن ليس هذا فقط.
كل ما يؤدي إليها، أو يحوم حولها، ولو بمجرد الحديث، ولو بمجرد التعريض..
في صيام رمضان الأمر مختلف، العلاقة نفسها محرمة ومفسدة للصوم، ولكن الأمر ليس بهذه القطعية مع ما يقترب منها، مثل القبلة، وليس بنفس الشدة مع الكلام العادي عنها..
في الإحرام الأمر مختلف. ليس الجنس فقط. بل بحسم كل شيء يمكن أن يقود إليه..
ولو كان مجرد التلميح.. ولو كان مجرد المزاح العابر..
لا بد من وجود مغزى لهذا..

** * * * **

(لا رفث)، **لا تلغي علاقتك بالجنس الآخر..**
بل تجعلك **تكتشف أبعاداً جديدة لهذه العلاقة..** أبعادا أخرى ربما لم تكن تدركها، أو ربما لم تكن تعرف بوجودها.. أو أنك كنت تعرف بوجودها ولكنك لم تكن تدرك أهميتها..
سواء كنت متزوجا/ متزوجة، أو أعزبا /عزباء.. سواء كانت زوجتك – أو زوجك - معك.. أو كنت وحدك..
(لا رفث) تقول لك أن تلغي هذا البعد من العلاقة بينك وبين زوجك.. على الأقل مؤقتا، لتستكشف أبعاداً أخرى لا تقل أهمية عن عمق العلاقة بينكما..
بُعد المودة.

---
٣٦ لسان العرب مادة رفث

بُعد الرفقة.

بُعد الصداقة.

بُعد الحاجة الإنسانية المجردة تماما عن أي شهوة جنسية.

البُعد الذي يجعل آدم يحتاج إلى زوجه ليكتمل..

البُعد الذي يجعل إبراهيم يبقي على زوجه رغم الشيخوخة والعقم..

إنه البُعد الأكثر أهمية من العلاقة.. لكنه الأقل شعبية.. الأقل إثارة.. لن تجد الكثير من الروايات والقصص والأشعار والأغاني عن هذا البعد.. لكن هذا الأمر لا يقلل من أهميته..

الأشعة فوق البنفسجية مثلا، لا ترى..

لكنها قد تقتل!

** * * * **

لا يخلو مجتمع ذكور - منفردين - من تلميحات جنسية.. بريئة أو غير بريئة.. خاصة عندما يكونون في موضع (المشاركة) في النوم.

ولا يخيل لي أن الوضع في مجتمع النساء مختلف كثيرا..

عندما يكون هناك (انفراد) لجنس معين، فإن كل التحفظات تسقط، ويصبح المكان خاصا بطريقة ما، ويأتي من يتبرع لفتح باب الحديث عن (ما يريده الرجل من المرأة).. أو العكس..

(لا رفث) تمنع هذا.. تجعل هذه الجموع تمتنع وتستهجن من يفتح هذا الباب، وتردعه بقوة..

(لا رفث) تجعل الرجال، **يكتشفون بعدا جديدا في الحوار مع أقرانهم من نفس الجنس..**

وكذلك النساء..

(لا رفث) تغلق الباب أمام هذا الجزء من العلاقة بين الرجل والمرأة، لتنبهك إلى مساحات واسعة أخرى يغفل عنها عموم البشر..

** * * * **

لا يتعلق الأمر بالعلاقة الجنسية فقط.. وبكل ما يؤدي إليها..

الأمر هو أن عموم البشر يستهلكون جزءا كبيرا من طاقتهم – ومن قوتهم وتفكيرهم - في هذا الاتجاه، الآن، وابتداء من الإحرام، فإنك تدخل مرحلة جديدة، بأبعاد

مختلفة زمانيا ومكانيا، كل جهدك وطاقتك ينبغي أن يوجها لهذه الأبعاد.. بدلا من أن تهدر كلها في النمط العادي، بحدوده الدنيا، من حياتنا..

أنت الآن في طور جديد..

وهذه الطاقة التي يسمونها (الليبدو)[٣٧] ، لا بد أن تستثمر الآن، على نحو مختلف تماما..

مع (لا رفث)، **أنت تضع سدا يمنع هذه الطاقة من أن تذهب للمجرى الذي تعودته،** والذي تصورت دوما أنه المجرى الوحيد والطبيعي..

تضع سدا، يحول مجراها، ويدعها تحفر لها مجرى جديداً، تساهم معها في حفره وتعبيده، وتكتشف عبر ذلك، **أن الطاقة تولد طاقات.. وأن الأفق يولد آفاقاً.. وأن منع هذه الشهوة، قد فسح المجال لشهوات من نوع آخر.. شهوات لم تكن تعرف بوجودها.. مثل شهوة الأجنحة للطيران.. وشهوة الجنين للحنان.. وشهوة الإنسان لأن يعود إلى الإنسان..**

(لا رفث) تغلق الباب أمام غريزة ليست محرمة حتما..

لكنها تشوش كثيرا على غرائزك الأخرى، التي يمكن أن تساهم وتستثمر في درب الحج هذا، الدرب الذي سيجعلك أكثر قدرة على المضي في دربك!

** * * * **

تعرفك (لا رفث) على هذا الكائن الآخر الذي في داخلك.. الكائن المجهول الذي يقطنك والذي يكاد يكون غريبا بالنسبة لك..

إنه كائن إنساني، مثلك تماما، له نفس مكوناتك، لكنها بنسب مختلفة عن تلك التي اعتمدتها لحياتك، وهو، في هذه المرة، سيلغي الرفث، لا ليلغي الجنس تماما كما قد تتوهم، بل فقط ليعرفك على جوانب أخرى منه (منك!!).. جوانب أخرى لا تقل أهمية ولا فاعلية ولا ارتباطا بوجودك..

يمكنك أن تقول – دون حرج - أن هذا الكائن يرتفع، يسمو، عن الجنس، لا لينفصل عنه تماما، بل لكي يحلق في آفاق أخرى، دون أن ينسى أنه لا بد أن يحط مجددا على الأرض..

لا.. ليس راهبا هو هذا الكائن..

إنما هو فارس..

---

٣٧ حسب مصطلحات التحليل النفسي هي الطاقة النفسية الأساسية للكائن الحي، وقد ارتبطت في البداية بالطاقة الجنسية، ولكن بعد اكتشاف غرائز الموت، وغرائز الحياة، أصبحت تعني طاقة الحياة النفسية للكائن الحي.

لكنه يجرب خيولا أخرى، لم تكن تعرف أنها موجودة..
خيولا تأخذه إلى مساحات أخرى، لم تعرف بوجودها أيضا..

** * * * **

(لا رفث)، هي (نعم) لإنسان جديد..!

** * * * **

لا فسوق..

الفسوق هو العصيان والترك لأَمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق..
والفسوق، بما أنه كذلك، فهو محرم دوما..
لكن في الحج، هناك جانب آخر للفسوق، لا يلغي الجوانب الأخرى حتما، ولكنه يذكرنا بجوهر الفسوق..
يذكرنا بالفاسق الأول..
إبليس..

** * * * **

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» (الكهف:٥٠)

الفسوق الأول كان رفضا للخضوع لأمر الله.
كان **خروجا عن جمع الملائكة..**
هل كان كبر إبليس وتكبره هو السبب في الخروج؟ هل كان هناك دافع آخر؟..
النتيجة واحدة..
لقد خرج عن الإجماع.. خرج عن جمع الملائكة الذين سجدوا تنفيذا لأمره عز وجل..
هل كان يرى نفسه أهم وأفضل من آدم؟ أم أهم وأفضل من بقية الملائكة بحيث أراد أن يتميز عنهم..
النتيجة واحدة مهما اختلفت الدوافع..
سواء كنت تعصي الله تكبرا أن تكون من بقية مخلوقاته الطائعة، تميزا عنها..
أو كنت تعصيه طاعة لشهوة..
النتيجة واحدة..
أنت تعصيه..
تخرج عن طاعته.. وتخرج عن جمع الطائعين..

** * * * **

في الحج هناك معنى أعمق للفسوق..
إنه الخروج عن هذا الجمع..
إنه أن تكون خارج هذه الـ (نحن) العميقة التي تلف الجميع..
في الأحوال العادية، المعاصي لا تخرج عن المجموع.. عن الجماعة.
لكن للحج أحواله خاصة.. والمعصية تخرجك عن هذه الـ (نحن).. أي فعل عامد تفعله، تخرج به عن طاعة الله ، وبضمنها كل محظورات الإحرام.. ليس فقط لحرمة المكان والزمان، بل لأنك في وضع خاص، لأنك دخلت في طور الطاعة المطلقة الذي ستكتشف من خلاله قدراتك وقواك الخفية.. خروجك عن الطاعة هنا، أو فسوقك، يعرض كل هذا للتخريب..
والأهم من كل هذا، أن الفسوق، **أي ترك أوامر الله**، **عبر أي معصية مهما صغرت، سيخرجك من الـ (نحن).. سيوقف عملية ذوبانك في الـ (نحن).. سيبقي لك (أناك) خارج عملية الذوبان..**
وذوبان الـ (أنا) في الـ (نحن)، ذوبانك كفرد، ذوبان كل ما تعتقد أنه يميزك ويجعلك أفضل من الآخرين، هو هدف بحد ذاته..
ملابس الإحرام توحد هيئتك لكي تسهل عملية الذوبان هذه..
لكي تدخلك في الجو.. جو أن لا فرق هناك بينك وبين سواك بغض النظر عن كل عزتك واعتزازك بنفسك وبأناك..
لكن.. هذا مجرد مدخل لعملية الذوبان..
دخول في الجو..
الذوبان الحقيقي يبدأ لحظة التزامك الطاعة التي يلتزم بها الجمع حولك..
الطاعة التي تعني ضمناً انتصارك على أناك، أنا الشهوة، أنا الكسل، أنا التمرد، أنا العادات.
الأنا التي تمنعك من أن تكتشف أناك الأخرى.. أناك التي تكتشفها عندما تذوب في الـ (نحن)..
لا فسوق..
لا خروج عن الـ (نحن)..
لا أنا خارج الـ (نحن)..
الـ (أنا) الوحيدة التي يسمح بها في الحج هي تلك التي تنمو عبر الذوبان في الـ

(نحن)..
ذاتك الوحيدة، التي لا تتعارض مع الحج، هي التي تتكون عبر هذه اللاءات..
التي تولد في (لا فسوق)..

** * * * **

الفاسق الأول، كان إبليس.. عندما امتنع عن السجود لآدم..
اللا فسوق، يعني التمثل بموقف الملائكة.. الذين أطاعوا الله في كل ما أمرهم..
نعم.. لن نصل لمرتبة الملائكة قطعا، لكن لا داعي للمحاولة أصلا.. **فمرتبة آدم أعلى وأكثر أهمية..**
المرتبة التي جعلته (يستحق) سجود الملائكة..
.. استحقاق لن نناله إلا عبر المرور بما فعلته الملائكة..
الطاعة لله عز وجل..

** * * * **

من اللافت هنا أن نستذكر ما قاله ابن الأعرابي عن لفظ (الفاسق)[٣٨] ..
فهو يقول إن العرب لم تعرفه في كلامها أو أشعارها.. وهو أمر منطقي فعلا، فكيف يتشكل معنى الفسوق - الخروج عن أمر الله - عندما يكون الكل خارجه؟!
وهذا يعني أن الفسوق - كمعنى - تشكل عبر القرآن..
وإن فهم فسق إبليس – الفاسق الأول.. كان له دور كبير.. في فهم (الفسوق)..
وبالتالي في فهم **(لا فسوق)..**

** * * * **

٣٨ لسان العرب مادة فسق

لا جدال..

لا شك عندي أن هذه هي الآية الأكثر استخداما من قبل متعهدي حملات الحج..
يستخدمونها في غير موضعها غالبا لإسكات كل من يطالب بتنفيذ ما اتفق عليه مسبقا..
لكن الآية لم تنزل لصالح هؤلاء حتما..
بل أنزلت كي تقضي على ما يمكن أن **يقضي في داخلك على اللائين السابقين..**
في داخل كل إنسان، قابلية للجدال.. يمكن أن توظف فيما هو خير.. ويمكن أن توظف فيما هو شر.. وقد جاء في سياقات قرآنية أخرى، استخدام إيجابي لها..

«ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (النحل: ١٢٥)

كما جاء في سياقات أخرى، استخدام مرفوض..

«وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا» (النساء: ١٠٧)

الجدال إذن، حسب سياقه، آلة يمكن استخدامها في اتجاهين، مثل كل الآلات.
لكن، في الحج.. لا جدال!
لا سلبا ولا إيجابا.. لا استخدام إيجابي للجدال في الحج..
لم؟
لأن الجدال، هو إيجابي، **عندما يوجه نحو دعوة من يسمونه اليوم بـ (الآخر).**
في الحج ليس من آخر هناك.. إنما هي ذات واحدة، ذات واحدة هي الـ (نحن)..
مجرد وجود آلة الجدال في هذا المكان يعني أن الـ (نحن) لم تتحقق..
مجرد وجود (الحاجة إلى الجدال) تعني أن (لا فسوق) لم تتحقق..
لكن لا..
اترك من خرق (لا فسوق) يفعل ذلك لوحده..
لا جدال..

** * * * **

قابلية الجدال هي جزء من ممتلكات الفطرة البشرية

«وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» (الكهف:٥٤)

لكن البشر يتفاوتون في قدرتهم على استخدامهم لها..

ويتفاوتون أيضا في طريقة استخدامهم لها.. سلبا أو إيجابا..

بعض من يمتلكون (**ناصية هذه القابلية) تتضخم الـ (أنا) لديهم على نحو قد يؤثر على الذوبان في الـ (نحن)..**

ربما يمكن معالجة الأمر في الأحوال العادية..

لكن في الحج، حتى هذه القابلية التي تميزك عن سواك، ليست مقبولة..

لا جدال!..

** * * * **

لاءات الحج الثلاث..

لا نافية للرفث.. تكبل الشهوة فيك لكي تتمكن من الإقلاع في بعد آخر، تكتشف أجنحتك التي لم تعرف بوجودها لكي تتمكن من استخدامها والتحليق بها لاحقا أيضا..

لا نافية للفسوق.. تكبل تلك الـ (أنا) المتمردة الراغبة في ترك الطاعة.. تقودها إلى الـ (أنا) التي تولد من خلال الذوبان والالتحام مع الـ (نحن)..

لا نافية للجدال.. لأن الجدال يمكن له أن يعطل اللاءين السابقين.. لأن الـ (أنا) التي تبرزها آلة الجدال، تكون خطرة على عملية الذوبان ككل..

لاءات الحج الثلاثة..

في الحج، هي جزء من متطلبات أهم (لا) في حياتك..

لا إله إلا الله..

** * * * **

التلبية: صوت صارخ في البرية.. لكنه خارج من الأعماق

وقف إبراهيم ذات يوم، ليؤذن في الناس بالحج.. لم يكن هناك أحد منهم ليسمعه مباشرة..

ربما لم يجد النداء له ردا - مبدئيا - سوى الصدى الصارخ في الوديان..

لكن ذلك لم يستمر طويلا..

وشيئا فشيئا.. جاءت الردود.. جاءت الجموع تلبي نداء إبراهيم..

عبر الأجيال وعبر القرون، من كل حدب وصوب، من أعراق وقوميات مختلفة، جاءوا يلبون..

ربما لم يحدث في كل التاريخ، أن وجد «نداءٌ» ما، كل هذه الردود..

الصرخة التي بدت يوما أنها لم تجد سوى صداها ردا..

وجدت لاحقا مئات الملايين من الردود..

** *** **

عَنْ دَاوُدَ عَنْ أَبِى الْعَالِيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَمَرَرْنَا بِوَادٍ فَقَالَ «أَىُّ وَادٍ هَذَا». فَقَالُوا وَادِى الأَزْرَقِ. فَقَالَ «كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى - صلى الله عليه وسلم - فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعْرِهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ دَاوُدُ وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِى أُذُنَيْهِ لَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي». قَالَ «ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ فَقَالَ «أَىُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ». قَالُوا هَرْشَى أَوْ لِفْتٌ. فَقَالَ «كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ عَلَيْهِ جُبَّةٌ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي مُلَبِّيًا»[٣٩].

على الدرب إلى الحج.. يرفعون أصواتهم ليلبوا نداء إبراهيم..

لم يعد الطريق مقفرا موحشا كما كان يوم نادى إبراهيم.. لقد ساهموا في تغييره .. في تعبيده.. خطوة خطوة.

في كل خطوة من خطوات الدرب إلى مكة كان ثمة نبياً مر هناك ملبيا.. رافعا صوته..

يلبي نداء إبراهيم..

لبيك اللهم لبيك..

في كل خطوة هناك الملايين يقتفون آثارهم.. ويلبون!

** *** **

---

٣٩ صحيح مسلم ٤٣٩

لفظ التلبية يعني الإجابة..
لكن الغوص في جذر اللفظ سيقدم لنا أبعادا أخرى تزيد من فهمنا للتلبية..
التلبية أصلها من الفعل (لبب) لُبُّ كلِّ شيءٍ ولُبابُه خالِصُه وخِيارُه وقد غَلَبَ اللُّبُّ على ما يؤكل داخلُه ويُرْمى خارجُه من الثَّمر ولُبُّ الجَوْز واللَّوز ونحوهما ما في جَوْفه ولُبُّ النَّخلةِ قَلْبُها وخالِصُ كلِّ شيءٍ لُبُّه ولُبُّ الرَّجُل ما جُعِل في قَلْبه من العَقْل.[٤٠]
التلبية إذن هي هذا الصوت الخارج من الأعماق، نعم هو يخرج من حنجرتك وحبالك الصوتية، لكنه يتصل بأعمق حبالك في الداخل.. يتصل بأعماق لبك.. بالعروق في قلبك.. بكل ما هو أنت حقا بعيدا عن القشرة والأقنعة وكل ما لا يلزم حقا..
التلبية إجابة لنداء يخرج من أعماقك، أنت تلبي نداء إبراهيم من **لبك**، **لبك الذي هو حقيقتك..** هل تفعل ذلك حقا؟ أم أنك تلبي فقط لأن من يعلمك الشعائر قال لك أن تفعل ذلك ولم يخبرك بشيء مما في أعماق التلبية؟ لبيت فقط لأن من معك يلبون؟
أخشى أن عدم فهمنا لمعنى التلبية، قد يؤثر على تلبيتنا، فتكون مجرد كلاما بصوت عال.. كلام من اللسان والحبال الصوتية والحنجرة..
لا من أعماق الأعماق..

** * * * **

لعل هذا اللب، الذي تخرج منه تلبيتنا، هو أعمق مكان يمكن لنا أن نكون فيه على الإطلاق..
يمكن لنا أن نكون في مكان أدنى.. في درك أسفل..
لكن العمق مختلف.. لا يمكنك أن تكون في العمق إن كنت في الدرك الأسفل..
وهناك، في اللب، يوجد عمقك الذي قد يقضي البعض أعمارهم كلها دون أن يمروا به..
في اللب، خلاصتك وخير ما فيك، يوجد أعمق فج يمكن لك أن تخرج منه..
يوجد فجك العميق الذي تأتي منه، لتلبي نداء إبراهيم..

** * * * **

وفي لسان العرب ثمة شيء خارق آخر عن معنى اللب..
إنه ما في قلب الرجل من عقله!!

---
٤٠ لسان العرب: مادة لبب

نعم.. **إنه ذلك المزيج بين القلب والعقل..** الشعائر، شعائر الإسلام تحديدا، لا تقتصر على العاطفة فقط.. لعل ما يميزها عن سواها عن الشعائر في بقية الأديان هو جزء مما يميز الإسلام نفسه.. أنه **لا يعد الدين موضعا لمخاطبة العاطفة فحسب، بل لمخاطبة الإنسان بكل ما فيه، من عاطفة وقلب واحتياجات..**

لا فصل حقيقة بين كل هذا في واقع الإنسان وحياته اليومية..

يمكن لذلك أن يحدث في الكتب، في المراجع، يدرس طلبة الطب جسم الإنسان كل عضو على حدة.. ثم يدخلون إلى قاعة التشريح ليجدوا الحقيقة.. كل شيء متداخل تماما.. الفصل مجرد تمهيد تعليمي للدخول في خضم التداخل والتمازج..

كذلك الإنسان، في قراراته، في مبادئه، في خطواته، في طريق حياته.. لا يمكن له أن يعتمد على عواطفه فقط، أو على عقله فقط.. قد تختلف النسب من فرد لآخر بل من مجتمع لآخر.. لكن التداخل حتمي..

وهذه التلبية الصادرة من عمقك، يقول لك لسان العرب إنها نابعة من (ما في العقل من قلبك)!!

هل كنا نعتقد شيئا آخر من الجواب لنداء إبراهيم؟

إبراهيم الذي اكتشف ذات ليلة غيرت عمق التاريخ، أن العقل بإمكانه أن ينير الدرب إلى ما لا يمكن أن يضع له العقل حدودا..

التلبية.. من العمق.. حيث يمتزج عقلك بقلبك..

** * * * **

لا ينتهي المعنى هنا.. ففي كل ما هو عميق، المزيد من الأعماق..

(ولبَّ بالمكان لَبّاً وأَلَبَّ أَقام به ولزمَه وأَلَبَّ على الأمرِ لَزِمَه فلم يفارقْه وقولُهم لَبَّيكَ ولَبَّيهِ مِنه أَي لُزوماً لطاعَتِكَ وفي الصحاح أَي أَنا مُقيمٌ على طاعَتك وثُنِّي على معنى التوكيد أَي إِلْباباً بك بعد إِلبابٍ وإِقامةً بعد إِقامةٍ قال الأَزهري سمعت أَبا الفضل المُنْذِرِيَّ يقول عُرِضَ على أَبي العباس ما سمعتُ من أَبي طالب النحويِّ في قولهم لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ قال قال الفراء معنى لَبَّيْكَ إِجابةً لك بعد إِجابة قال ونصبه على المصدر قال وقال الأَحْمَرُ هو مأْخوذٌ من لَبَّ بالمكان وأَلَبَّ به إِذا أَقام)[٤١].

التلبية إذن هي الإقامة بالمكان!..

أنت مسافر، وتقول بصوت عال، أنك مقيم!

---

٤١ لسان العرب مادة لبب

نعم، لأن سفرك هو خارج مقاييس الترحال العادية..
أنت مسافر إلى حيث يجب أن يكون مقر إقامتك، لا الجغرافية بالمعنى الضيق، بل بالمعنى الأعمق، أنت تقول في جوابك إن طاعته عز وجل فيما يأمرك به، هو سكنك الحقيقي، هو استقرارك حقا، حتى لو كنت مشردا وقد شلحت العاصفة خيمتك عنك..
مقر إقامتك الحقة، الأشد صلابة وأمانا من كل بناء ضخم فخم زوده متعهد البناء بأحدث أجهزة الحماية وأكثر رجال الحماية خبرة وتدريبا.. هو أن تكون في (طاعته) عز وجل.. أن تكون على درب إبراهيم وهو يزرع بذوره في واد غير ذي زرع..
ترك إبراهيم زوجه وولده فيما صار (مقر إقامتهما).. وكان يبدو يومها مقفرا موحشا مرصودا للذئاب والضواري..
بالمقاييس الأخرى، بدا المكان مختلفا جدا..
لبيك اللهم لبيك، مقيم أنا في مقر إقامتي الحقيقي، حيث الدرب الموصل إليك.. الدرب الذي سار عليه موسى.. ويونس.. ومحمد عليه الصلاة والسلام..

** * * * **

مفردات التلبية تمثل لب التوحيد، مثل شهادة (لا إله إلا الله)..
لكن الفرق هو أنك، في لا إله إلا الله، تعلنها في وجوههم أيضا، في وجه كل من لا يؤمن بها، تقولها لتعلن مفاصلتك عن كل ما يؤمنون به من غير الله.. لا إله إلا الله تتضمن خطابا موجها للجميع، لك، لهم، لمن يؤمن بما تؤمن به.. ولمن يكفر به لأنه يؤمن بآلهة أخرى.. أو لا يؤمن بشيء، أو يظن أنه لا يؤمن بشيء وهو يؤمن بآلهة لم تعد تقول عن نفسها أنها آلهة ولم تعد ترغب بتأدية شعائر تقليدية لها، بل بنمط خفي من الشعائر..
في التلبية أنت تخاطبه هو، عز وجل، فليسمعوا هم إن شاءوا، لا بأس، بل كل البأس إن لم يعجبهم، لكنك تخاطبه هو، لفظ (اللهم) لا يأتي إلا عندما يكون السياق سياق دعاء موجه إليه عز وجل، ولفظ الجلالة بصيغته هذه يتضمن ياء النداء،[٤٢] وأنت، بهذه التلبية، تخاطبه هو لتقول له ما هو محفور في فطرتك **«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة، لك والملك، لا شريك لك.. لبيك اللهم لبيك»** لا شريك لك.. لا تشير التلبية إلى (إله آخر) لتنفي وجوده.. بل إلى نفي (الشريك)..

---
٤٢ للمزيد عن أصل كلمة الله يمكن مراجعة لسان العرب – مادة اله

الشريك الوهمي الذي ينصبه البعض - دون أن يعلنوا ذلك صراحة - ليكون شريكا لك، سبحانك!..

وكيف يكون لك شريك، والملك لك، والنعمة لك؟

كيف يعتقدون أن هذا العالم يمكن أن يدار كما تدار (شركة مساهمة)؟ بنسب مختلفة موزعة على أعضاء مجلس الإدارة؟

كيف يوزعون نسب الشراكة يا ترى؟ هل يعتقدون أنه يمكن لهم أن يمنحوا ٥١٪ من الأسهم لك، والباقي لسواك؟..

تلك قسمة ضيزى.. سبحانك.

ليس هناك سواك. كل الأسهم لك. وأنت وحدك بلا شريك.

العبودية لك. والتعبد لك. طريقة رؤية العالم منك. والحكم على الأشياء منك. قانون حياتي منك.. نعم قد أزل عن ذلك أحيانا، لكني (أود) دوما أن أعود إلى مقر إقامتي الأكثر أمانا..

كل شريك لك، ولو بأقل نسبة رقمية ممكنة، سيجعلني أسكن على حافة الهاوية.. ولو في قصر منيف!

فكيف لا يكون الحمد، لك وحدك، وأنت وحدك تستحقه؟

لبيك اللهم لبيك!

** * * * **

وفي الحديث الصحيح[٤٣] عن جابر، أن الرسول عليه الصلاة والسلام «**إذا استوت به ناقته على البيداء أهل بالتوحيد (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)».**

أهّل بالتوحيد.. هكذا وصف جابر تلبيته عليه الصلاة والسلام..

وهلل، تعني رفع الصوت بالتلبية..

ولكنها تعني أيضا ما أراه مرتبطا جدا بالتلبية..

هَلَّ السحابُ بالمطر وهَلَّ المطر هَلاًّ وانْهَلَّ بالمطر انْهِلالاً واسْتَهَلَّ وهو شدَّة انصبابه.. ويقال هو صوت وقعه[٤٤].

انهمار المطر.. علامة الخير، وعناق الأرض لمصدر الحياة الذي يجعلها تهتز وتربو..!

---

٤٣ مشكاة المصابيح ٢٥٥٥

٤٤ لسان العرب مادة هلل

نعم.. ترتبط التلبية بذلك فعلا.. ترفع صوتك بكلمات التلبية.. فينهمر المطر على روحك بعد طول انحباس.. وتعانق أعماق روحك ذلك المطر فترتوي وتتأهب لنمو بذور ألقاها إبراهيم في واد غير ذي زرع.. ولكنها ستبرعم وتزدهر في وديانك أنت..

مع كل لفظ من ألفاظ التلبية، ينهمر المطر على أراضيك المقفرة التي غدت صحراء من طول الجفاف..

تريد أن يستمر السقي؟ تريد أن يصلح المطر يبابك؟

علِّ صوتك إذن بالتلبية!

** * * * **

وليس هذا كل شيء!

فمن معاني لفظ (هلّ) **استهلَّ الصبيُّ بالبُكاء رفع صوتَه وصاح عند الوِلادة** [٤٥]...

ومنه في الحديث:

«لا يرث الصبي حتى يستهل صارخا، واستهلاله أن يصيح أو يعطس أو يبكي» [٤٦].

صرخة الطفل التي تعلن حياته، بعد برهة سديمية يحبس فيها العالم أنفاسه، صرخته التي يواجه فيها عالمه الجديد، يعلن فيها أنه ها هنا، أنه يستنشق الهواء، أنه جاء ليساهم في بناء هذا العالم (أو في خرابه!)..

يهل الطفل الوليد، **يصرخ معلنا تمسكه بحبل الحياة.. لقد ترك الحبل السري، لكنه يتمسك بحبل الله.. حبل الله الممدود بنعمة الحياة..**

صرخة الطفل، فاتحة حياته، اسمها في العربية (أهل)..

وكذلك التلبية، كما وصفها جابر، عندما تكلم عن حجه عليه الصلاة والسلام..

إنها إعلان الحياة أيضا..

صرخة الطفل الأولى تكون صرخة فطرية لا إرادية.. صرخة تشبث بالحياة..

لكن تلبيتك هنا هي صرخة تشبث واعية بالحياة.. الحياة التي تريد أن تعيد تشكيلها كما يجب أن تكون..

التلبية، لبيك اللهم لبيك، هي صرختك التي تريد الحياة.. التي تعلن فيها أنك تريد الحياة.. أنك سئمت من ذلك النوع المتدني منها الذي أوهموك أنها كل الحياة..

---

٤٥ لسان العرب مادة هلل

٤٦ السلسلة الصحيحة ١٥٢

قلبك الحقيقي، لبك، يعود إلى نبضه، يدق مجددا - كما بمعجزة -...
وأنت ترفع صوتك، تهل بالتوحيد..
لبيك اللهم لبيك..

** * * * **

تذكر أن تنصت قليلا..
تذكر أن تنصت لصدى صوت إبراهيم..
قد يصلك، بينما أنت تخرج، ملبيا، من فجك العميق..

الطواف: الدوران حول المركز

ولد الكون، ذات مرة، وهو يدور..
ومن يومها وهو يدور..
وكل ما فيه، يدور.. فالدوران صفة ثابتة من صفات هذا الكون، كما هي صفاتك البشرية جزء من كونك إنساناً.. أن تسير قائما.. أن تملك حواسك التي تميزك عن بقية المخلوقات... إلخ.
الكون كله، من المجرات، إلى الذرات، مرورا بكل ما هو (جزيئة) في هذا الكون، يدور..
والدوران، بالتعريف، **يجب أن يكون حول مركز، حول نقطة ما هي المركز، أو حول محور يقوم مقام المركز..**
العالم كله، الكون كله، في حالة دوران.. دوران مستمر..
ولكن، عندما تكون في داخل هذا الدوران، عندما تكون جزءا منه، فإنك تجهل أنك تدور..
عندما يكون (الدوران) هو الحركة الاعتيادية التي تلف الكون كله، فإن المراقب من داخل هذا الكون، قد يلتبس عليه الأمر..
وقد يتوهم من ينظر من داخل صندوق الكون أن الكون كله ساكن، جامد، وهو في الحقيقة دائم الدوران..

«وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» (النمل: ٨٨)

الطواف، يخرجك من الصندوق.. يجعلك ترى حقيقة ثابتة من حقائق هذا الوجود.. **بل يجعلك (تتمثل) هذه الحقيقة وتكونها**.. لكن هذا الدوران، هذه المرة، لن يكون مجرد دورانا فيزيائيا.. بل سيكون أعمق بكثير..

** * * * **

لماذا يحدث الدوران أصلا؟
يحدث الدوران أصلا بسبب الانفجار الكبير، الرتق الذي فتقته السنن الإلهية ليبدأ كل شيء، كل ما حدث بعدها حمل بصمة ذلك الانفجار وآثاره، تباعد كل شيء عن

مركز الفتق، وهذا التباعد كان خطيا في البداية، ثم حدث له ما نشاهده في كل جسم طائر، بدأ بالدوران، بقوة ما يعرف بالعزم الداخلي ثم استمر في الدوران بقوة ما يعرف بالعزم الزاوي أو الحفاظ على هذا العزم..
الدوران هنا كان حتميا، كل جزيئة من جزيئات الغبار الكوني كان عليها أن تدور بحتمية السنن.. ومن ثم تستمر بحتمية السنن أيضا..
كل جزيئة، كل جزء من هذا الكون، كان عليه أن يدور حول مركز ما.. أن يجد نقطة يدور بالنسبة لها..
بدأ بالعزم الداخلي.. واستمر بالعزم الزاوي الذي يحافظ على الحركة الدورانية..
يحدث ذلك من المجرات الكبيرة، إلى الجزيئات الصغيرة..
وبين هذه وتلك يقف الإنسان..
يسكن الإنسان على كوكب يدور.. في مجموعة شمسية تدور.. في مجرة تدور.. داخل كون يدور..
وفي داخل الإنسان، ثمة جزيئات وذرات أيضا، تسكنه، وهي أيضا تدور..
قد تبدو لك الشجرة ساكنة، لكن كل ما فيها من جزيئات يدور..
وأنت أيضا، تدور.. بطريقة ما، ليس ضمنا، ليس على النحو الفيزيائي..
بل بمعنى أعمق وأكثر شمولا..

** * * * **

المجرات والذرات لا يمكن لها إلا أن تدور..
ولا يمكن لها أن تختار مدارها.. أو تعكسه.. أو تختار مركزا مختلفا لدورانها..
كل شيء يسير حسب قوانين لا يمكن أن تتغير..
أنت وحدك مختلف.. أنت وحدك تختار مدارك والمركز الذي تدور حوله.. أنت وحدك تختار دورانك..
أنت وحدك في هذه الخليقة، تملك الخيار..
كل ما عداك.. مسير!

** * * * **

هناك حتما من سيعترض.. **هناك بشر لا يدورون حول مركز ما..**
في الحقيقة هذا نادر جدا.. هناك بشر لا يعرفون أنهم يدورون، وهذا مختلف تماما عن كونهم لا يدورون..

كل منا يختار مدارا أو فلكا ليدور فيه، قد لا يكون هذا خيارا واعيا دوما، قد يكون الاختيار معقدا ومغلفا بعشرات العناوين البراقة أو المخففة.. لكن الأمر في النهاية واضح: ثمة فلك ما، يدور حوله هذا الإنسان.. كما لو أننا مجبولون على الدوران، ولكننا مخيرون في اختيار ما ندور حوله..

قد يكون الدوران حول نمط حياة سائد في مجتمع ما، لا يدرك من يدور حوله أنه يدور حول شيء أصلا.. **فقط يخوض مع الخائضين.** ولكن خوض الخائضين هذا يكون عبر الدوران حول مركز ما..

نمط الحياة المتدني، أو ما يعرف بالانغماس في الحياة الدنيا، هو مركز يدور حوله كثيرون دون أن يعوا ذلك، نمط الحياة الغربية نمط سائد أيضا، يدور حوله منتمون افتراضيون لحضارات أخرى.. يدورون فكرا ومظاهر وعلى نحو أكثر وضوحا..

يمكن أن يكون الفلك أي خيار أيديولوجي عقائدي تختاره كما اختاره كل أتباعه.. وقد يكون خيارا يؤكد أنه ليس أيديولوجية بل وينتقد الأيديولوجيات، فقط ليمرر أن (أيديولوجيته) هي الخيار الطبيعي الأقرب لطبيعة البشر وحاجاتهم..

لا يمكن لكوكب ما أن يغير مداره..

أما البشر فهم يفعلون، قد يولدون في مدار معين ثم يكتشفون خطأه.. أو قد يتوهمون خطأه.. قد يعيشون في مرحلة تكون فيها مدارات أخرى قد حققت تطاولا براقا، أو انتصارات في جوانب معينة، لهذا فهم ينسلون ليلحقوا المدارات الأخرى، كما تفعل الهزيمة بنفسية البعض..

قد يعتريهم بعض حنين إلى المدار السابق.. أو بعض (شعور بالذنب).. لذا فهم يحاولون التأكيد على تشابه المدارين، أو كون المدار الجديد فيه الكثير من المدار الأول، أو يفعلون بعض ما كانوا يؤدونه هناك..

ربما يكون ذلك عبر فلسفة (توفيقية) متقنة، أو بعض الشعائر التي تؤدى للتكفير عن ذنب الخروج عن المدار..

وربما كان يحدث دون أي تعقيد أو شعور بالذنب..

لا زلنا نتحدث عن الدوران حول المركز!

عن الطواف!

** * * * **

طوافك حول الكعبة، **هو تأكيد على التحامك بمدارك.. مدارك الذي تلتزم فيه طيلة حياتك.. أي المنهج الذي تؤمن به وتؤمن بصلاحيته لخاصك وعامك..**
طوافك هو تمثيل لحياتك كلها.. أو ما يجب أن تكون عليه حياتك..
تسير في الطواف حول الكعبة..
رحلة حياتك كلها، كما يجب أن تكون، هي سير في ذات المدار، حول الكعبة..
أنت تسير في حياتك على درب أنت تقرر مداره وخطوطه العامة.. هل سيكون منطبقا على المدار الذي يريده لك الله؟.. نعم قد تزل أحيانا ـ قد تقف.. قد تتلكأ.. **لكن مدارك، إن كنت تسير على ما أراده الله، ثابت.. دربك، وإن تعثرت عليه، واضح..**
كذلك الطواف، إنه رحلة حياتك حول ثوابتك.. كل حياتك هي صلاة بطريقة ما، كذلك الطواف، هو الصلاة سيرا على الأقدام، مثل رحلة حياتك..
هل سمعنا قبل بصلاة يجوز الكلام فيها؟ الطواف صلاة يجوز فيها الكلام بنص حديثه عليه الصلاة والسلام: **الطواف بالبيت صلاة ولكن الله أحل فيه المنطق فمن نطق فلا ينطق إلا بخير[٤٧].**

لا بد أن يكون لهذا معنى وحكمة.. كما في كل شيء في هذا الدين وشعائره..

يمكن أن يكون هذا تذكيرا لنا بأن الطواف هو **رمز شعائري لحياتنا كلها**.. ندور وندور حول ثوابت هذا الدين وشريعته، هذا الدوران لا يتناقض مع أن نمارس حياتنا، بل ينظمها فقط، يجعلها مثمرة إذ يجعلها تدور حول ما يجب الدوران حوله..
جواز الكلام أثناء الطواف، وعدم قصر ذلك على الدعاء مثلا، أو قراءة القرآن..
تذكير لك، بأن الطواف هو مثل صلاتك الأخرى.. صلاتك التي تستغرق حياتك كلها.. صلاتك التي هي مسيرة حياتك..
سيرك في الطواف، نموذج (شعائري) لمسيرة حياتك.. تلك الخطوات حول الكعبة، مرة تلو مرة، هي نموذج لخطواتك في حياتك خارج شعائر الحج..
هل تعتقد أن مسيرة حياتك لا ترقى إلى ذلك؟ هل تعتقد أنك لست ملتزما حقا بالمدار الذي يجب أن تكون عليه؟ هل تعتقد أنك ربما تكون قد سرت أحيانا عكس الاتجاه؟ أو طفت حول بيت آخر؟ بيت حديث مثلا بدلا من البيت العتيق؟..
الطواف فرصة لتذكيرك بأن ذلك ليس نهاية الأمر.. ما دمت لا تزال حيا، يمكن لك أن تغير مسارك، أن تصحح مدارك..

٤٧ صحيح الجامع ٣٩٥٤

أن تلتحم بالمدار الذي خلقت كي تكون فيه..

** * * * **

الطواف بطريقة ما، يشبه القبلة..
القبلة تمثل الاتجاه الذي تتجه له في صلاتك..
اتجاه الكعبة.. بيت الله الذي وضع للناس، الذي رفع قواعده إبراهيم..
صلاتك باتجاه هذه القبلة، خمس مرات كل يوم، تربطك بمعاني هذا البيت.. بما يمثله.. بكونه البناء القائم على الشريعة.. البناء المستمر، دائم البناء والتجدد، القائم على الشريعة الثابتة..
صلاتك باتجاه البيت، خمس مرات كل يوم، تذكير لك بهذه الثوابت.. تذكير (يومي) لك بالبوصلة التي يجب أن تحدد مسيرتك على أساسها..
الطواف هو تأكيد على هذا.. هذه المرة على نحو أكثر حزما ووضوحا.. في القبلة أنت بحاجة إلى خريطة لتعرف مكانك من الإحداثيات.. لتطبق البوصلة عليها..
في الطواف أنت في داخل المدار، البيت أمامك، وأنت مثل كوكب يدور حوله.. تطوف حوله.. تستمد من طوافك حوله ما يجعلك في المدار الصحيح لاحقا، في الطواف الآخر.. طواف حياتك..

** * * * **

الطواف حول الكعبة يجعلك على **تماس مباشر مع واجب البناء المستمر** الذي بدأه إبراهيم وانتهى في تلك الآية بنهاية مفتوحة حيث فعل (رفع القواعد) بصيغة المضارع.. فعل مضارع يناديك لتكون الفاعل في عملية بناء على قواعد ثابتة ومحددة..
هذا هو عملك أينما كنت..
لكن الطواف يضعك في مواجهته - شعائريا - وجها لوجه!

عكس عقارب الساعة.. مع اتجاه السنن!

كل ما في الإسلام يمين..
لكنك في الطواف، تأسيا به عليه الصلاة والسلام، تجعل الكعبة على يسارك، وتسير يمينا..
أو ما يعرف اليوم بعكس عقارب الساعة..
لا يحدث ذلك دونما حكمة، حاشا لله ثم لنبيه..
في الطواف أنت تسير عكس عقارب الساعة، لكنك في الوقت نفسه تتحد مع الزمن..
دعك من عقارب الساعات، فالساعات الحديثة لا عقارب لها، الزمن أقدم من الساعات، والسنن أقدم من الساعات، والحياة كلها أكبر من طريقة (تحديد الوقت).. المهم هو ما تنجزه في هذا الوقت، لا كيف تحدده..
كل ما في الإسلام يمين.. ثم تقف أمام الكعبة لتضعها على شمالك.. وتطوف وهي على شمالك.. وكل العالم يمينك!.. **كما لو أنك بهذه الحالة تضع الكعبة على شمالك، لأنك تريد أن تمسك العالم بأسره بيمينك.. الكعبة ستمسك بك.. لكن يدك، التي عليك أن تبني العالم بها، التي سترفع البناء بها.. يدك هذه، ستكون اليمين.. وبها ستبدأ البناء حقا..**
الكعبة على شمالك نعم.. والإسلام كله يمين.. لهذا سيكون العالم على يمينك..
لا تناقض..

** * * * **

هذا الاتجاه، سواء أسميناه عكس عقارب الساعة أو أي اسم آخر، هو **السير في ذات الاتجاه الذي تسير به الأرض في دورانها..**
نعم، الأرض، في الجزء الذي يقع شمال خط الاستواء، أي حيث تقع مكة- تدور عكس اتجاه عقارب الساعة..
كذلك القمر، يدور حول الأرض عكس عقارب الساعة.. ويدور حول نفسه أيضا عكس عقارب الساعة..
كل الكواكب الصلبة في المجموعة الشمسية،[48] وكل الأجرام السماوية، تدور حول الشمس، في عكس عقارب الساعة..

---

٤٨ باستثناء كوكب الزهرة، وتقول بعض النظريات الحديثة في تفسير ذلك بكون الزهرة يدور عكس عقارب الساعة لكنه في نقطة ما انقلب على محوره بـ ١٨٠ درجة لذا فأنه يبدو كما لو أنه يدور مع عقارب الساعة. نظرية أخرى تقترح أنه كان يدور عكس عقارب الساعة ثم تباطأ بالتدريج حتى توقف ومن ثم صار يدور مع عقارب الساعة.

حتى الشمس، تدور حول نفسها، عكس عقارب الساعة..
(عكس عقارب الساعة) هو اتجاه هذا الجزء من الكون (على الأقل)..
وأنت، في الطواف، تتمثل هذا الاتجاه، **تتوحد مع الكون، إنها وحدة الخليقة أمام عظمة الخالق، أنت تسير مع السنن، باتجاه الزمن، كل ما تبنيه وترفعه وتعليه وترسخه، سيكون باستثمار السنن، لن تستطيع أن تفعل أي شيء مهم بمعاندة السنن أو السير بعكس اتجاهها..**
الطواف مثل قصة حياتك بنسختها التي يجب أن تكون..
إنه أن تسير مع السنن، باتجاه ما يجب أن يكون..

** * * * **

الفكرة الأساسية التي جعلت من عقارب الساعة تدور بهذا الاتجاه المحدد وليس عكسه هو فكرة حساب الوقت الأولية التي اعتمدت على قياس حركة الظل.. ولأن هذه الساعة الأولى ولدت في بلاد الرافدين، أي شمال خط الاستواء، **فقد كان الظل يتحرك فيها، بالاتجاه الذي يعرف اليوم بعقارب الساعة.. ابتداء من الشرق، الجنوب، وصولا إلى الغرب..**
الساعات الميكانيكية الأولى حافظت على اتجاه الظل (الذي بقي لقرون مصدرا لقياس الوقت)، فصار عقرب الساعة يتحرك بنفس اتجاه الظل، ومن هنا جاء (اتجاه عقرب الساعة)، و(عكس اتجاه عقرب الساعة)..
في الطواف أنت تمشي **عكس حركة الظل..**
أنت تترك الظلال، لتذهب إلى حقيقة الأشياء وجوهرها..
لن تتبع ظلك.. لن تكون ظلا للآخرين..
تطوف حول الكعبة، وأنت تسير مع الأرض.. مع السنن.. مع الكون..
الخليفة في الأرض، لن يسير باتجاه معاكس..
ولن يقف دون أن يفعل شيئا!!

** * * * **

عندما تكون الكعبة على يسارك.. والعالم على يمينك..
فإن قلبك، الذي في يسارك، يكون أقرب للكعبة!
قلبك أقرب للبيت العتيق، البيت الذي رفع قواعده إبراهيم ومعه إسماعيل.. من (الإنجاز) تستمد طاقتك على المزيد من الإنجاز في العالم الذي يقع على يمينك..

قلبك إلى اليسار، قرب الكعبة، حيث إبراهيم وإسماعيل يرفعان البناء..
وأنت، ودورك في البناء، في الجهة الأخرى..
** * * * **

القلب الذي على اليسار، هو الذي يجعل العدائين في كل العالم، يركضون في كل سباقاتهم وتدريباتهم، عكس عقارب الساعة.. **بعبارة أخرى، بنفس اتجاه الطواف!**

هذه حقيقة فسلجية علمية، وجود القلب على اليسار من الجسم البشري، و(الركض عكس عقارب الساعة، يساعد القلب على أداء عمله أثناء الركض، بينما سيكون الأمر مختلفا لو كان اتجاه الركض مع عقارب الساعة..
الوريد الأجوف العلوي، المعروف ب SUPRIOR VENA CAVA، يحمل الدم من الجسم إلى القلب بمساعدة (القوة الماصة للقلب)، الركض عكس عقارب الساعة يساعد هذه القوة الماصة على العمل عبر القوة الطاردة CENTRFUGAL FORCE المتولدة عبر الركض عكس عقارب الساعة، وستكون نفس هذه القوة معوقة لعمل القلب نوعا ما في حالة الركض مع عقارب الساعة..
وهكذا، يكسب العداؤون، قوة إضافية، عندما يكون عدوهم، عكس عقارب الساعة.. باتجاه حركة الأرض والسنن.. والطواف!
** * * * **

لست في سباق للركض.. أنت في طواف..

لكن حياتك هي، بطريقة ما، مثل سباق ماراثون.. يبدأ ساعة ولادتك، وينتهي ساعة موتك، تجمع فيه ما يمكن أن يحسب لك من مساهمة في البناء قيد الإنجاز، وما يمكن أن يحسب عليك من العبث أو اللاشيء أو المساهمة في بناء خاطئ..

فانظر أين يكون قلبك، وماذا يكون على يسارك، وماذا يكون على يمينك.. وأين يكون اتجاهك..
** * * * **

شعائر القوة

لأن الحج وسيلة لتقريبك من دورك في الحياة، وجعلك أكثر إتقانا لها.. فإن هذه المشاعر تتضمن أيضا إظهارك لقوتك.. أنت الذي عينك الله خليفة في الأرض..
ولأن الطواف هو بمثابة رحلة حياتك، فإن تمثل القوة وإظهارها أمر لا بد منه..
حياتك مليئة بالمواجهة، بل هي مواجهة للمواجهات..
بعض هذه المواجهات يتطلب القوة في الصراع حتما..
وبعضها يتطلب القوة من أجل تجنب المواجهات..
وبعضها يتطلب القوة من أجل الردع..
بكل الأحوال، القوة جزء من متطلبات دورك في هذه الحياة..
ولأن الطواف هو رحلة حياتك، فستكون القوة، وإظهارها، جزء من هذا الطواف!
أن تتعبد لله، بإظهار القوة!

** * * * **

نتحدث عن جزء من الطواف، استخدمه عليه الصلاة والسلام بوضوح ليظهر قوة المسلمين للمشركين..

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - قَالَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَأَصْحَابُهُ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ وَفْدٌ وَهَنَهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ. وَأَمَرَهُمُ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثَّلاَثَةَ، وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ.
عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ قُرَيْشاً قَالَتْ إِنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ قَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ. فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - لِعَامِهِ الَّذِى اعْتَمَرَ فِيهِ قَالَ لأَصْحَابِهِ «ارْمُلُوا بِالْبَيْتِ ثَلاَثاً لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ قُوَّتَكُمْ». فَلَمَّا رَمَلُوا قَالَتْ قُرَيْشٌ مَا وَهَنَتْهُمْ.
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ مَرَّ بِقُرَيْشٍ وَهُمْ جُلُوسٌ فِى دَارِ النَّدْوَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - «إِنَّ هَؤُلاَءِ قَدْ تَحَدَّثُوا أَنَّكُمْ هَزْلَى فَارْمُلُوا إِذَا قَدِمْتُمْ ثَلاَثاً». قَالَ فَلَمَّا قَدِمُوا رَمَلُوا ثَلاَثاً - قَالَ - فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ نَتَحَدَّثُ أَنَّ بِهِمْ هُزْلاً مَا رَضِىَ هَؤُلاَءِ بِالْمَشْىِ حَتَّى سَعَوْا سَعْياً.
وعن سهل بن حنيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اعتمر وكان في الطريق قال: لو أنا نظرنا إلى بعير سمين فنحرناه فأكلناه حتى يروا قوتنا، فقال عمر بن

الخطاب: يا رسول الله ادع بأزواد القوم ثم ادع فيها فإن الله سيبارك فيها ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إذا قدمتم فارملوا الثلاثة الأشواط حتى تروا قوتكم»[٤٩].

** * * * **

أصل الأمر إذن واضح..

مشركو قريش الذين توهموا أن صلح الحديبية سيخنق المسلمين، كانوا يفكرون بطريقة التمني، ويتخيلون أن المسلمين قد تعودوا جو المدينة على نحو سيجعلهم يتعبون في الطريق بينها وبين مكة، أو أن حمى معينة في المدينة قد أصابتهم بالهزال..

والرسول عليه الصلاة والسلام، يريد أن يري قريش، بالعين المجردة ، أن أوهامهم بعيدة عن الواقع.. لذا فقد أمرهم بأن يرملوا..

بلحظة واحدة، تحولت الشعيرة إلى ما يشبه الاستعراض العسكري الذي يرهب قريش ويزيح عنها أوهامها..

والرَّمَل هو الهرولة..

الرَّمَل بالتحريك الهَرْولة ورَمَل يَرْمُل رَمَلاً وهو دون العَدْو وفوق المشي ويقال رَمَل الرَّجلُ يَرْمُل رَمَلاناً ورَمَلاً إِذا أَسرع في مِشيته وهزَّ منكبيه وهو في ذلك لا يَنْزُو [٥٠] (أي لا يثب)..

الهرولة تشبه هنا تدريبا عسكريا..

والتدريب العسكري، في أرض العدو، يعكس ثقة بالنفس وقوة أكثر بكثير مما تفعل المباغتة بالهجوم على العدو..

عندما تناور، تتدرب، تستعرض قدراتك أمامهم.. دون أن تلتفت لهم أصلا، فإنك تجعلهم صغارا، أكثر بكثير مما تفعل لو كنت هاجمتهم..

وهكذا كان الرمل في الأشواط الثلاثة الأولى..

شعيرة تظهر قوتك.. أمام العدو..

نعم، السيوف في أغمادها كما اشترط الصلح..

لكن من قال إن القوة في السيوف فحسب؟!

** * * * **

---

٤٩ معجم الزوائد ٥٤٦٨

٥٠ لسان العرب مادة رمل

فلنتذكر هنا أن استعراض القوة هنا لم يكن تمثيلا، لم يكن إدعاءً كاذبا بما هو غير موجود.. فالنصوص السابقة أشارت إلى أن المسلمين نحروا بعيرا سمينا وأكلوه قبل أن يدخلوا مكة، استعدادا وتقويا للموقف كله، اي أنهم (اكتسبوا القوة) ثم أظهروها في شعيرة الطواف.. ويذكرنا هذا كله بآية «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» حيث صح - كما مرَّ سابقاً - **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»[51].**

ترتبط التقوى هنا بالتزود بأسباب القوة.. بالضبط على نحو معاكس لما أدركنا من مفهوم للتقوى (نسخة عصر الانحطاط)..

التقوى، والقوة، صنوان في المفهوم الحقيقي للتقوى.. نسخة عصر الرسالة!..

ألا نفهم هذا على نحو أفضل، عندما نستعرض الرمل في الأشواط الثلاثة؟

للقوة شعيرتها..

ولكن الأخذ بأسبابها، هو من أساسات هذه الشعيرة..

كالوضوء، بالنسبة للصلاة!

** * * * **

إظهار القوة، وقبله الاستعداد لها، يجرنا أيضا إلى الاضطباع.. وهو طريقة وضع ملابس الإحرام أثناء الطواف..

واضْطَبَعَ الشيءَ أي أَدخَله تحت ضَبْعَيْه والاضطِباعُ الذي يُؤْمَر به الطائفُ بالبيت أَن تُدْخِلَ الرِّداءَ من تحت إِبْطِك الأَيمَنِ وتُغَطِّيَ به الأَيسر كالرجل يريد أَن يُعالِجَ أَمْراً فيتهيأَ له يقال قد اضْطَبَعْتُ بثوبي وهو مأْخوذ من الضَّبْع وهو العَضُد[52].

الرداء تحت إبطك الأيمن.. **كالرجل يريد أن يعالج أمرا فيتهيأ له!..**

كمن يشمر مستعدا للدخول في عمل ما..

والكتف الأيمن، مع العضد، يظهران.. **فتظهر معهما قوتك.. عضلاتك.. يظهر (تحضيرك) و(استعدادك) لهذا الإظهار..**

الكتف الأيمن، مرة أخرى اليمين، اليمين التي تضعها فوق الشمال في صلاتك، والتي ترمز لسيطرة (الجزء الأيسر) من الدماغ (المقابل لليمين في الجسم) على الجزء الأيمن منه (المقابل لليسار في الجسم) والذي يعني سيطرة المنطق والتحليل

٥١ صحيح البخاري ١٥٢٣

٥٢ لسان العرب مادة ضبع

الرياضي والأخلاق (وهي التي يكون مركز السيطرة عليها في النصف الأيسر من الدماغ) على ملكات الفن والإبداع (التي يكون مركزها في النصف الأيمن من الدماغ)..

هيمنة اليمين على الشمال، في التكتف في الصلاة، ترمز لخضوع كل ما هو مبدع في النفس الإنسانية لقواعد أخلاقية، الإسلام لا يحجر على الإبداع، كما فعلنا عمليا، ولكنه يضعها ضمن تربة تجعل نمو هذا الإبداع مفيدا ومثمرا..

الكتف الأيمن هنا امتداد لهذا.. بل تشمير لليد اليمنى، التي تمثل ما سبق، كي تساهم فيما خلقت كي تنجزه..

القلب على اليسار، أقرب للكعبة التي يضعها الطواف على اليسار منك، للبناء الذي رفع قواعده إبراهيم.. يستمد من البناء طاقته على ضخ الدم والحيوية إلى سائر أنحاء الجسم..

والعضد والكتف على اليمين.. أقرب للعالم في الجهة الأخرى..

وأنت قد شمرت، استعدادا للعمل في هذا العالم..

كل ذلك من خلال الشعائر!

** * * * **

لكن إظهار القوة أمام كفار قريش، كان له مغزاه وتأثيره وقتها.. كفار قريش كانوا يتحينون ضعف المسلمين، ويروجون عنه الشائعات.. والظهور بمظهر القوة الحاسمة (الرمل والاضطباع) كان يقلب عليهم الطاولة..

فهل انتهى ذلك بانتهاء هذا؟

قطعا لا. الرسول عليه الصلاة والسلام رمل واضطبع في حجة الوداع وكانت شوكة كفار قريش قد انكسرت.. والمسلمون في أقوى حالاتهم..

كما مع سبب النزول الآيات، **تتشكل الشعيرة بشكلها لسبب ما، لكن خصوص السبب لا يلغي عموم معنى الشعيرة..**

نعم كفار قريش، الذين كانوا يتهامسون يومها في دار الندوة، لم يعد لهم وجود..

لكن كفار الملأ العالمي، ملأ كل زمانٍ ومكان، **لا يزالون يعقدون الندوات والمؤتمرات**، لا يزالون يتحينون ضعفنا..لا يزالون يكيدون..

الفرق بين المشهدين، هو نحن... ضعفنا لم يعد شائعة أو خيال.. لم يعد مجرد تعب عابر ناتج عن السفر.. ل**قد صار حقيقة.. حقيقة ناتجة عن تخلينا عن اتخاذ**

الأسباب، عن التزود بالتقوى التي هي الأخذ بالأسباب ضمن معان متعددة..

ليست حمى يثرب هذه المرة.. بل حمى تاريخ طويل من البعد عن المعاني الحقيقية لديننا.. غيبوبة مزمنة عن كل ما أمرنا به ديننا..

وعلى الأطراف يقف الملأ العالمي الجديد، لم يعد ضعفنا له مجرد وهم وخيال.. بل صار موضع استثمار.. ضعفنا هو حقيقة جديدة تضاف لقوتهم..

ونحن، ابتعدنا عن الشعائر، نرمل ونضطبع وقد نعرف السبب وراء الرمل والاضطباع أول مرة.. ولكننا لا نحاول أن نتمثل ما تعنيه.. لا نحاول أن نكتسب القوة لكي تكون الشعائر معبرة عنها حقا.. الشعائر مجرد حركات نؤديها كما يفعل الإنسان الآلي.. لا نحاول أن نستمد منها ما هي ممتلئة به..

لو أن خطأ أصاب أداء الشعائر، لركضنا نسأل عن الفتوى، (علينا دم أم لا ؟)..

لكن أن تمضي شعائر القوة دون أن ننتبه إلى ضعفنا.. دون أن تستفزنا لنبحث عن أسباب القوة.. لنستحق تأدية الشعائر..

لا..

لن نسأل إن كان علينا دم في هذا..

ولهذا، تسيل دماؤنا رخيصة..

الرقم سبعة!

نطوف حول الكعبة سبعة أشواط..
ونسعى بين الصفا والمروة، سبعة أشواط كذلك..
وعند الرمي، لاحقا، سيكون هناك سبع حصيات..
ثمة ارتباط واضح، وإن كان مجهول الأسباب، بين الرقم سبعة.. وبين الكثير من المفاهيم في الإسلام.. ليس في الإسلام فقط، بل في الكثير من الأديان السابقة عليه..
لكن ما يهمنا هنا، هو معنى هذا الرقم في سياقه الإسلامي فقط.. أي في المعاني التي يمكن أن تولد من استخدامه في القرآن وفي الشعائر..
السماوات في القرآن سبع..
وكذلك مثلها من (الأرض)..
أبواب جهنم سبعة أيضا..
والرقم سبعة استخدم أيضا في المثل القرآني..

«مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (البقرة:٢٦١)

«وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» (لقمان: ٢٧، ٢٨)

لا نتحدث هنا عن أسرار للرقم سبعة[٥٣].. بل عن معناه فقط، إذ لا أؤمن شخصيا بوجود أسرار في البيان القرآني، أؤمن فقط أن قدرتنا على فهم هذا البيان محدودة بزمانها ومكانها، لكن لا أسرار يقصد منها أن تكون (أسرارا خفية) وإلا تحول القرآن إلى طلاسم، وحاشاه، هو الذي أنزل لقوم يعقلون، أن يكون كذلك..

** * * * **

الرقم سبعة، عند العرب يستخدم للتضعيف والتكثير..
أي أنه يستخدم للدلالة على الكثرة.. وليس بالضروة على الرقم (الرياضي) (العددي).. والسياق القرآني فرق بين الاستخدامين، الاستخدام (العددي) الذي يعني

٥٣ يوجد الكثير من التلفيقات المنتشرة عند الدعاة والوعاظ في هذا المجال كما غيره، وهي تلفيقات تحاول أن تجعل من الرقم سبعة أساسا للبناء الكوني، على سبيل المثال، وهو أمر لا يصمد عند أول تدقيق.

العدد بعينه.. والاستخدام التكثيري الذي يعني الكثرة والمضاعفة دون أن يعني أنه لا يوجد (عدديا) أيضا..

فعندما يقول القرآن الكريم (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) و (سبعة وثامنهم كلبهم) فهو يقصد العدد سبعة حتما، لأنه استخدم أيضا عدداً آخر..

أما عندما يستخدم الرقم سبعة، بمعزل عن أي رقم آخر (سبع سماوات مثلا) أو في سياق المثل (سبع سنابل) فإن الاستخدام يتجه نحو معنى المضاعفة والتكثير.. نحو حجم هائل للسماوات التي خلقها الله عز وجل، العدد سبعة هنا لا يقصد بذاته (ولا يتعارض هذا مع أن تكون السماوات سبع) ولكن المهم هو معنى الرقم سبعة هنا: كمال الخلق.. الحجم الأقصى من السماوات التي خلقها الله..

للمزيد من التوضيح عن المعنى في لسان العرب الذي نزل القرآن فيه، كانت العرب تقول لمن أحسن إليها: **سَبَّع الله لك! أىَ جَزاك بواحد سَبْعة**[٥٤]

قال الليثُ في قولِهم: لأَعملَنَّ بفلانٍ عَمَلَ سَبْعَةٍ. أرادوا المُبالَغةَ وبُلوغَ الغاية[٥٥].

في نوادر الأَعراب سَبَّعَ الله لفلان تَسْبِيعاً وتَبَّع له تَتْبيعاً أَي تابع له الشيء بعد الشيء وهو دعوة تكون في الخير والشر والعرب تضع التسبيع موضع التضعيف وإِن جاوز السبع[٥٦].

بلوغ الغاية!..

عندما يقولون سبع الله لفلان، أو لأعملن لفلان عمل سبعة، كانوا يقصدون أقصى ما يمكن أن يحدث، الحد الأقصى من التوقع ومن النتيجة.. وليس بالضبط (الرقم سبعة) الذي يلي الرقم ستة..

الرقم سبعة في القرآن، و تحديدا عندما لا يكون مصحوبا بعدد آخر، يشير إلى معنى الكمال وبلوغ الغاية في الخلق تحديدا.

خلق السماوات، والأرض، ارتبط بالرقم سبعة..

وكذلك خلق الإنسان، عبر أطوار سبعة..

لا يمكن أن يكون هذا صدفة أو اعتباطا.. حاشا للخالق أن يكون ما في ذكره عن الخلق بلا حكمة..

لكن أن تكون السماوات سبعا، والأراضين سبعا، وأطوار خلق الإنسان سبعة..

---

٥٤ الفائق السين مع الباء

٥٥ تاج العروس مادة زوع

٥٦ لسان العرب مادة سبع

لا بد أن يكون لذلك (علاقة) تربط بينهم..
وتربطه بعد ذلك بكل ما هو (سبعة) في الشعائر..

** * * * **

خلق السماوات والأرض، مرتبط بالسبعة.. خلق الإنسان، مرتبط بالسبعة كذلك..
والرقم سبعة يعني عند العرب، التضعيف، والتكثير، وبلوغ الغاية..
إنه الخلق الكامل إذن..
خلق السماوات والأرض..
وخلق الخليفة في الخلق!
والرقم سبعة، عندما يربط بين الإثنين، فهو يربط بين المسؤولية الإنسانية، التي يمتلكها هذا المخلوق الذي خلق بأطوار سبعة.. وبين هذا الكون الذي وجد ليكون خليفة فيه..
الربط هنا، هو بلوغ الغاية في الخلق..
الرقم سبعة، في أطوار خلقك وتشكلك، يذكرك، أنك كمخلوق، مرصود لكي تساهم في دورك في هذا الكون.. أن تكون خليفة الخالق في خلقه.. الطور السابع تحديدا يطلقك في مدى لا حدود فيه..

«ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ». (المؤمنون:١٤)

ليست هذه صدفة قط. فالسبعة ليس الرقم الأكثر تفضيلا بالمطلق.. الصلوات مثلا خمسة، ولا يوجد أي صلاة من الصلوات الخمس ركعاتها سبعة..
لكن ارتباط السبعة بالخلق.. سيربطك حتما، عندما تستعرض أطوارك السبعة، بما خلقت من أجله..

** * * * **

الأشواط السبعة في الطواف وفي السعي.. ترتبط بكل ذلك..
الحج يجعلك تقوى على أداء ما خلقت من أجله، تلك الأشواط السبعة هي رمز لكل حياتك، لكل أطوار تشكلك.. لكل (الخلق الآخر) الذي يمكنك أن ترتقي إليه، أو تتدهور إليه..
الأشواط السبعة هي رمز لأن تكون حياتك، بكل أطوارها، ثابتة حول مركز واحد.. حول شريعة واحدة.. حول منهج واحد..

الرقم سبعة يربطك بكل ما يجب أن تكونه، بخلق السماوات والأرض وبخلقك الذي صرت بتمامه مهيأً لاستلام مهمة الاستخلاف في ذلك الكون..

الرقم سبعة، في أشواط حول البيت العتيق، شوطا بعد شوط، يجعلك كل مرة ترتقي في أطوار خلقك.. هذه المرة بإرادتك ووعيك.. هذه المرة ترتقي حول مركز ثابت، وواضح.. لن تصعد في السماوات، لن يكون ارتقاؤك في سلم متخيل نحو الأعلى، بل سترفع الأرض، مكان استخلافك، نحو ما يجب أن تكون عليه..

كل مرة يكون ثمة سبعة في شعائر ما،

تذكر ما خلقت من أجله!

الحجر الأسود

يبدأ كل شوط، وينتهي، بالحجر الأسود..
نقطة الانطلاق، في الطواف، تكون من هذا الحجر..
لا بد لكل انطلاق من نقطة، ولا بد لكل شوط أن يحدد بدايته ونهايته.. الإجراء تنظيمي جدا، يذكرك بحقيقة قد ننساها في خضم المشاعر، لا يمكن لك أن تستثمر في شيء، مهما كان صادقا ونابعا من القلب، ما لم تقننه..
لا يمكن لزرع ما أن يثمر، إن أغرقته في الماء دون تقنين أو سدود.. أو ضوابط..
لذا فإن الطواف، إن ترك دون نقطة بداية أو نهاية، تضبطه وتحدده، سيجعل الطائفين يفقدون قدرتهم على العد، على معرفة موقعهم من رحلة الطواف، المركز الذي تدور حوله ثابت، لا شك في هذا، لكن نقطة البداية، بداية كل شوط ونهايته، تنظم ذلك، مهما كنت خاشعا، مهما كنت متأثرا بطوافك حول البيت، بل بالذات لو كنت كذلك، فإن عدم وجود (نقطة بداية) للطواف سيجعلك تفقد قدرتك على العد، على تمييز الشوط الذي أنت فيه..
كل شيء يجب أن يقنن، أن يكون له ضابط واضح..
حتى الطواف..
ولأنه لا بد من نقطة البداية تلك، فلا يمكن أن يكون هناك أفضل من (الحجر الأسود)..

** * * * **

الحجر الأسود هو كل ما بقي من الجنة على الأرض.. فقد صح أن عليه الصلاة والسلام قد قال :
«نزل الحجر الأسود من الجنة أشد بياضا من الثلج فسودته خطايا بني آدم» [٥٧]
متى نزل؟ لا نعرف.
أي جنة؟.. هل هي جنة آدم؟ أم الجنة التي وعد بها المتقون – جنة الخلد؟.. هل هي ذاتها ولا فرق بينهما أصلا؟
لا نعرف الكثير.
لكن نعرف أنه من الجنة.. وأن لونه لم يكن أسودَ.. بل كان أبيضَ مثل الثلج، ثم

---
٥٧ السلسلة الصحيحة ٢٦١٨

سود بخطايا البشر..
هل نزل مع آدم؟.. هل كان تذكارا من الجنة، يذكر آدم وأولاده بكل ما كان؟ هل نزل لاحقا؟ ليحفز بني آدم على العمل.. على العودة إليها؟
هل وضعه آدم هنا؟ أم إبراهيم؟...
لا نعرف..
لكن هذا الحديث الصحيح يقول إن الحجر من الجنة، وإن لونه تغير بفعل أفعال البشر..
ما الذي يرمز له هذا؟
الحجر من الجنة، وهي الجنة على الأغلب التي كان فيها آدم، ووجوده على الأرض يذكرنا حتما بتلك الجنة التي مر فيها آدم بتجربته المعروفة..
لكن ماذا كان جوهر تلك الجنة التي سكنها آدم وزوجه؟

«إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى» (طه: ١١٨ - ١١٩)

«وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» (البقرة: ٣٥)

إنها الجنة التي تسد فيها الحاجات الأساسية لكل إنسان، المسكن، الملبس، المشرب والمأكل.. إنها جنة العدالة الاجتماعية والتوازن الاجتماعي التي يحتاجها كل إنسان لينشأ في بيئة صحية يحقق فيها ذاته وإمكاناته..
إنها ليست جنة اللا مقطوع واللاممنوع.. بل هي جنة «ولا تقربا هذه الشجرة»، اي أنها جنة الالتزام بالبعد عما حرم الله، جنة يوجد فيها (الحرام) الذي هو جزء من أي مجتمع متماسك متوازن، سواء عبر عن هذا المنع بالحرام أو بخرق القانون..
الحجر الأسود.. جاء من هذه الجنة.. جنة العدالة الاجتماعية، جنة لا يجوع ولا يعرى ولا يعطش فيها أحد.. جنة الحياة الكريمة للجميع.. لم تكن جنة الترف والبطر الذي يتجاور مع الفقر المدقع.. لم تكن جنة الملأ الذي يستأثر بـ٩٠٪ من كل شيء ويترك الفتات للأغلبية..
الحجر الأسود، جاء من هذه الجنة..
وجوده في البيت الحرام، بداية كل شوط منه وانتهاؤه فيه، كونه جزءا من مناسك الطواف، كل هذا، يجعلنا نرتبط بما تعنيه تلك الجنة.. بقيم العدالة والتوان..

كل ما في الحج يذكرك بعملية البناء، عملية رفع القواعد، العملية المستمرة التي يجب أن تشارك فيها..

الحجر الأسود هنا يشير لك، بما يجب أن يكون المادة الأولية لهذا البناء.. يشير لك بـ (الحجر) الذي سيرفع البناء حقا وسيميزه عن مجرد التطاول المؤدي إلى الهاوية..

الحجر الذي ستكون مواده الأولية قائمة على العدالة والتوازن..

هذا هو الحجر الذي تبدأ منه طوافك، نقطة انطلاقك، المبادئ التي تنطلق منها لتحققها على أرض الواقع.. كل شوط من أشواط الطواف يبدأ من الحجر الأسود، ويعود إليه، كما لو لتذكرك بأن عليك تذكر هذه القيم في كل شوط من أشواط حياتك.. كما لو أن عليك مراجعة ما حققته منها على أرض الواقع في كل شوط من أشواط حياتك..

** * * * **

وقد اسوّد بفعل خطايا البشر!

بالتأكيد..

فلننظر إلى ما فعلناه بدنيانا، مقارنة بما كان يجب أن نفعل..

جنة العدالة والمساواة التي كان يجب أن تقام، أقمنا مكانها هذا العالم المليء بالهوة السحيقة بين الملأ الذي يحتكر كل شيء، الغارق في ترف قاتل يكاد يقتل أصحابه من التخمة، وبين من يكاد يموت جوعا أو حاجةً إلى دواء..

جنة التوازن بين مختلف الحاجات الإنسانية التي كان يجب أن تقام في داخل نفس كل إنسان، تحولت إلى جحيم الإفراط والتفريط الذي شوهنا من الداخل..

نعم، تغير لون الحجر من خطايانا على مر العصور..

إنه (أسود) كي نتذكر ما يجب تبييضه في هذا العالم..

** * * * **

استلام الحجر الأسود، يعني لمسه، أو محاذاته على الأقل..

لا أستطيع إلا أن أفهم ذلك على أنه (استلامه) ليكون لبنة، حجرا أساسا، لكل بناء ستبنيه، لإضافتك الشخصية في البناء الشامل، لبنائك لشخصك، لأسرتك، لمنجزك الشخصي..

كل شوط، تستلم الحجر الأسود، تأخذه معك ليكون حجرك الأساس..

** * * * **

ولهذا..

«ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق»[٥٨].

من استلمه بحق!!

من وضعه في عقله، وضميره، وقلبه، وجعله حجرا أساسا ليبنى عليه..

سيأتي الحجر الذي استلمناه، والذي تدافع بعضنا للوصول إليه، وذرف البعض الآخر الدموع لأنه لم يصل بشفتيه إليه.. وسيعتقد البعض أنه قد وصل العلا بالوصول إليه..

لكن استلامه بحق، أمر آخر تماما..

سيأتي ليشهد علينا، وقد صار عنده لسان وعينان، كما أخبر الصادق الأمين، ليقول إن كنا قد استلمناه بحق، إن كنا وضعناه كحجر أساس في كل ما بنيناه ونبنيه، أم أنها كانت مجرد (حركة) قمنا بأدائها دون تضمينها أي معنى..

سيأتي ليشهد، ذلك الحجر الذي ربما لم نره، سيشهد علينا..

** * * * **

ولعل ذلك يفسر قوله عليه الصلاة والسلام

«إن مسح الحجر الأسود والركن اليماني يحطان الخطايا حطا»[٥٩]

كما لو أنك بـ (مسحك) هنا، تزيل عنه السواد الذي لحق به بفعل خطايا البشر.. فتغفر من خطاياك، بمقدار ما تزيل ما ران على الحجر!

** * * * **

تقول عند استلامك الحجر «بسم الله، الله أكبر»..

إنها حياة جديدة تلك التي يمثلها الطواف..

حياة على نهج واضح، على شريعة واضحة واحدة، على نمط حياة واحد..

تبدأها «بسم الله»..

بعبارة أخرى: باسم الله..

أي بالتفويض الذي منحك إياه عز وجل في هذه الحياة.. بتفويض الاستخلاف الذي يتمثل حقا حصريا لك، مشروطا بالسير على ما أراده لك فيها..

---

٥٨ الجامع الصغير وزيادته ٩٤٧٧ وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٣٤٦

٥٩ الجامع الصغير وزيادته ٣٩٥٧ وصححه الألباني

نعم.. الطواف يمثل حياتك..
وبسم الله، في بدايتها، هي مثل «بسم الله» التي قالها نوح عندما ركب سفينة نجاة البشرية..
«وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» (هود: ٤١)
طوافك حول الكعبة، في بقية حياتك، هو مثل سفينة النجاة تلك..
بسم الله!

** * * * **

والله أكبر..
تذكير بكونه خارج كل المقاييس.. وبكون شريعته، والمنهج المنبثق منها، هو الأفضل حتما، وهو الأنسب حتما، في رحلة الطواف – رحلة الحياة تلك..
الله أكبر، حقا، منهجا، شريعة، خيارا..
لا مجرد كلمة تقال على اللسان..

** * * * **

قبل الوصول إلى نهاية الشوط، سيكون هناك (الركن اليماني).. بالضبط قبل الركن الذي فيه الحجر الأسود (نقطة البداية، وبالتالي نقطة النهاية)..
الركن اليماني، الذي استلمه الرسول عليه الصلاة والسلام أيضا، وإن لم يقبله، ولم يشر إليه من بعيد كما فعل مع الحجر الأسود، هو آخر ركن في كل شوط من أشواط الطواف، حيث إن الركن التالي سيضم الحجر الأسود..
الركن اليماني، الذي نستلمه جميعا سيرا على سنته عليه الصلاة والسلام، يمثل تذكيرا لنا **كيف أن البناء يبدأ بحجر (هو الذي ابتدأ به الطواف) ومن ثم يصير ركنا ركينا شامخا..**
في كل شوط من أشواط الطواف، سنبدأ بالحجر، وننتهي بالركن، كما لو كنا نسترجع ذلك دوما، نعيد البناء ونجدده، نعيد تقييمه على أساس (مواصفات الجودة) التي يحددها الحجر، نقطة الانطلاق..
في السير بين الركن اليماني والحجر، أي في نهاية كل شوط، يسن ذلك الدعاء الذي يختصر جوهر الطواف..
عن عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين

الركنين «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»[٦٠].

بين الركنين، بين نهاية شوط وبداية آخر..

يأتي هذا الدعاء ليقول لك بالمختصر ما يجب أن تكونه قصة حياتك..

إنه السعي إلى الحسنيين.. الدنيا والآخرة..

لا فصل هناك بينهما.. لا يمكنك حقيقة أن تحوز حسنة الآخرة إن لم تؤد في الدنيا (حسنا)..

حسنتا الدنيا والآخرة، معا بلا انفصال، هما معا، ملتحمتان، مثل توأمين سياميين، بقلب واحد، هما جوهر وغاية الطواف..

الطواف ليس بمعنى الشعائر فحسب.. بل بمعنى ما سنفعله في حياتنا لاحقا..

** * * * **

---

٦٠ سنن أبي داود ١٨٩٢ وحسنه الألباني

القرآن في قلب الحرم..

ركعتان بعد الطواف، صلاهما الرسول عليه الصلاة والسلام خلف مقام إبراهيم[٦١] ..
قصة اختيار مقام إبراهيم ليكون (مصلى) معروفة..
عن أنس أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فنزلت «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»[٦٢].
لم تكن المرة الأولى التي يوافق فيها عمر الوحي قبل نزوله، هو الذي كان عقله يعمل بنظام تشغيل قرآني..
لكنه في هذه المرة، اختار من المقام الإبراهيمي تحديدا، كل الحرم (قبلة).. نتجه من كل بقاع الأرض نحو الكعبة قبلة لنا..
لكن هنا، في قلب الحرم، سنختار (المقام الإبراهيمي).. ليكون (المصلى)..
المكان الأفضل للصلاة، في أفضل بقعة للصلاة على وجه الأرض..
لن يتمكن الجميع من الصلاة فيه بالتأكيد.. لكن تحديده، ونزول قرآن فيه، وتحوله ليكون سنة عنه عليه الصلاة والسلام سيجعل من هذا المقام، بكل ما يحتويه من معان وقيم، ركنا أساسيا في فهمنا للحج كله..
مقام إبراهيم هو المكان الذي وقف عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أثناء بناء البيت..
...وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا. قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهْوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»[٦٣]...
هذا المقام – المصلى، لم يكن الموضع الذي صلى فيه إبراهيم أو خشع أو سالت دموعه فيه بالضرورة.. ربما يكون قد فعل ذلك لاحقا.. لكن المقام صار مقاما لأنه المكان الذي عمل فيه.. لأنه تصبب عرقا هناك.. لأنه مد يديه ليستلم الحجر وهو واقف عليه.. وهو يرفع القواعد.. وهو يشرف على البناء.. وربما يختلس النظر

---

٦١ ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - فَقَرَأَ (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَكَانَ أَبِى يَقُولُ وَلاَ أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلاَّ عَنِ النَّبِيِّ- صلى الله عليه وسلم - كَانَ يَقْرَأُ فِى الرَّكْعَتَيْنِ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَ (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) صحيح مسلم ٣٠٠٩
٦٢ سنن الترمذي ٢٩٥٩ وصححه الألباني
٦٣ صحيح البخاري ٣٣٦٤

إلى الخلف، حيث الطريق الطويل الذي عبده ليصل الدرب إلى هنا.. أو لينظر إلى الأفق، من حيث يتوقع أن نأتي نحن، أن يأتي اللاحقون لإكمال العمل..
هل وقف إبراهيم على حجر واحد فقط إذن؟ لم المقام واحد بينما جدران الكعبة أربعة؟

... لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل، عليه السلام، به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، كلَّما كَمَّل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا، حتى أتم جدارات الكعبة[٦٤] ..

الكعبة، قبلتنا في كل مكان، تمثل المنهج، الشريعة الثابتة، التي ندور حولها..
لكن مقام إبراهيم، في حضن الكعبة، يدلنا على ذلك العرق الذي تصبب ليرتفع ذلك البناء..
وهناك، حيث تصبب العرق.. حيث ارتفع العمل..
تصلي..

** * * * **

فلنتذكر هنا، أن الوصول إلى لحظة المقام الإبراهيمي، لحظة العمل وتصبب العرق، لم يكن ممكنا دون كل الخطوات السابقة..
العمل لا يأتي بالصدفة.. لا يأتي دون بحث مسبق ووعي ومفاصلة..
وموقف إبراهيم، على المقام، ارتبط قبلها بذلك البحث عن الإله الحق، بالعقل الذي عبد الدرب لينزل الوحي على أرض معدة جيدا، بالسنن، بطمأنينة القلب..
كل موقف سابق، في تلك المشاهد الإبراهيمية، كان يؤدي إلى المقام، إلى لحظة البناء بالفعل المضارع المستمر.. الذي ينتظرنا لنشارك في البناء..

«... فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» (آل عمران: ٩٧)

ترى هل هذه الآية البينة، المرتبطة بمقام إبراهيم، هو استمرارية هذا العمل، استمرارية رفع القواعد؟..
هل الآية البينة هي أن تستلهم العمل من المقام؟ أن تدرك العلاقة بين الصلاة والعمل، بين الصلاة والبناء، بل وبين الارتفاع في البناء؟
ربما..

٦٤ بن كثير تفسير آية «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» (البقرة: ١٢٤)

فقد فهم عمر بن الخطاب معنى أن يكون المقام مصلى..
فكانت حياته سلسلة من المنجزات، كما لو أنه حمل مقام إبراهيم معه أينما ذهب!..

** * * * **

عن ابن شهاب قال: إن أنس بن مالك رضي الله عنه حدثه قال: «رأيت المقام فيه أصابعه، وأخمص قدميه، والعقب غير أثر أذهبه مسح الناس بأيديهم»[٦٥].

ليس مهما أن يبقى الحجر يحمل أثر أصابع وأخمص قدميه عليه السلام..
المهم أن تكون آثار مسيرته غائرة في أعماقك..
المهم أن تكون خطواته قد تركت آثارها في مسيرتك.. في ضميرك.. في عقلك..
أذهب الناس تلك الآثار بكثرة مسحهم لها بأيديهم..
فهل فعلوا الشيء ذاته في الآثار التي يجب أن تكون غائرة في أعماقهم؟
هل مسحوها من أعماقهم أيضا؟..
ليس المهم أن يكون هناك أثر لقدم إبراهيم في مقامه.
المهم أن تتلمس أثره في نفسك..
هذا هو المقام حقا..

** * * * **

ركعتان خلف المقام، قرأ فيهما عليه الصلاة والسلام (قل يا أيها الكافرون) و(قل هو الله أحد)...
ربما لن تتمكن من الصلاة خلف المقام..
لكن ستصلي الركعتين، وستقرأ «قل يا أيها الكافرون» و»قل هو الله أحد»..
لا شيء بالصدفة في هذا الدين.. ولا شيء بالصدفة في شعائره..

** * * * **

قل يا أيها الكافرون!

السورة مكية.. نزلت في وقت كانت الشوكة فيه للكفار..
وقرأها عليه الصلاة والسلام في الحج ، في وقت تبدلت فيه الأوضاع، وصارت فيه الشوكة للمسلمين..
رغم ذلك فهو يقرأها هنا، خلف المقام الإبراهيمي..
لم يقرأ عليه الصلاة والسلام (سورة النصر) مثلا، التي قد نتخيل أنها مناسبة أكثر

---
٦٥ أخبار مكة للفاكهي ٩٣٢

لتلك الجموع التي تؤدي مناسك الحج..

لكن لا..

النصر عابر، يمد ويجزر.. النصر نتيجة لاحقا..

لكن الكفر حقيقة ملازمة لوجودنا كبشر على هذه الأرض..

سيكون هناك دوما (كافرين).. **كفار مكة سيتبدل شكلهم دوما، لكن الكفر سيبقى، ستتغير عناوينه.. ومظاهره، قد يضفي على نفسه بعض الأغلفة الجذابة.. قد يغطي عليه ببعض البريق اللامع.. قد يتجنب الكفر أن يكون صريحا صادما.. ويفضل وضع بعض الملهيات التي تخدر عن حقيقته..**

لكن الكفر سيبقى كفرا.. وسيبقى ثمة كفر.. وكافرون..

وعيك بهذه الحقيقة.. وتعاملك مع العالم على أساسها، هو الذي يمكن أن يوصلك إلى سورة (النصر).. ولوضعية النصر..

النصر نتيجة، تمد وتجزر بحسب ما تفعله وما تتعامل به مع مختلف المعطيات من حولك.. النصر نتيجة لتداخلات متعددة من السنن الإلهية.. أنت جزء منها حتما.. أنت قادر على التعامل والتفاعل مع بعض هذه السنن، وبعضها الآخر سيخفى عليك.. ولهذا فالوصول إلى النصر ليس حتميا في كل حين، بل هو نتاج لتفاعلات متسلسلة تملك السيطرة على بعضها، ولا تفعل بالنسبة لغيرها..

«قل يا أيها الكافرون» بعد سبعة أشواط طواف خلف المقام.. كما لو أنك تقول، أن ما تقوله السورة سيكون موجودا في كل مراحل حياتك، وأن هذا الحوار، سيكون على لسانك وشفتيك، وقبلها في وعيك ووجدانك، في كل مرحلة، وكل مفترق طرق، وفي كل شوط من أشواط حياتك..

هذه المفاضلة الموجودة في السورة، هذا الوضوح في الحدود بين الكفر والإيمان، هذا الإصرار على أن «لا أعبد ما تعبدون» هو الذي يجب أن يكون موجودا على الدوام..

لماذا؟ لماذا يتكرر نفي العبادة، مرة بصيغة «لا أعبد ما تعبدون» ومرة بصيغة «ولا أنا عابد ما عبدتم»؟ بينما نفي عبادة الكافرين لما يعبده المسلمون جاء بصيغة واحدة فقط تكررت مرتين «ولا أنتم عابدون ما أعبد»..

لا يمكن لهذا النفي المزدوج أن يكون اعتباطا، حاشا لله أن يكون ما في كتابه قد جاء دون حكمة أو مقصد، النفي جاء مرة بصيغة الفعل «لا أعبد ما تعبدون»، ومرة

بصيغة الجملة الاسمية «ولا أنا عابد ما عبدتم»..
فهل من فرق بين النفيين؟
بالتأكيد..
النفي بصيغة الفعل، يأتي لنفي (فعل العبادة) الذي قد يحدث دون وعي مسبق، دون سابق نية أو قصد أو تصميم..
هل يحدث هذا، هل يمكن للعبادة أن تحدث كفعل دون أن يقصد (الفاعل) فعله؟..
نعم إذا أدركنا أن العبادة فعل أوسع بكثير من مجرد السجود والركوع..
يمكن لك أن (تنزلق) لعبادة وثن ما، دون أن تعرف أنه وثن، ودون أن تدرك أنك تعبده، ليست كل الأوثان أصناما واضحة مثل هبل واللات، ولا كل العبادات لها شكل السجود والركوع الذي يؤدى في حالات العبادة الواعية..
عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب قال فسمعته يقول «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» قال: قلت يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم قال أجل ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم[٦٦].
فتلك عبادتهم!..
لم يسجدوا لهم ولم يركعوا..
لكن مجرد أن يتحول هؤلاء إلى (مصدر للتشريع) فقد صاروا أربابا..
وتلك عبادتهم!
لم يكن أحد منهم واعيا بفعل العبادة، وقد يعترض جدا على التوصيف ويؤكد أنه لم ولن يسجد لغير الله..
لكنه انزلق لفعل العبادة دون وعي..
وكذلك قد يحدث مع الكثيرين، مع مرجعيات فكرية.. مع أيديولوجيات.. مع أنماط حياة.. ليس من شعائر عبادة واعية تقدم لهم، ليس من اعتراف صريح بالعبادة لهم..
لكن ثمة (فعل) عبادة يحدث دونما وعي..
لهذا يقول النفي قاطعا حاسما..
لا أعبد ما تعبدون..

---
٦٦ السلسلة الصحيحة ٣٢٩٣

بأي شكل من أشكال العبادة..
حتى لو كان شكلا لا يبدو أنه شكل (عبادة) للوهلة الأولى..

** * * * **

النفي الثاني، «ولا أنا عابد ما عبدتم» هو نفي ليس للفعل الذي تم نفيه للتو، بل نفي لمعنى مقتصر على أن تفعل العبادة **على نحو عامد متعمد..**
الفرق بين الأمرين مثل أن (يقع أحدهم في كفر) – قد يكون عابرا، وبين أن يكون هذا الشخص كافرا..
الفعل قد يكون غير عامد.. (وقد يكون عامدا أيضا)..
لكن جملة اسمية، فيها مبتدأ وخبر.. لا يمكن إلا أن تكون عامدة..
لا أعبد ما تعبدون..
ولا أنا عابد ما عبدتم!

** * * * **

فلم إذن، النفي عن الكفار، جاء مكررا، ولكن بصيغة واحدة؟ «ولا أنتم عابدون ما أعبد»..
لأن عبادة الله، لا يمكن إلا أن تحدث إلا على نحو واع وعامد..
لا يمكنك أن تنزلق دون أن تدري إلى عبادة الله.. كما يحدث مع عبادة سواه..يمكنك أن ترتقي عامدا فحسب إلى هذه المنزلة.
وهذه لحظة مفاصلة وموقف ثابت.. يتردد بعد الطواف، في الركعة الأولى من صلاتك في قلب الحرم..
عبادتي واعية. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنا عابد ما عبدتم.
بيني وبين الكفر حدود واضحة لا أسمح لأحد أن يميعها أو يغطيها..

** * * * **

هذه الحدود الفاصلة.. لا تعني أنك ستقتل (الكافرين) بالضرورة.. على العكس، وجود الحدود الفاصلة أحيانا، **هو ما يمنع اضطرارك لقتالهم في أحيان أخرى تجيزها أحكام شرعية..**
هذه الحدود الفاصلة، **تحميك من كفرهم، وتسمح لتجربتك بالنمو والازدهار والتحول لمركز جذب حتى بالنسبة لهم..**

أما عندما تكون الحدود مميعة، غير واضحة، فإن تجربتك ستكون معرضة دوما للاختراق.. وسيؤدي هذا دوما إلى ردود أفعال باتجاه التمييع ، أو إلى العكس منه..

** * * * **

لكم دينكم ولي دين، كانت الخط الفاصل بين الكفر والإيمان..

نحن، أنا وأنتم (أيها الكافرون) ننتمي إلى منظومتين مختلفتين تماما. لا لقاء بيننا. نحن ننتمي إلى كوكب آخر.. إلى سلالة مختلفة.يمكن أن نلتقي عندما يترك الكفار كفرهم.

عوملت هذه الآية تحديدا عكس ما نزلت لأجله..

نزلت في سياق المفاصلة، وبعد أن حددت تصنيفهم وتوصيفهم الدقيق «قل يا أيها الكافرون»..

تعامل الآية اليوم، معزولة عن سياقها، من أجل عدم الحكم على الناس أو تصنيفهم أو توصيفهم..

بينما نزلت من أجل العكس بالضبط..

من أجل وضع حدود في التعامل معهم، بعد إشهار تصنيفهم..

دون خجل من ذلك..

نعم.. لكم دينكم ولي دين، ولكن بعد «قل يا أيها الكافرون»..

** * * * **

قل يا أيها الكافرون، خلف المقام الإبراهيمي..

تكاد تشم رائحة إبراهيم..

هذه المفاصلة، هذا الموقف الواضح، هذا الحسم الذي لا يقبل التنازل.. كلها تتحسس إبراهيم فيها.. في موقفه من أقرب الناس إليه..

ركز قليلا مرة أخرى..

تكاد تلمس عمر أيضا هنا في هذه المواقف..

لا عجب.. أليس هو الذي قال، أفلا نتخذ من من مقام إبراهيم مصلى؟

** * * * **

لن نبتعد كثيرا عن كل هذا في الركعة الثانية التي سنقرأ فيها «قل هو الله أحد»..

سورة الإخلاص، ثلث القرآن، في الركعة الثانية..

الركعة الأولى كانت عن المفاصلة بين الكفر والإيمان. موقفك العملي من إيمانك

بمواجهة الكفر متعدد الأشكال..
لكن الركعة الثانية هي عن هذا الإيمان.. عن كنهه.. بأبسط الكلمات، وبأعمقها في آن واحد..
نزلت السورة في الفترة المكية أيضا. نعرف أنها كانت فترة صعبة على المسلمين. لكن نعرف الآن أن تلك الفترة الصعبة تنزلت فيها ما سيكون سببا في الوصول إلى مراحل مختلفة تماما..
وعندما تتغير المراحل تماما، كما في الحج ، حيث ستظهر الشوكة، وسيكون الناس قد جاؤوا أفواجا لدخول هذا الدين، فإن اختيار من لا ينطق عن الهوى، للآيات التي سيقرؤها والتي ستكون جزءا من شعائر هذه الفريضة، ستركز على دور تلك الآيات التي نزلت في الفترة الصعبة، على بناء الإنسان الذي يعبر تلك الفترة إلى الضفة الأخرى..
تسلسل نزول السورة، التي عرفت أيضا باسم سورة التوحيد، هو الثاني والعشرون، بعد سورة الناس، وقبل سورة النجم.. وهذا يعني أنها نزلت في مرحلة مبكرة من الفترة المكية، لا يمكن تحديدها بالضبط، لكنها في الفترة العلنية من الدعوة حتما، بسبب أن نزول السورة قد جاء ردا على سؤال المشركين للرسول عليه الصلاة والسلام..

عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم انسب لنا ربك فأنزل الله قل هو الله أحد الله الصمد[٦٧].

ما الذي يريده المشركون هنا؟
يريدون نسب الله عز وجل! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا..
نستنكر ذلك اليوم، لكن فلنتذكر أهمية النسب عند العرب، ربما كانوا يسخرون عبر السؤال، لكن ربما كانوا أيضا يريدون معرفة (نسب رب محمد) عليه الصلاة والسلام حقا..
لم يكن ممكنا، بالنسبة لمفاهيمهم، بالنسبة لرؤيتهم للعالم، أن يكون هناك شيء مهم، ومؤثر، منعزلا عن نسبه..
لم يكن ممكنا، بالنسبة لمشركي قريش، حسب جاهليتهم، **أن يتخيلوا أن (الرب)، أو أي قوة عظمى، تكون خارج مفاهيم الكثرة والنسب والعزوة..** كانت الأوثان التي

---
٦٧ صحيح الترمذي ٢٦٨٠ وقال الألباني حسن.

يتعبدون لها داخلة في هذه المنظومة أيضا، ليس عند عرب الجاهلية فقط، بل عند الكثير من الشعوب والتجارب الحضارية التي كانت تعج قصص أساطيرها بزيجات الآلهة وولاداتها..

انسب لنا ربك.. كانت تحديا، المنطق الجاهلي كان يريد أن يعرف من (خلف هذا الرب) الذي يؤمن به مجمد.. هل من عشيرة توازي كبرى عشائرهم؟ وهل من عشيرة توازي العشائر التي تتبع هبل واللات ومناة مثلا؟..

من خلف هذا الذي ينادي بالدعوة لعبادته محمد؟ ما هو تاريخه؟ كيف لنا أن نؤمن به دون أن نعرف نسبه؟! نحن لا نزوج أحدا من بناتنا أو أولادنا دون أن نعرف تاريخ العشيرة التي سنناسبها.. فكيف نؤمن برب لا نعرف عن نسبه شيئا!..

كم نستغرب اليوم من هذا..

وكم بدا ذلك يومها منطقيا..

انسب لنا ربك يا محمد!

** * * * **

كان يمكن أن يأتي الجواب مضاهيا منطق الكثرة الذي يفكر بالقرب منه هؤلاء..

كان يمكن أن يأتي الجواب، متحدثا عن الله ومعه حشد ملائكته الذين يسبحون له ويأتمرون بأمره.. كان يمكن أن يأتي الجواب منوها بكل الخلق الذين خلقهم الله، أن تقدم الصورة وقد دججت بحشد من المؤيدين له عز وجل، على نحو يبهر مشركي مكة الذين يفكرون على نحو قريب من هذا..

لكن لا..

انسب لنا ربك..

وبدلا من جواب يحاكي هذا المنطق، عن السلالات التي خلقها، عن حشد المؤيدين له، يأتي الجواب وهو يحطم هذا المنطق أصلا..

انسب لنا ربك.. أخبرنا عمن معه ومن خلفه..

الجواب: **أنه وحده.. لا أحد معه!**

** * * * **

قل هو الله أحد..

في زحمة الحج.. في قلب الحرم.. في وسط أكبر زحمة يمكن أن تمر بها في حياتك..

تقول: هو الله أحد..
تذكرك الآية فورا بأن الأهمية لا تكون قط بالكثرة.. أو العزوة.. أو النسب..
تذكرك الآية فورا، وأنت محاصر بالزحام، بأن لا أحد مهماً حقا في الزحام.. إلا هو.. هذا الأحد الذي ليس معه أحد..
واحد وحيد.. متفرد.. ليس من منطق أو خيال أو رؤية يمكن لها أن تحتويه سبحانه.. أو تقترب حتى من ذلك..
إنه الصمد، والصمد هو الذي لا يجوع ولا يعطش، مجرد نزع صفتي العطش والجوع عنه سبحانه، سينزعان عنه صفة الضعف البشري، والضعف البشري، هو الدافع الفطري الذي يدفع الناس إلى التجمع، إلى الانتظام في تجمعات بشرية، تفرز لاحقا قبائل وعشائر، ومجتمعات..
نفي هذا الضعف، سينفي الدافع الأساسي لتكون المجتمعات..
انسب لنا ربك..
لا. سننسف فكرة النسب من الأساس.
أنتم تحتاجون إلى النسب. لأنكم محكومون بضعفكم.
أما هو.. فهو عز وجل، خارج المعادلة..

** * * * **

البشر أيضا يتناسلون، يولدون، ويلدون..
الأمر غريزي بالنسبة لهم، الشهوة تكفلت لقرون بحسم الأمر، في أن يستمر البشر، كانت مثل فخ متقن، وضعه الله الذي أحسن كل شيء خلقه لكي يستمر البشر..
قد تعمينا الشهوة عن دوافعها العميقة، لكنها في الحقيقة، كانت الدافع الأهم لاستمرار الإنسان..
البشر، على اختلاف ألوانهم وأعراقهم لم يتفقوا على حقيقة بقدر اتفاقهم على حقيقة أن الإنسان عابر على هذه الأرض.. وأنه زائل..
كان إصرارهم على الاستمرار، على أن تكون لهم ذرية، تعبيرا عن رد الفعل تجاه حقيقة الزوال القادم لا محالة..
يولدون، ويلدون.. ويستمرون في ذلك..
لأنهم زائلون..

** * * * **

وهو، الغني عن الحاجة إلى الاستمرار.. المستمر دوما وأبدا، من الأزل إلى المطلق.. قبل البدء، وبعد النهاية..

هو، لا يلد ولا يولد، لأنه خارج الحاجة إلى ذلك، خارج غرائزنا وحاجاتنا، خارج رغباتنا بالخلود المستحيل..

ليس بحاجة إلى أن يرى أن (اسمه) سيخلد في ولد له..

باختصار..

خارج كل ضعفنا البشري، المتمثل بالحاجة إلى (النسب)، أو في الجوع والعطش..

أو في الضعف الوجودي المتمثل بالخوف من الزوال..

** * * * **

وبسبب من كل هذا، لم يكن، ولن يكون، له كفوا أحد..!

فكل ما سواه، سيبقى محكوما بضعفه..

وحده هو، سيكون أحدا صمدا، لم يلد ولم يولد..

** * * * **

هل سنقول إن هذا النقاش، مع كفار مكة، يوم سألوا الرسول عليه الصلاة والسلام، أن انسب لنا ربك، كان مناسبا لسورة الإخلاص، وأن فكرة الرب الذي يحتاج إلى نسب أو الذي يلد لم تعد واردة؟

ليس صحيحا..

صحيح أن الحديث عن الإله ونسبه وولده ووالده لن يكون مباشرا صريحا كما كان..

لكن الصحيح أيضا أن البشرية لا تزال رهينة بنفس ضعفها الذي جعل مشركي مكة يطلبون «انسب لنا ربك».. كل ما تغير هو طريقة التعبير عن هذا الضعف..

النسب الذي طالب مشركو مكة به هو تعبير عن القوة والرفاهية والمنعة والعزة..

واليوم، كل (عقيدة) تعتنق، بمعزل عن كونها سماوية أو وضعية، ستمر من خلال هذه الغربال الجاهلي ذاته، ولكن بعد أن غلفت بأغلفة براقة زاهية.. أي عقيدة ستقاس بمقدار التطاول الذي حققته، حتى لو كان تطاولا مبنيا على حافة الهاوية. ستقاس بمقدار الدخل والترف الذي حققته، حتى لو صاحب ذلك تزايدا في الهوة بين الفقراء والأغنياء، وصاحب الترف أعلى معدلات انتحار، وإدمان في العالم..

«انسب لنا ربك» في الأمس، تعبر عن القناعة السائدة اليوم بأن كل ما نؤمن به، كل الأديان، كل الوحي والكتب السماوية، كل الأحكام التي شرعت فيها قد (نتجت) عن ظروف محيطة شكلت هذه الشريعة وكونتها..

النسب هو الأصل، وهؤلاء لم يعودوا يبحثون عن نسب الله بالمعنى المباشر، تعالى الله عن أن يكون له نسب علوا كبيرا، لكنهم صاروا، وبمنتهى الجدية، يبحثون عن أصل العقيدة التي تؤمن به، عن التغيرات الاجتماعية والمادية التي حدثت في محيط ما، في وقت محدد، وجعلت الناس (يخترعون) فكرة الله الواحد.. يبحثون عن (صراع طبقي) مهد لظهور رسالات الأنبياء وشرائعهم..

إنهم يؤمنون، أن هذه الرسالات، كما غيرها من العقائد، قد (ولدت) في ظرف تاريخي معين، وبسبب ظرف تاريخي معين.. وأنها أيضا قد تسبب في ولادة عقائد أخرى ناتجة عنها..

يختصرون حكاية الإنسان في نسبه وتناسبه، في جوعه وعطشه.. يعتقدون أنه من أجل سد هذه الحاجات الثلاث، اخترع الإنسان، دون وعي، كل ما آمن به..

ربما كانوا على حق في هذا الأمر لكن بخصوص عقيدتهم تلك.. عقيدة أن كل شيء إنما **نتج سدا لحاجات تاريخية..** فهي عقيدة تكرس (سد الحاجات) باعتباره الأولوية الأحق والأهم، وعندما يكون هذا حقا مقدسا، ويتم استثماره، فإنه سيتحول ليصب الأرباح في جيوب ملأ كل زمان ومكان.. بالضبط كما ملأ مكة الذي كان يطالب «انسب لنا ربك»..

** * * * **

لكنه هو الله أحد.

عقيدة الإيمان به هي الوحيدة التي لا ينطبق عليها ما يقولون..

الله الصمد، المنزه عن التأثر بأي متغير.. المتعالي عن المتغيرات.. الإيمان به هو الذي يحدث التغيرات في هذا العالم الذي يحتاج إلى التغيير فعلا.. **الإيمان به هو المعادلة الصامدة الصعبة في وجه كل التغيرات، في وجه كل ما يظهر ويأفل من عقائد ومعتقدات..**

كل العقائد تظهر وتنتشر وتبرز، وقد يبدو في لحظة ما، أنها العقيدة الوحيدة التي تستحق البقاء، أنها العقيدة التي حققت (نهاية التاريخ).. لكن سرعان ما يدب الذبول فيها.. وسرعان ما يأتي، بالتدريج.. الأفول..

وحدها عقيدة الإيمان به، خارجة عن معادلات الأفول والذبول بعد البروز والظهور، لأنها ترتبط به عز وجل..

وحدها عقيدة الإيمان به، خالصة تماما من كل شوائب المتغيرات..

وحدها عقيدة الإيمان به عز وجل، لا تولد من شيء، ولا تلد عقيدة أخرى..

ارتباطها الوحيد بالولادة، هو أننا نملك خيار الولادة الحقيقية عبرها..

فقط..

** * * * **

قل هو الله أحد، التوحيد الخالص، تذكرك أيضا بإبراهيم، إبراهيم الذي وصل إلى ما قالته السورة بعقله، قبل الوحي، الذي اكتشف أن الله الذي يستحق أن يعبد هو الله الذي لا يخضع لمعادلات الأفول والبروز..

إبراهيم مجددا.. وأنت خلف مقامه..

** * * * **

السورة الأولى، قل يا أيها الكافرون، كانت مثالا عن التوحيد العملي، عن التوحيد في لحظة المفاصلة والمواجهة مع كل أنواع الكفر..

أما السورة الثانية، قل هو الله أحد، فقد كانت مثالا عن الأساس النظري لهذا التوحيد.. لا توجد كلمة واحدة في السورة الثانية عن الكفر أو الشرك، ورغم ذلك فهي تبدو مثل ضربة قاصمة لكل أنواع الكفر.. لأنها تضرب الجذر الذي يصدر عنه هذا الكفر..

لماذا (الإيمان العملي) قبل (الإيمان النظري)؟ وقد تعودنا العكس؟!

لأن هذا الإيمان العملي، المفاصلة الحادة، المواجهة الحاسمة، هو بمثابة (السور) الذي سيحمي الجوهر الأساسي للتوحيد..

لو تساهلت قليلا.. لوجدت أنهم دخلوا عقر دار التوحيد..

لذا، فالمفاصلة أولا.. السور المنيع أولا.. قل يا أيها الكافرون.. لا أعبد ما تعبدون..

ثم بعدها.. قل هو الله أحد..

** * * * **

(... وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت

عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب (مكة) وهو يقول: أحد أحد..)[٦٨].

في الزحام، في الضجيج، في التلبية التي تغطي المكان..

يمكن لك لو أرهفت السمع، أن تسمع صوته، وهو يقول «أحد أحد».. لا يزال يتردد منذ أن قالها تحت التعذيب، غير بعيد عن هذا المكان..

أحد أحد..

ذلك الرجل الذي كان بلا نسب يفاخر به، كان هو الأقدر على فهم ما تعنيه أحد أحد.. كان يمكنه أن يقول ما يريدون ليخلص من العذاب.. لكن التخلي عن «أحد أحد» كان بالنسبة له بمثابة انتحار..

لقد كان الأقدر على أن يجعل من الإسلام نسبه وهويته وذاته..

أحد، أحد.. على الرمال الحارقة.. غير بعيد عن الحرم..

أحد، أحد.. في شعاب مكة، والصبيان يسخرون منه..

انصت اليوم إلى صدى صوته وهو يتردد..

كل من يمر هنا اليوم، سيقول **«قل هو الله أحد»..**

** * * * **

.. وأنت تنسحب من مقام إبراهيم، في طريقك إلى السعي بين الصفا والمروة، بعد صلاة صليتها بـ «قل يا أيها الكافرون» «وقل هو الله أحد»... وأنت ترى إبراهيم ممثلا في معاني القرآن، في جوهر التوحيد، ستتذكر ما قاله بعض السلف.. **من أن مقام إبراهيم هو (الحج كله)[٦٩].**

نعم.. ربما ليس بمعنى الموقع الجغرافي المحدد..

لكن (مقام) إبراهيم.. ما قام به إبراهيم..

قيام إبراهيم أصلا، هو الحج كله..

** * * * **

قبل أن تذهب للسعي، ستذهب إلى (زمزم) لتشرب منه، كما فعل عليه الصلاة والسلام[٧٠].

ستروي عطشك، وعطش السنين، سيكون للماء هذه المرة طعم مختلف، ربما

---

٦٨ صحيح السيرة النبوية للألباني ص ١٢٢
٦٩ مصنف ابن أبي شيبة ١٤٧٠٣
٧٠ مسند أحمد بن حنبل ١٥٢٨٠ ثم ذهب إلى زمزم فشرب منها

شربت زمزم معبأً في قنانيَ أكثر من مرة سابقا.. لكن زمزم في الشعيرة يكون بطعم ومعنى مختلفين..

ماء زمزم هذه المرة لا يكتفي بري عروقك وأضلاعك.. بل يتوغل ليصل إلى أعماق روحك.. يسد عطشا أعمق وأعرق في داخلك.. عطش ربما تأقلمت معه وتعايشت مع وجوده عبر سنين نشوئك، حتى تخيلت أن هذا العطش هو الوضع الطبيعي..

شربة من ماء زمزم..

وبعدها، السعي، لتساهم في قصة اكتشاف هذا الماء!

السعي بين الصفا والمروة

هنا كان ثمة طفل يوشك على الموت عطشا وجوعا..
هنا كان ثمة طفل جف صدر أمه.. وكان يبكي، وكان قلب أمه يكاد ينفجر عليه..
هنا كان صوت بكائه يخفت.. يكاد يموت..
هنا كانت أم لم تستطع أن ترى ابنها يموت دون أن تفعل شيئا..
ما فعلته..
دخل التاريخ..
وصار جزءا من شعائرنا..

** * * * **

... لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيت بالله. قال: فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها حتى لما فني الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا. قال: فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا، فلما بلغت الوادي سعت وأتت المروة ففعلت ذلك أشواطا ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل (تعني الصبي) فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا. ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوت فقالت أغث إن كان عندك خير فإذا جبريل قال فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الأرض قال فانبثق الماء فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفر قال فقال أبو القاسم صلى الله عليه و سلم (لو تركته كان الماء ظاهرا). قال فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها. قال: فمر ناس من جرهم ببطن الوادي فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذاك وقالوا ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها فقالوا يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن تكون معك أو نسكن معك فبلغ ابنها فنكح فيهم امرأة[٧١].

---

٧١ صحيح البخاري ٣١٨٥

إلى من تتركنا يا إبراهيم؟..
هكذا قالت المرأة التي سيدخل فزعها على ابنها التاريخ..
إلى الله..
قال بحسم.
قالت: رضيت بالله..
كانت قد قطعت مع إبراهيم شوطا من دربه، وصارت معالم طريقه جزءا من تشكلها هي أيضا.. فهمت عن السنن، عن الصورة الكبيرة، لا عن الجزء الصغير من الصورة، فقالت: رضيت بالذي تركتنا له.. رضيت بالله..
وحيدان في الصحراء. هي ورضيعها.. وشنة من الماء.. كانت أم إسماعيل تعرف أنها ستنفد قريبا..
وحيدان في صحراء شاسعة، كانت تعرف حتما أنها غير مطروقة، فقد جاءت للتو مع إبراهيم.. وكانت قد انتبهت حتما أن الطريق لا تمر بها القوافل..
وحيدان في صحراء شاسعة.. والماء يكاد ينفد.. والصبي يبكي.. يكاد يموت جوعا وعطشا..
انصتوا قليلا.. ستسمعون صوته.. لحوحا.. عنيدا.. مصمما على إيقاظك من غفوتك.. من نومك.. من لا مبالاتك..
هل تركهما إبراهيم هناك خصيصا كي يحدث هذا؟
لا..
كان سيحدث حتى لو كان معهما. كان الماء سينفد. وإسماعيل سيعطش. وسيبكي.. وسيبدو كما لو أنه سيموت..
لماذا إذن توارى إبراهيم عن هذا المشهد الذي سيدخل تاريخ الشعائر.. وسيتم التأكيد على دخوله تحديدا، في القرآن الكريم؟
من الممكن القول إن ذلك كان امتحانا لهاجر وإيمانها.. وهو امتحان يمكن أن يمر به أي مؤمن.. ووجود إبراهيم – النبي – الرجل، إلى جانب هاجر، قد يشوش على موقفها الحقيقي المنفرد لأنه سيقدم لها إسنادا يقويها.. كزوج.. وكنبي..
هذا وارد جدا.. خاصة أننا سنمر في امتحاناتنا الشخصية لوحدنا إلا من الله..
حتى لو وقف أخوة لنا معنا، فلن نحظى بوجود نبي معنا..
لذا ربما كان يجب أن تمر هاجر بهذا الموقف الهائل، في الصحراء الخالية،

ورضيعها يكاد يموت، أن يضمن ذلك في شعائر الحج، فقط لكي نتمثل موقفها..
ونشعر بما يمكن أن تكون قد مرت به..
ربما..
ربما هناك المزيد..

** * * * **

طفل يبكي. يكاد يموت عطشا.
وأمه تركض بحثا عن ماء.
ليس المشهد نادرا على الإطلاق. ليس كما يروق لنا أن نعتقد..
نتائجه اللاحقة نادرة حتما، نادرة حد الإعجاز..
لكن هذا الطفل، المتضور جوعا وعطشا، ليس نادرا في عالم فقد رشده، وامتلأ بالظلم والقهر وتجاور فيه الموت من أمراض السمنة مع الموت من أمراض الجوع..
لا..
هذا الطفل وبكاؤه ليسا نادرين بتاتا..
لكن ما حدث بعدها كان مختلفا عما يحدث في العادة مع هذا البكاء..

** * * * **

لماذا هاجر وحدها في هذا المشهد، هي ورضيعها، والله جل وعلا..
لماذا اختار الله هذا الترتيب ليكون ضمن شعائر الحج..
لا بد أن هناك سبباً ما..
أبعد من مجرد ما سبق..
على أهميته!

** * * * **

في السعي، ثمة امرأة تركض من أجل وليدها..
مشاعرها هنا، في تلك الساعات الصعبة، تمثل أقوى ما يمكن لامرأة أن تبذله من مشاعر..
لا.
مشاعرها هنا.. شغفها.. ركضها بين جبلين. لوعتها.. كل هذا، هو أقوى ما يمكن لإنسان، ذكرا كان أو أنثى، أن يشعر به.. أن يتمسك به..
مشاعر الأمومة تلك، هي التي وضعها الله، بقوانينه وسننه، في الأنثى، لكي تكون

هذه المشاعر، وسيلة في بقاء النوع الذي تنتمي له هذه الأنثى..
بعبارة أخرى، لولا أن الأنثى، لديها هذه الأمومة الطاغية، ليس في بني البشر فقط بل في كل المخلوقات، لولا هذه المشاعر التي تجعلها حريصة على سلامة (طفلها) أكثر من حرصها على نفسها، **لما كان يمكن للنوع الذي تنتمي له، أن يستمر، كان سينقرض حتما..**
كل المخلوقات تولد ضعيفة، هشة، غير قادرة على الاستمرار في البقاء على قيد الحياة لولا حماية الأم..
والأم تفعل ذلك. لا. لا تفعله فقط. بل تكرس نفسها من أجل ذلك. تتغير كل حياتها لتتمحور حول ذلك. يحدث ذلك دون وعي تقريبا بالأمر. بدافع أقرب للفطرة والغريزة منه إلى أي شيء آخر. تتنازل الأم عن حياتها، اهتماماتها، أولوياتها، كل ما كان مهما قبل أن تكون أما.. لتختصر حياتها في حماية ورعاية هذا المخلوق، هذا الكائن الذي يحتاج إلى هذا النوع من الرعاية لكي يستمر بالحياة..
لولا الأمومة.. لما كان يمكن للحياة أن تستمر على هذا الكوكب..
الأمومة.. واستمرار الحياة.
ونحن هنا أمام مشهد مقطر، مركز، **للأمومة وهي تصارع من أجل الاستمرار بالحياة..**

** * * * **

ليس السعي بين الصفا والمروة عن طفل صغير يكاد يموت جوعا..
بل هو عن هذه المشاعر القوية لأمه، لكي تحميه وتنقذه..
عن شغفها به.. عن حمايتها له.. عن بذلها كل ما تستطيع.. بأقصى ما تستطيع.. عن الحد الأقصى من إمكانية البذل.. عن عطاء الأمهات المجاني المضمون الذي لا يفكر بالمقابل..
هاجر، في السعي بين الصفا والمروة، كانت كل ذلك..
وعندما تسعى أنت، بين الصفا والمروة، على خطا هاجر، في درب الرواح والمجيء اللاهث اللهفان.. فإنك تتمثل هذه اللهفة، هذا الحرص، تتمثل الشغف، انفطار قلبها على رضيعها، تناسيها خوفها على نفسها، والخطر ذاته محدق بها، من أجل أن تحميه هو.. هذا الشغف الذي لا يفسر.. هذا الشغف الذي شاهدناه جميعا، والذي نحِنُّ إليه كما نحِنُّ إلى أكثر ما مررنا به أمانا..

هذا الشغف الذي لا يفسر بسهولة، لكن لا يمكن إنكاره إلا بصعوبة، هو ما نتمثله في السعي بين الصفا والمروة..

نريد الشغف ذاته.. اللهفة ذاتها.. القلق والأمل ذاتهما..

لكن ليس على الصبي ذاته..

ليس على أي صبي بالإطلاق!

هذه المرة الشغف موجه نحو شيء آخر تماما..

** * * * **

لن تكون مؤمنا حقا، إلا **عندما تتعامل مع دينك كما تتعامل مع ابنك وهو يكاد يحتضر**، وهو يموت لو لم تقم بإنقاذه..

لن تكون مؤمنا حقا، مؤمنا حقا بمعنى أكبر وأعمق من مجرد التصديق، إلا إذا أحببت دينك وحرصت عليه ودافعت عنه حرصك على ابنك الذي يكاد يحتضر ويحتاج إلى دواء أو علاج عاجل..

السعي هو عن هذا، تهرول بين الصفا والمروة لتتذكر ما فعلته هاجر، لتسترد هذا الموقف، هذه المشاعر الجامحة، هذه الرغبة في أن تجد حلا، دواء، إنقاذا..

السعي هو أن تعمل لدينك، لتكون ما أمرك به ربك، لتتشكل على النحو الذي أمرك، بنفس الشغف واللهفة اللذين ستملكهما نحو طفلك الذي يكاد يفطر قلبك بصراخه ألما أو عطشا أو جوعا..

السعي هو أن تملك شغف هاجر، وتوجهه إلى هذا الذي جعلها هنا في قلب الصحراء..

بناء البيت..

أن توجهه نحو البناء، على القواعد، على الأسس..

أن توجهه نحو رفع البناء.. نحو عملية البناء المستمرة..

التي سيكون هذا الصبي، الذي سعت من أجل إنقاذه هاجر، جزءا أساسيا فيها..

** * * * **

لعلك أيضا تسعى من أجل صبي، يكاد يحتضر..

يصرخ بصوت ضعيف، يكاد لا يسمع..

هذا الصبي المحتضر، عليك أن تسعى، سبع مرات، في رمز لرحلة حياتك كلها، لأجل أن تجد ما ينقذه.. لأجل أن تحميه من أن يصمت تماما..

تسأل عن هذا الصبي؟ من؟ وأين؟

هذا الصبي هو أنت.. أنت عندما كنت طفلا.. كنت أقرب إلى ما خلقك الله لأجله.. على فطرتك..
هذا الصبي هو كل ما كان يمكن أن تكونه..
كل الإمكانات الكامنة التي هدرتها مع الوقت..مكتبة الرمحي أحمد
لم يفت الوقت تماما..
في السعي تدرك ذلك.. **لم يمت بعد..**
لكن عليك أن تسرع كي تلحقه..

** * * * **

وفي رحلة الحياة، ستكون ثمة مناطق أصعب من سواها، عليك أن تشد وتهرول فيها، عليك أن تواجه الصعود الصعب، والمنحدر الخطر..
في كل شوط من أشواط السعي، سيكون هناك إسراع ما، هرولة، في بطن الوادي [٧٢]، تذكرك بحقيقة أن عليك أن تواجه كل صعوبة ناشئة بما تستحقه هذه الصعوبة..
المهم أن لا يتوقف السعي.. وأن لا يبطئ أيضا..

** * * * **

..لا.
السعي لا يتوقف أبدا..
قال عليه الصلاة والسلام عندما بدأ السعي: **«اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»** [٧٣]
السعي مكتوب..لا فكاك منه.. بل هو عملية تكاد تكون لا إرادية..
لكن التحدي في السعي، هو مجاله ومضماره.. فيم سيكون سعيك؟ في أي اتجاه؟ ضمن أي حدود؟ ومن أي منطلقات؟ وبأي أهداف؟
السعي مستمر.. لكن المهم أن يكون سعيا مثمرا، ينقذ ذاك الصبي المشرف على الموت..
المهم أن يأخذ شغف السعي.. نحو الاتجاه الصحيح، الذي يتجاوز مشاكل الفرد، مشاكل الأنا، نحو الـ (نحن).. نحو جعل هذه الـ (نحن) جديرة بما خلقها الله من أجله..

** * * * **

٧٢ بطن الوادي بين الصفا والمروة، هي المنطقة المحددة بالعلمين الأخضرين في السعي، وكانت واديا واضح المعالم حتى سويت في العقود الأخيرة، وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يسرع فيها، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه رمل في بطن الوادي حتى إذا صعد مشى حتى أتى المروة. صحيح ابو داود ١٦٧٦
٧٣ السلسلة الصحيحة ١٠٧٢

... من بين كل الشعائر، فإن شعيرة الصفا والمروة، قد حددت بأنها من «شعائر الله»...

«إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» (البقرة: ١٥٨)

مجرد ذكر وتأكيد ذلك، يحسم كل جدل يمكن أن يستثمر في «لا جناح عليه أن يطوف بهما».. والتي قد يحاول البعض فهمها بأن الأمر (مندوب) و(مستحب)..

إنها من شعائر الله.. وبعض الأركان الأخرى لم تذكر أصلا في القرآن.. فكيف بما ذكر بهذا الوضوح..

** * * * **

والشعيرة هي العلامة..

والمعنى هنا شديد الوضوح لدرجة الدهشة والسطوع..

أن تكون الشعيرة علامة على دربك..

أن تكون الشعيرة علامة على طريق خلاصك..

أن تكون الشعيرة.. علامة على درب تخلقك وتشكلك.. علامة على درب دخولك في «الخلق الآخر» - الإرادي - من أطوار خلقك.. تبارك الله أحسن الخالقين..

الشعائر، علامة على دربك نحو ما أراده الله لك..

والصفا والمروة، هما علامتان حتما على ذلك..

** * * * **

الصفا هو الحجر الأملس الذي لا ينبت عليه شيء[٧٤].

والمروة هو الحجر الأبيض الذي تقدح منه النار ويستعمل لصنع أدوات الذبح[٧٥].

ليس صدفة أبدا، هذا الانتقال، في شعيرة من شعائر الله، من صخر أملس لا ينبت عليه شيء، إلى الصخر الذي يستخدم لقدح النار، ولصنع الأدوات الحادة.

الشعيرة علامة؟

نعم هي كذلك، **وهنا نجد الصفا والمروة يمثلان ما كان علامة من علامات التطور في تاريخ البشرية..** علامة هامة على درب استخدام وتسخير ما في الأرض لصالح خدمة الإنسان..

كان استخدام الحجر ليكون أداة قطع، قفزة مهمة للبشرية في درب تطورها.. به

---

٧٤ لسان العرب مادة صفا

٧٥ لسان العرب مادة مرا

انتقلت من عصر الرعي إلى عصر الزراعة.. وعبره تمكنت من تدجين الحيوانات، وأنسنتها واستثمار منتجاتها..

كان اكتشاف النار، علامة فاصلة غيرت حياة البشر.. بالنار تمكن الإنسان من طهي طعامه، وكان قبلها يأكل ثمار الأشجار، وبالنار حصل على التدفئة.. وحصل على الحماية من الحيوانات المفترسة التي فرت من النار..

كانت هذه الفوائد على السطح فقط، والحقيقة أن اكتشاف النار والسيطرة عليها، قد غير تاريخ الإنسانية تماما، إذ أنه فتح الباب أمام سلسلة أخرى من الاكتشافات والاستخدامات..

النار مكنّت الإنسان من فخر الطين وصبه، وبالتالي السكن في بيوت بدلا من الكهوف التي كان يسكنها من قبل.. أولى تجمعات الإنسان الحضرية، على بدائيتها، أولى بوادر الإنسان (المنزلي) ولدت في هذه المرحلة وبسبب اكتشاف النار..

اكتشاف النار مكن الإنسان من استخراج الحديد من خامه، وكان ذلك خطوة مهمة أخرى نقلت الإنسان من العصر الحجري إلى العصر الحديدي.. كل ما تراكم لاحقا من منجزات كان يتراكم ويتأسس على ما اكتشفه الإنسان في هذه المرحلة..

ليس عبثا أن يكون الصفا حجرا أملسَ لا ينبت..

وتكون المروة حجرا تقدح منه النار، ويستخدم للقطع وللذبح..

ليس عبثا.. حاشا لله أن يكون في شعائره ما لم يوجد دون حكمة أو هدف..

لكنك في السعي تنتقل من الصفا، الحجر الأملس، إلى الحجر الذي أمكن للبشرية أن تقفز قفزاتها العملاقة عبر استثماره..

ليس هذا عبثا..

بل هو تمثيل لرحلة حياتك كما يجب أن تكون، أن تبحث عن ما ينفع الرحلة ولو في الصخر، ولو في الحجر، ما قد يبدو بلا نفع في البداية، قد يفتح الباب نحو ما لا يمكن تخيله من منافع..

هل يعني هذا أن الحجر الأملس، الذي لا ينبت، لا ينفع؟

لا. قطعا. وإن بدا كذلك أولا..

لكن الحجر الأملس، يمكن أن يلتف عليه بعد الذهاب إلى حجر القطع والنار، ويصير هو الآخر، بعد استخدام ما أنتجه الحجر الأبيض، موردا لا يمكن الاستغناء عنه في رحلة البناء..

أحمد

هذا الصخر الأملس الذي لا ينبت، سيساهم في البناء، حجره سيعلي البناء (حرفيا)..
بيوت الطين، التي لم تبن إلا عبر الصخر الأبيض قادح النار، ستصبح بيوتا أكثر استقرارا ومتانة.. مبنية من صخر يصمد أمام المزيد من قوى الطبيعة..
لكن ذلك كله ما كان يمكن أن يحدث لولا الارتباط مع الصخر الأبيض، قادح النار والأداة القاطعة..
التحام الأمرين، هو ما سينتج ذلك..
إنه السعي بين الصفا والمروة..
السعي الذي سيجلب الأدوات والوسائل..
سنتذكر هنا ما قاله عليه الصلاة والسلام، **«اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»..**
ستتذكر قوله هذا، وسترى معنى جديدا في السعي، وفيما كتبه الله علينا، وفيما أنجزته البشرية..

** * * * **

لكن هذا سيقودنا حتما إلى سؤال آخر..
هل كانت الوسائل والأدوات، التي أنتجها سعي البشر، لخدمة الإنسان؟ أم أنها استخدمت أيضا لغير صالحه؟
ألم تستخدم النار للحرق والتعذيب؟
ألم تستخدم أدوات القطع لتعذيب البشر وقتلهم وذبحهم؟
ألم يكن هذا السؤال قائما في كل أداة أنتجها البشر، كل وسيلة تمكنوا من الهيمنة عليها، وأساءوا استخدامها؟
ألم يحدث الأمر مع التراكم البشري من المنجزات في مجمله، والذي استخدم في أحيان كثيرة ليحتكر الثروة عند ملأ ما، بنسبة معينة..
ألم ينته الأمر في كثير من الأحيان، وصبي ما يكاد يموت عطشا وجوعا.. لا يقوى حتى على الصراخ..
بينما آخرون يموتون بسبب أمراض السمنة؟

** * * * **

لهذا بالضبط، ولمنع انحراف الوسائل عن الغايات، الوسائل الناتجة عن السعي بين الصفا والمروة، لهذا، **نقف عند كل منهما، كل مرة، نرتقيهما، ونتوجه إلى الكعبة، إلى القبلة، إلى ميزان الثوابت والمعايير..**

في كل وسيلة يصلها البشر.. **تقول لنا شعائر السعي، التي هي علامات على الدرب، تقول لنا أن نعرض استخدامها على (كتيب الاستعمال) الحقيقي الخاص بكل الوسائل، أن نعرض الاستخدام ونتائجه على معاييرنا وثوابتنا ومقاصدنا..**
لكل وسيلة كتيبان للاستعمال.. وليس كتيب واحد كما نتوهم..
الكتيب الثاني هو ذاك الذي يأتي مع الوسيلة، ويرشدك إلى تقنياتها..
أما الكتيب الأول **فهو يسبق الوسيلة، ويهيمن عليها..**
يرشدك إلى أن **تكون الوسيلة وسيلة عندك.. لتحقيق ما يلزم تحقيقه أو تيسير ذلك على الأقل..**
لا أن تصبح وسيلة عندها..

** * * * **

ولهذا أيضا جاءت صيغة الدعاء والذكر التي تقال عند ارتقاء الصفا والمروة لتكرس ما سبق.. كما لو كان الدعاء هنا إعلانا لثوابت العقيدة كلها..
نقرأ أولا قوله تعالى: «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم». ونقول: «نبدأ بما بدأ الله به»[٧٦].
مجرد ربط الأمر بكونه شعائر لله، سيجعل الأمر في بعد ثان، على الأقل عندما يكون ثمة وعي بما يمثله (الصفا) وما تمثله (المروة).. وما تعنيه الشعائر من كونها علامات على درب عبوديتنا لله عز وجل..
ثم يبدأ بالصفا فيرتقي عليه حتى يرى الكعبة[٧٧].
فيستقبل الكعبة فيوحد الله ويكبره فيقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر (ثلاثا)..
لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. يقول ذلك ثلاث مرات ويدعو..
أن ترى الكعبة، وأنت على الصفا، أن تستقبلها وأنت عليه..
أنت تعلن، وأنت على الصفا، خضوع كل ما سينتج عن هذا السعي، خضوع السعي ذاته، لهذه القبلة، لثوابتها، للبناء المستمر في الإنجاز..
الله أكبر، ثلاثا، من كل تلك الوسائل التي انحرفت عن الغايات، من كل المدنيات

---
٧٦ صحيح ابو داود ١٦٧٦
٧٧ إرواء الغليل ١٠١٧ وصححه الألباني.. «بدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت»

الشاهقة التي استغلت الوسائل، في غير ما يجب أن تكون له.. مهما بدت شاهقة، مهما استغلت..

مهما بدت، لوهلة من الزمن، قد تستمر عقودا طويلة، أنها قد احتكرت التاريخ..

الله أكبر أيضا من الكسل عن السعي، من عدم الوصول إلى الوسائل، من عدم استكشاف هذه الوسائل.. من الكسل عن ربطها بالغايات..

الله أكبر، وهذا التكبير هو الذي يجعلنا نسعى على نحو صائب.. سنسعى في درب حياتنا بكل الأحوال، لكن المهم أن يكون سعينا على النحو الذي يرتضيه الله لنا..

بعض البشر يسعون في الدرب الخطأ.. يسعون عكس الاتجاه.. يسعون بحيث يراوحون في أماكنهم.. أو يرجعون القهقرى.. أو يتخذون طريقا منحرفا..

الله أكبر، ثلاثا..

** * * * **

ذلك التوحيد الذي ستعلنه وأنت على رأس الصفا، بالصيغة التي تربطه بالحياة والموت والقدرة اللامتناهية **(يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير)**، سيجعلك في موضع يقترب من (هاجر)، التي تركت ابنها وهو بين الموت والحياة، ثم وهبها الله أكثر من مجرد الحياة لرضيعها، بل منحها بقدرته عز وجل، ما جعل من سعيها ذاك شعائر يؤديها الملايين من المسلمين..

ثم صيغة توحيد أخرى يلحقها **«أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»..**

هنا تجد النهاية القصوى لما مرت به هاجر: فتح مكة.. لقد ركضت من أجل صبيها هنا في هذه الأرض القاحلة..

وكان من نتائج قدرة الله أن تصبح هذه البقعة قبلة للعالمين، أن يؤمها الملايين، **أن ينجز الوعد بأكثر مما توقع أي أحد..**

يضعك ما تقول هنا، وأنت على الصفا، بين حالتين:

حالة أم إسماعيل وهي تهرول من أجل رشفة ماء لصغيرها..

وبين حالة الفتح، حالة النصر الكامل الكاسح..

المشهدان يتكاملان..

لا يمكن لك أن تصل إلى هذا النصر الكامل المبين.. دون أن تمر أولا بالسعي الذي مرت به أم إسماعيل.. بذلك الجهد والشغف والقلق الذي مرت به..

نعم.. أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..

ولكن عبده الذي نصره، لم ينتظر النصر ليهبط عليه من السماء، بل أنجز ما عليه، سعى ليصل إلى استحقاق النصر، ثم جاء ما استحقه رغم تفوق (الأحزاب) في الكثير من النواحي عليه..

نصر عبده.. ستقول في دعائك..

عبده لم ينتصر منفردا، بل انتصر ومعه جحافل المسلمين..

لكن التأكيد على (**عبده**) هنا، على كونه كان منفردا، تذكير بأن كل الأمور الكبيرة، كل المنجزات العظيمة، تبدأ من فرد واحد.. مرة إبراهيم.. مرة هاجر.. مرة محمد عليه الصلاة والسلام..

كلهم كانوا أفرادا.. **كلهم بدا في مرحلة معينة أن نجاحهم مستحيل.. أن (نجوم السماء أقرب لهم)..**

لكنهم، بالتدريج (امتلكوا) الأدوات والوسائل التي جعلت من الأرض كلها تقترب من نجوم السماء.. جعلت من دعوتهم تخرج عن نطاق الأفراد والجماعات الصغيرة لتمثل الإنسانية جمعاء..

تمثل الإنسان كما أراده الله أن يكون..

** * * * **

السعي، بين الصفا والمروة، الوصول إلى الوسائل والأدوات، ولكن الوصول إليها لتحقيق غايات ربانية، لتحقيق معنى وجود الإنسان في هذه الأرض، لا لتحقيق قسم الشيطان **«فبعزتك لأغوينهم أجمعين»..**

إنه حوار الوسائل والغايات..

بعبارة أخرى: الوسائل وأخلاقيات الاستخدام..

وبعبارة أخرى: الوسيلة والفضيلة..!

** * * * **

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٧٨].

الدعاء مشهور، بعد الأذان..

---

٧٨ صحيح البخاري ٤٧١٩

وقد قال عليه الصلاة والسلام عن الوسيلة «**إِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِى الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ**»[٧٩].

لكن معاني الجنة والآخرة، لا تتناقض مع وجود امتدادات دنيوية لها، قال ابن عباس (**ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء**)[٨٠]، وهذا يعني أن الوسيلة قد تعني شيئا في الدنيا، وتعني سواه في الآخرة، والوسيلة قد استخدمت فعلا في سياقين قرآنيين مختلفين

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (المائدة: ٣٥)

«أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» (الإسراء: ٥٧)

وهما سياقان يبدو أنهما (دنيويان)..

والوسيلة في لسان العرب، هي ما يتوسل (يتوصل) به لغيره.. بالضبط كما معناها في الاستعمال اليومي..

والوسيلة هي المقام المحمود في الآخرة حتما ما دام الصادق الأمين قد قال ذلك..

لكن هذا لا ينفي أن هذه الوسيلة، ما دامت قد وردت في القرآن في سياق دنيوي، تملك معاني أخرى، لا تشبه ما هو في الآخرة إلا في الاسم كما قال ابن عباس..

تشابه الأسماء هذا، يحمل تشابها أعمق، يرتبط ارتباط السبب والنتيجة..

والحصول على (الوسيلة) في الدنيا، قد يؤدي إلى الاقتراب من ذلك المقام المحمود الذي لن يناله غير الصادق الأمين..

الحصول على الأدوات والوسائل، واستخدامها على النحو الأمثل، بالطريقة الأمثل، وللهدف الأمثل، سيقرب حتما من ذلك المقام المحمود، الذي اسمه الوسيلة أيضا في الآخرة..

ليس الوسيلة فقط..

لم نسأله عز وجل بعد الآذان أن يأتي محمدا الوسيلة فقط.. ولو كنا نسأل الوسيلة فحسب لربما لم يكن هناك معنى في أن يكون هناك امتداد (دنيوي) للدعاء..

لكن الدعاء يقول (**الوسيلة والفضيلة**).. والرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدد (معنى آخروي) للفضيلة، كما فعل مع الوسيلة، وهذا يستلزم أن يكون هناك معنى

---

٧٩ صحيح مسلم ٤٧٢٢

٨٠ السلسلة الصحيحة ٢١٨٨

دنيوي للوسيلة ليترافق مع الفضيلة..
الوسيلة والفضائل.
الأدوات والوسائل وأخلاقيات استعمالها..
أن لا تستخدم الوسائل للظلم. أن لا تستثمر في السنن وتسخرها لتكرس كل ما هو غير عادل في أنظمة البشر..
أن لا تستخدم الكهرباء للتعذيب.. بل لنشر النور..
أن لا تستخدم النار لحرق إلا ما يستحق الحرق..
أن ترصد الطاقة لأجل البناء.. لا لأجل الإفساد في الأرض..
بعد كل نداء للصلاة نقول: **آت محمدا الوسيلة والفضيلة.. هو وأتباعه عليه الصلاة والسلام.**
الوسيلة ليصلوا إلى ما لن يحققوا الهدف من وجودهم ما لم يصلوا إليه..
والفضيلة كي تحفظ الوسيلة من أن تنحرف فتحقق قسم إبليس، ومخاوف الملائكة..
إنه السعي بين الصفا والمروة، والاتجاه إلى القبلة، في كل مرة تصعد فيها إلى أي منهما..

** * * * **

حياتنا رحيل مستمر بين ثنائيات..
قد يعتبرها البعض (متضادات).. وقد تكون كذلك أحيانا فعلا..
لكن الكثير من هذه المتضادات هي ثنائيات، كل منها يكمل الآخر..
لن يمكنك حقا أن تعرف هذا إلا عندما تنتقل من الواحد إلى الآخر.. إلا عندما تسعى بينهما..
حياتنا رحيل مستمر، بين ثنائيات مختلفة..
ثنائيات يمكن أن تمزقك، أن تشتتك، ولكن يمكن أيضا أن تقويك وتجعلك أفضل..
ما كنا سنعرف الأمل لولا اليأس.. ولا قدرنا النور حق قدره لولا الظلام.. ولا الليل لولا النهار..
ما كنا سنعرف مميزات المرأة إلا فقدانها عند الرجل، وما كنا سندرك صفات الرجل إلا بعدم وجودها عند المرأة..
ما كنا سنفهم الصحة لولا المرض، والخير لولا الشر، والكفر لولا الإيمان، والخطيئة لولا الشريعة..

ما كنا سنفهم الحياة، لولا الموت الذي يترصدنا جميعا..
ثنائيات الحياة هي جزء من ثوابت الحياة.. من حقائقها..
المهم أن لا تشتتنا، أن لا نرتبط بها..
بل نرتقيها..
بالضبط كما نرتقي الصفا والمروة.. ونتجه إلى الكعبة..
أي أن نسخر تلك الثنائيات، لتكون، كما (الوسيلة) مسخرة لنا، لا أن نكون مسخرين لها..
وأن نتجه بها، إلى القبلة..

** * * * **

ذلك الصبي، هل تسمع صوته؟

إنه في أعماقك.. إنه أنت.. ربما صوته لم يعد عاليا لأنه يكاد يموت.. وصوت المحتضرين لا يكون عاليا، نظراتهم هي التي تكون كذلك..
ذلك الصبي، لا يزال ينتظر سعيك، لا يزال ينتظرك أن تأتي بما تبحث عنه بين الصفا والمروة..

لا زال ينتظر.. زمزم!

زمزم.. (إكسير الحياة)..

«وجعلنا من الماء كل شيء حي» (الأنبياء: ٣٠)

الماء أصل كل حياة.. خلقه الله ليقوم بهذا الدور الرئيسي في كل حياة، ليدخل في تركيب كل جزيئة حية..

نعرف أهمية الماء للحياة في كل حين.. نعرفها من الناحية البيولوجية الإحيائية، التي تنفي إمكانية وجود حياة دون ماء..

ونعرفها أيضا في حياتنا اليومية، حيث نحتاج إلى الماء لنبقى على قيد الحياة..

بديهة لا جدال فيها..

الماء أصل كل حياة..

** * * * **

الصبي يكاد يموت جوعا وعطشا..

يحتاج إلى الماء..

ليس مباشرة..

فهو يحتاج إلى الحليب من صدر أمه، وأمه تحتاج إلى الماء..

مرة أخرى: الماء أصل كل حياة..

في العلوم، في الحياة اليومية..

وأيضا في الشعائر..

** * * * **

لكن زمزم، أكثر من ذلك..

هو ذلك حتما. لكنه أكثر من ذلك أيضا..

إنه ليس مجرد ماء عادي.. تتكون كل جزيئة فيه من ذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين..

لا. هو هذا حتما..

لكنه أيضا المزيد..

** * * * **

الماء الذي هو ذرتا هيدروجين وذرة أوكسجين يمثل الحياة المادية.. حياة التنفس. الأكل. الهضم. الأيض..

لكن الحياة أعمق من هذا.. الحياة تشمل الجانب المادي، ولكنها أيضا تشمل المزيد.. المزيد الذي لا يتعارض مع الجانب المادي، ولكنه في الوقت نفسه يجد أبعادا أعمق تعطي معنى الحياة الحقيقية..

«أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (الأنعام: ١٢٢)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» (الأنفال: ٢٤)

الموت درجات.. أسهلها هو الموت البيولوجي..

والحياة أيضا درجات، أسهلها هو الحياة البيولوجية

ولكن ثمة موت آخر. وثمة حياة أخرى..

حياة أخرى، أبعد من مجرد (العيش).. تكون فيها كما أرادك الله أن تكون..

وموت آخر، تستمر فيه في التنفس والهضم، لكنك كففت عن أن تكون ما يريده الله منك.. ربما لم تبدأ أصلا..

نعم.. ثمة حياة أخرى.. وموت آخر..

** * * * **

ماء زمزم لا يمثل الماء الذي هو أصل كل شيء حي بالمعنى المادي فحسب..

بل هو يمثل أيضا الحياة الأعمق، الحياة بأبعادها الأخرى، التي تحقق للإنسان هدف وجوده.. الحياة التي يكون فيها (خليفة في الأرض) كما أراد له الله أن يكون..

إسماعيل لم يرتو بماء زمزم وينج مما نسميه بالموت المحقق فقط ليعيش حياة ببعد واحد، حياة بيولوجية ليأكل ويشرب ويتناسل فيها..

لا..

حياته كانت حياة حقيقية، بأبعادها القصوى..

وزمزم كان مفتاح الدخول لها..

** * * * **

ماء زمزم هو رمز لأصل كل ما هو حي حقا.. حي كما يريده الله أن يكون..

إنه رمز لما يدعونا الرسول إليه، ليحيينا..

إنه ما يحيينا به ومن خلاله عز وجل..

كما ينزل الله الماء من السحاب فيحيي به الأرض الميتة..

كذلك ينزل الشريعة، الوحي، ليحيي بها الإنسان الميت.. المجتمع الميت.. البلد الميت..

ماء زمزم لا يمثل ماء المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها..

هو أكثر من هذا..

إنه يمثل ما تحيا به النفوس والقلوب والعقول..

ما يحيا به الإنسان في البعد الأعمق للحياة..

زمزم، رمز للشريعة التي جاء بها الوحي..

التي تصلح الإنسان، ومجتمعه..

بعبارة أخرى: تحييه!

** * * * **

الشريعة جاء بها جبريل..

وبالتوازي مع هذا، كان لجبريل علاقة ما بزمزم..

«... فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا ، حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا ، ثُمَّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ . فَإِذَا جِبْرِيلُ ، قَالَ فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا ، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الأَرْضِ ، قَالَ فَانْبَثَقَ الْمَاءُ ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ...»[٨١].

جبريل هو الذي حدد موقع ما سيكون لاحقا بئر زمزم..

لا يمكن أن يكون هذا صدفة..

زمزم هو رمز لهذه الشريعة..

كما الماء أصل كل شيء حي..

فالشريعة، هي جوهر الحياة الحقيقية..

هي، زمزم..

الذي لولاه، لمات ذلك الرضيع في الصحراء..

** * * * **

لا يمكن أن ننسى ونحن نرتشف زمزم، ارتباطه بحادثة أخرى..

عن أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِى وَأَنَا

٨١ صحيح البخاري ٣٣٦٥

بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِى، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ[٨٢]**...**

جبريل غسل قلبه عليه الصلاة والسلام به!

كيف يمكن أن نواجه قطرات ما اغتسل بها قلبه عليه الصلاة والسلام، بغض النظر عن الكيفية التي حدث فيها هذا الغسل؟

لا يمكن أن نهرب من ذلك..

هذا الماء دخل قلبه.. ربما ليست القطرات ذاتها.. لكن من النبع ذاته.. من المصدر ذاته..

هذا التفاعل بين الماء وقلبه عليه الصلاة والسلام، يزيد من تعلقنا بالماء، بكل ما يحتويه ويمثله من معان..

ذرتان هيدروجين وذرة أوكسجين؟

من الناحية التحليلية المخبرية نعم..

لكنه يمثل **(الأوكسجين) بالنسبة للحياة الحقيقية**.. يمثل كل العناصر التي نحتاجها، إنه رمز لإرادة الحياة فينا، إرادة العمل والإيمان..

لن نفهم قط، أيهما زاد شرفا وطهارة عندما حدث هذا التفاعل بين زمزم وبين قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام..

كل ما نعرفه أن هذا الماء، قد تجاوز يوما ما عروقه، ودخل قلبه..

وأنك تملك الخيار أن تتذكر ذلك، وأنت تشرب هذا الماء، بين الطواف والسعي، أو أثناء السعي..

تعرف أن قلبك لن يكون كقلبه يوما ما..

لكنك تريد من زمزم، زمزم التاريخ الطويل، زمزم الماء العريق، أن ينظف قلبك أيضا..

أن تبدأ به، كما بدأ عليه الصلاة رحلة إسرائه. تبدأ مسراك من ليلك الطويل إلى غد أكثر إشراقا..

أكثر وضوحا.. أكثر إثمارا..

** * * * **

---

٨٢ صحيح البخاري ٣٤٩

كيف يمكن لهذه المعاني أن تتسق وتجد لها مكانا بين ما شاع عند الناس عن شفاء زمزم للمرضى واستخدامهم ذلك وتبادلهم قنانيه على هذا الأساس..
الحديث الذي يعتمدون عليه في هذا وهو حديث ابن عباس **«ماء زمزم لما شرب له إن شربته تستشفي به شفاك الله وإن شربته يشبعك أشبعك الله به وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله وهي هزمة جبريل وسقيا إسماعيل»**[٨٣] هو حديث باطل موضوع لذا لا يمكن الاعتماد عليه ولا داعي لمناقشته أصلا..
ولكن صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه **«كان يحمل ماء زمزم في الأداوى والقرب وكان يصب على المرضى ويسقيهم»**[٨٤]
كما صح عنه أنه قال **«ماء زمزم لما شرب له»** [٨٥]**...**
ما الذي يعنيه هذا هنا؟..
هل يعني هذا وجود تركيبة مادية معينة في جزئيات ماء زمزم؟
لم يثبت هذا عمليا. رغم أن المنتديات على الشبكة ستستسهل القول إن (دراسات علمية) أثبتت غير ذلك..
ببساطة لم يحدث حتى الآن..
وربما ليس هناك من داع أصلا للذهاب إلى (المخبر) للتأكد من صحة حديثه عليه الصلاة والسلام.. زمزم ليس عن الحياة المادية بمعناها الضيق.. لهذا فتحليل زمزم ماديا لن يجدي كثيرا..
زمزم هو عن تلك الحياة الأخرى.. الحياة بأبعادها الأعمق..
فلماذا إذن يُسقى للمرضى؟
لأنه ببساطة، **عندما تؤمن بما يمثله، فإن إرادة الحياة فيك تصبح أقوى..** وعندما تصبح إرادة الحياة أقوى، فإن جهازك المناعي، سيتعامل مع أمراضك (الجسمية) على نحو أكثر فاعلية وقوة..

«زمزم لما شرب له»..

الحديث صحيح. لكننا فهمناه خطأ.. توسعنا في (نية) الشرب، حتى بدا أن من يريد أن ينجح في امتحان لم يحضر له جيدا، يمكنه أن ينجح إن نوى (النجاح) أثناء شربه لزمزم!..

---
٨٣ إرواء الغليل ١١٢٦
٨٤ السلسلة الصحيحة ٨٨٣
٨٥ إرواء الغليل ١١٢٣ وصححه الألباني.

ليس في الحديث أي إشارة لهذا.. أو لأي ما هو قريب من هذا..
الماء يشرب عادة لسد العطش أو الشبع..
وماء زمزم شرب، بداية، لأجل هذا الذي حدث لاحقا.. لأجل أن يستمر الرضيع في حياة تتجاوز السطح إلى الأعمق.. ويساهم في البناء.. ثم كان ذلك الماء، بمثابة نقطة تجمع عليها الناس.. بني عليها المجتمع..
ماء زمزم لما شرب له..
يمكنك أن تسد عطشك وظمأك..
ويمكنك أن تستذكر التاريخ بأكمله..
ويمكنك أيضا أن تأخذ قلبك.. وترميه في زمزم..!!

** * * * **

لا يمكن أن نتجاهل هنا، ما ورد في صحيح البخاري، من أن زمزم، صار علامة على وجود الحياة في هذه البقعة، وأنه جمع الناس بالتدريج في هذه البقعة..
الطير، كان هو العلامة التي دلت الناس من بعيد على الماء..

«... فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِبَطْنِ الْوَادِي، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ، وَقَالُوا مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلاَّ عَلَى مَاء. فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ، فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ فَأَتَوْا إِلَيْهَا، فَقَالُوا يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ أَوْ نَسْكُنَ مَعَكِ..»[٨٦].

طير إذن، يحوم حول الماء، كان علامة البشارة..
تذكرون النورس في قصة نوح، حسبما وردت في الكتب السابقة؟
النورس حمل علامة اليابسة.. الوصول إلى البر..
هنا، الطير هو علامة الوصول إلى الماء، في وسط الصحراء القاحلة..
في قصة نوح الماء هو العقوبة..
هنا الماء هو الحياة..
بطريقة، كل ما يمثله زمزم، أي الشريعة، سيكون هو السفينة..
هذه المرة، للبشرية جمعاء..

** * * * **

٨٦ صحيح البخاري ٣٣٦٥

بحثت حضارات كثيرة عن (إكسير الخلود)..

لم يشغل المسلمون أنفسهم بذلك..

لديهم زمزم..

معنى الحياة الحقيقية، القصيرة ربما ، لكنها تعبد الدرب، من خلال ما ينجز فيها، إلى الخلود حقا..

منى: حيث الرحم المتسع..

عندما تذهب إلى منى، سيبدو لك أولا، أن لا شيء هناك لتفعله..

أعني ليس من شعائر خاصة بمنى..

ستتوجه إلى منى، تلقي برحالك هناك، ثم تنتظر (أو سيبدو لك أنك تنتظر) أن يأتي يوم الذهاب إلى عرفة..

ليس من شعائر محددة.. هكذا ستعتقد.. وربما ستتساءل..

لكن الحقيقة هي أن الشعيرة في منى، **هي أن (تعيش) مع نفسك، ومع الملايين** من حولك الذين سيكون لزاما عليهم أن يكونوا في الوقت نفسه..

مهما كانت ظروف حجك ميسرة، وبمعزل عن عدد (النجوم) التي ترفعها حملتك، ومهما كنت في ظروف مرفهة بالنسبة للآخرين.. فإنك ستكون في منى، مع جمع من الناس، تشترك معهم في حيز ضيق في نوم ومأكل و(قضاء حاجة).. حتى لو كنت تعرف البعض منهم قبلا من قبل، حتى لو كنت اتفقت معهم مسبقا على الحج، فإنك في الحج، ستتعرف على جانب آخر منهم، كما سيتعرفون على جانب آخر فيك.. أن تتعرف على أحدهم وتعرفه لسنين في الحياة اليومية، أمر مختلف تماما عن (التعايش) معه في حيز ضيق تشاركه فيه في كل شيء في أدق التفاصيل الشخصية..

الأمر موجود في الحج كله، لكنه في منى (أكثر كثافة).. في عرفة ومزدلفة لاحقا سيكون الوقت أقصر، وسيكون لكل امرئ شأن يغنيه.. لكنك في منى ستمارس حياتك، سيكون عليك تحمل شخيرهم وأصواتهم أثناء الأكل وتأخرهم أثناء قضاء الحاجة وتكرار ذلك، وسيكون عليهم تحمل ذلك أيضا..

في منى، ولأن عليك أن تبقى في منى، سيكون عليك أن تتحمل الآخرين، لا مجال هنا لأن يضيق صدرك منهم.. إن ضاق صدرك ستضيق الدنيا عليك.. **لا مفر من التعايش مع من لا تريد عادة التعايش معه.. لا مفر من أن تنسلخ من مزاجك الذي تشكل عبر حياتك وشكل حياتك بطريقة ما..**

لا مفر من أن تنسلخ من ذاتك القديمة هنا، تنسلخ من جلدك كما تتخلص السلحفاة من صدفتها، قد يبدو ذلك مخيفا لها، ولك -!- للوهلة الأولى.. لكن سرعان ما ستكتشف أن مخاوفك مجرد أوهام، وأن ما كنت تخشاه ليس سوى نمر من ورق..

التحدي الأكبر في منى هو أنت..
أن تتمسك بلاءات الحج الثلاثة، لا يمكن أن تثبت تمسكك بها، تمسكك بحالة الإحرام إن كنت منزويا، أو منكبا في أداء شعيرة كما في الطواف أو في السعي.. الاحتكاك بالعالم، بالناس هو المحك الحقيقي لالتزامك بالإحرام.. لا معنى للاءات الحج الثلاث إن لم تخالط الناس وإن لم يخالطوك.. هناك الامتحان الحقيقي والاختبار الحقيقي..
لذا ليس من شعائر بالمعنى التقليدي المتعارف عليه، الذي سيجبر مؤديها على عدم الحديث مع بعضهم بعضا..
لكن هنا قبولك للناس، هو الشعيرة..
تعودك عليهم.. تعايشك مع من قد لا ترغب بالتعايش معه في الأحوال العادية..
ليست هذه نسخة (شعائرية) من مفهوم قبول الآخر الذي يروج اليوم، أنت هنا تتقبل أشخاصا لا شك في وجود مشترك عقائدي معهم.. لا شك في أنهم يؤمنون بثوابت تؤمن أنت بها أيضا.. لذا فالتعايش مع ما يبدر منهم، مع ما هو طبيعي أن يبدر منهم كبشر، هو تعايش مع نفسك بطريقة أو بأخرى.. هو تقبل للنفس البشرية في عموم حالاتها..
في منى، **تتخلص من عاداتك السيئة في التأفف الزائد عن الحد من عادات الآخرين..**
في منى **تهزم الأنا التي في داخلك..** الأنا التي كانت دوما تمنعك من الذوبان في الـ (نحن)...
الأنا التي كنت تعتقد أنها أعز من أن تذوب في جموع الآخرين..
هي التي يجب أن تواجهها في منى..
لا الآخرين الذين كنت تتخوف منهم وتحمل هم تعايشهم..
منى ليست عنهم..
منى هي عنك أنت..
منى هي عنك أنت الذي يجب أن يتقبل الذوبان في الآخرين..

** * * * **

النفس البشرية، هي المحراب الذي تقدم فيه الشعائر في منى..
ليس المقصود نفس الفرد المنعزل في صومعة.. الذي يعتقد أن خلاصه يمكن أن يكون بمفرده
بل نفس الفرد المصر على العبادة في الهرج.. العبادة في وسط الزحام..

ليس المقصود العبادة بمعناها الضيق.. العبادة الشعائرية.. بل العبادة بمعناها الواسع..
اليوم، هنا في منى، تمارس هذا..
محراب النفس البشرية. في عملية ذوبانها في الآخرين..

** * * * **

علاقة الفرد بالجماعة **موجودة في كل أركان الحج**.. في الطواف، في السعي، في كل شعيرة، ما دامت تؤدى على نحو جماعي..
في منى، **علاقة الفرد بالجماعة هي محور الشعيرة**.. هي جوهرها..
هنا التحدي الأكبر.. أن تتمكن من أن تكون جزءا من هذه الجماعة.. **أن تكون إضافة لهذه الجماعة..**

** * * * **

قيل عن منى أنها سميت بهذا الاسم لسببين..
السبب الأول لكثرة ما يمنى فيها من دماء الأضاحي..
ربما لم يعد الذبح يدار هنا في منى.. ربما لم تعد ترى الدماء في منى..
لكن ثمة ذبيحة أخرى لا يمكن أن تذبح إلا هنا في منى..
ذبيحة أخرى، يجب أن يرهق دمها هنا في محراب النفس البشرية التي تذوب في الجموع في منى..
يمكنك أن تذبحها في أي مكان..
لكن هنا.. فرصة ذبحها أقوى.. ربما لأنك في الظروف العادية لا تنتبه إلى هذا الذي يجب أن تذبحه.. لا تنتبه لهذا الوحش الكاسر المتنكر بزي لطيف ظريف..
لكن هنا، في منى، لا يمكن لتنكره أن يخدعك.. لا تملك هذا الخيار أصلا.. لأن خداعه لك قد يودي برحلتك كلها..
هذا الوحش هو ذلك **الطاووس الكامن** في أعماقك..
الطاووس الموجود عند أغلبنا، ولو بنسب متفاوتة..
طاووس الأنا.. الذي يشكل عائقا أمام إنسانيتك كي تتفاعل مع الآخرين.. كي تكمل وجودها بهم..
منى.. يراق فيها الدم.. الذبائح كلها كانت تذبح هنا سابقا..
لكن الطواويس **لا بد أن تذبح هنا أيضا.. داخل محراب النفس البشرية، في منى..**
إن لم تذبح هنا، ربما لن تذبح أبدا..

** * * * **

«قيل عن سبب التسمية أيضا أن ابن عباس، رضي الله عنه قال: إنما سميت منى منى؛ لأن جبريل حين أراد أن يفارق آدم عليه السلام قال له: تمن، قال: أتمنى الجنة فسميت منى لأمنية آدم عليه السلام»[87]

لا نعرف الكثير عن صحة الخبر..

لكن إن صح، يكون هنا هو المكان الذي فارق فيه آدم جبريل..

بعبارة أخرى..

هذا هو المكان الذي **واجه فيه آدم الأرض منفردا**.. واجه الحقيقة القادمة.. واجه الحقيقة المرة.. حقيقة أن عليه أن يواجه الأمور منفردا من الآن فصاعدا..

وكان أن تمنى الجنة..

الجنة التي تمناها هنا كانت الجنة التي خرج منها للتو..

جنة المساواة، جنة «أن لا تجوع فيها ولا تعرى».. جنة الحاجات الأساسية التي تسد متطلبات للجميع..

جنة الالتزام بالحد المحرم.. لا جنة اللامقطوع واللا ممنوع..

كان آدم يريد أن يعود إليها..

واليوم، في منى، كل هؤلاء لا يتمنون غير الجنة..

منى، حيث يفترض أن يكون الجميع في حالة (مساواة).. ولو مساواة من ناحية نقطة الانطلاق..

في منى، نتذكر..

تمنى آدم الجنة، وكان قد تركها للتو..

في منى، نتمناها، ولكن علينا أن نتذكر كيف خسرها آدم..

كيف تسلل إبليس إليه من حب التميز، من أن يكون (ملكا) من (أن يكون من الخالدين).. من تلك الشعارات التي لا يزال أتباع إبليس يرددونها ويروجون لها عبر أسماء جديدة.. (الرقي، التمدن، التقدم...).

خسرها آدم هناك.. وتمنى العودة لها هنا في منى..

فهل يعقل أن نتمناها هنا، بينما وعود إبليس تحتكرنا وتملأ كل حياتنا التي تركناها خلفنا في بيوتنا؟

هل يعقل أن نتمنى العودة لها، وكل حياتنا تسير عكس التخطيط لهذه الرحلة..

---

٨٧ أخبار مكة للازرقي ٩٣٧

منى..
قد تكون منى مهبط الأمنيات..
لكنك لم تأت هذا الطريق كله كي تتمنى..
لقد جئت كي تحقق أمنياتك..
** * * * **

ولعل بين السببين رابط ما..
لعل الدم الذي يهرق، يكون وسيلة، معبرا، لتحقيق هذه الأمنيات..
لعل الطريق إلى مجتمع المساواة، مجتمع الحاجات الأساسية المتوفرة للجميع..
مجتمع (الحدود) التي يلتزم بها الجميع، لعل هذا الطريق لا بد أن يمر ببعض الدم..
بالتضحيات..
لعل الدرب إلى الجنة، إلى تحقيق الأمنيات، لا يمكن أن يكون إلا عبر المرور ببعض الدم..
لعل منى، هي التجسيد الشعائري لذلك..
** * * * **

وعندما ينسحب الحجيج من منى، أو من عرفة، أو حتى من مزدلفة - التي لن يبقوا فيها أكثر من ساعات - ، فإنهم يخلفون وراءهم (شاهدا) كبيرا على ذنب لم يفكروا ربما بالاستغفار منه، أو بعدم فعله..
يحتاج هذا (الشاهد) إلى حشد هائل من عمال النظافة لإزالته!
أتحدث عن شاهد مكون من أكوام قاذورات ستجدها في كل مكان من هذه الأماكن..
** * * * **

ثمة شيء لا يمكن الهروب منه في منى.. حاليا على الأقل..
هذه الجموع التي تراها، والتي جاءت الحج، رغبة في إكمال ركن دينها، أو رغبة في الحصول على المغفرة، أو الحصول على الجنة، هذه الجموع، التي أنت جزء منها شئت أم أبيت، رضيت أو كرهت، هذه الجموع ليست في أفضل أحوالها حاليا..
في الحقيقة هي تمر في مرحلة تاريخية قد تكون الأسوأ على الإطلاق.. وقد يكون هذا السوء جزءا من تدرج مستمر نحو المزيد من السوء وليس نهاية درجات السلم المتجه نحو القعر..
نعم، ليس سرا أننا نعيش كأمة في مرحلة تاريخية شديدة السوء والهوان والذل

والتخلف.. ليس سرا أننا الآن في ذيل الأمم في كل المجالات، ربما هناك (تفاوتات) في بعض الخدمات التي تقدم
في هذه الدولة أو تلك.. ربما بعض الشعوب أكثر انتظاما من سواها، لكن هذا لن يغير من حقيقة أننا (كمجموع) في ذيل الأمم اليوم، ليس بمقاييس الأمم الأخرى فحسب، بل حتى بمقاييسنا، حتى بمقاييس ديننا.. **بل تحديدا بها..**
الناس حولك في منى هم عينة من هذه الأمة.. أوضاعهم لا بد أن تعكس وضع الأمة السيئ.. لا بد أن تعكس حالة التدهور والتخلف والانحطاط التي تعيشها الأمة.. العلاقة بين أحوال من حولك، ووضع الأمة، علاقة ملتبسة مثل علاقة البيضة بالدجاجة..
هل وضعهم سيئ لأنهم ينتمون إلى هذه الأمة؟
أم أن الأمة سيئة بسببهم؟!

قد يخطر في ذهنك قبل الحج أن من يذهب إلى الحج يمثل (عينة) إيجابية من هذه الأمة.. لكن هناك ستكتشف أن الأمر أعقد من هذا الأمر، وأنهم قد يرغبون في آخرة أفضل، لكنهم لم يربطوا مصيرهم في الآخرة بواقعهم في هذه الحياة.. بمحاولتهم تغييره..

سترى في منى كل ما يعكس هذا الواقع السيئ..
سترى الأزبال والقاذورات في كل مكان.. **سيحدث ذلك من أمة قال لها نبيها إن إزالة الأوساخ عن الطريق جزء من عقيدتها وإيمانها..**
سترى قلة النظام والتدافع من أمة لها **سورة في كتابها اسمها سورة الصف..**
سترى الخوض في صغائر الأمور والتفاهات.. سترى وتسمع كل ما لا تتوقعه من أمة كانت يوما ما «خير أمة أخرجت للناس»..

** * * * **

أنت أيضا جزء من هذا.. أنت جزء من هذه الأمة بكل ما تمر به من أوضاع.. جزء من سوئها وتدهورها.. هل ستقول إنك لا تلقي بالنفايات في الشارع؟ هل ستقول إنك تلتزم بالصف؟ ربما، لكن هذا لن ينفي انتماءك لهذه الأمة.. أنت جزء من السفينة التي تغرق، ولكنك أقنعت نفسك أن قاربا فرديا ما يمكنه أن ينقذك..
أنت واهم!

** * * * **

في منى ستواجه الحقيقة التي كنت تحاول أن تغض الطرف عنها، نعم كنت تعرف دوما أن الأمة ليست بخير، لكن على نحو ما **كنت تعتبر أن الأمر لا يخصك.. نفسي نفسي..**
في منى، تصطدم أمنياتك بالواقع.. لا نجاة فردية هناك..ها أنت في الحج، في الطريق الذي تعتقد أنك ستنجو عبره، لكنك لست وحدك، لست في صومعة، لست منعزلا على قمة جبل، أنت هنا مع من حولك، بل إن نجاحك في تخالطك معهم وفق اللاءات الثلاثة للحج، ستحدد نجاحك في الحصول على ما تريد من الحج..
لو كان يمكن للنجاة أن تكون فردية (على نحو دائم) **لما كان هناك داع لأن تكون الفريضة جماعية، ولما كان هناك من داع لأن تكون هناك لاءات تنظم علاقتك بمن حولك،** كان يمكن أن يقال لك أن تؤثر العزلة، أو حتى الصوم والانعزال والانشغال بالشعائر..
لكن لا.. ليس من صوم هنا، بل «**أيام أكل وشرب**»[٨٨] ، وهذا يؤكد على الاختلاط (بضوابط اللاءات بالتأكيد)..
أيام منى ستؤكد لك أن الأمة ليست بالخير الذي يجب أن تكون فيه..
وأن لا نجاة هناك..
لا قارب فردياً يمكنه أن ينقذك وحدك، من سفينة غارقة..

** * * * **

في يوم من أيام منى، ربما بعد صلاة المغرب أو بعد صلاة العشاء، ستقف في ركن ما، تتأمل في الخيم من بعيد..
ستشعر أنك في مشهد يتكرر، وأن هذه الجموع قد كانت في مكان قريب من هنا، في موقف لم يبرح مخيلتك وذاكرتك رغم أنك لم تكن فيه قط.. تحاول أن تتذكر.. تشعر أنك كنت فيه هنا من قبل، حتى لو كانت هذه حجتك الأولى..
نعم..
تذكرته.. إنه فتح مكة..
ها هم المسلمون، يخيمون على مشارف مكة، ليلة الفتح..
ها هي الأصنام توشك على السقوط..
ها هو الفتح قد اقترب..

** * * * **

٨٨ صحيح مسلم ٢٧٣٥ «أيام منى أيام أكل وشرب».

في منى ستشعر أن ثمة فتح على وشك الحدوث..
أن ثمة أسوارا ستسقط..
وأبوابا ستفتح..
تعرف جيدا، أن تلك الأسوار هي في داخلك.. وأن تلك الأبواب هي أبوابك أنت..
الفتح المبين، على مشارف منى، هو فتحك أنت!

عن أبي الطفيل قال: سمعت ابن عباس، يسأل عن منى، ويقال له: عجبا لضيقه في غير الحج فقال ابن عباس: إن منى يتسع بأهله كما يتسع الرحم. [٨٩]

كما يتسع الرحم!..
يا للكلمة الهائلة..
إنها **الولادة التي تحدثنا عنها**، مجددا.
الولادة التي هي الهدف الأقصى من الحج، أن تولد من جديد عبر الحج، متخففا من كل قيودك وسلاسلك وعقدك التي شدتك إلى ذنوبك.. شدتك إلى حياة أدنى مما يجب..
إنها الولادة عبر الحج..
وها هو ابن عباس يشير إلى الرحم.. هنا في منى..
إنها ولادة جماعية إذن.. الكل في رحم واحد، في بوتقة واحدة..
والرحم يتسع ليضم الجميع.. وينمو فيه الجميع، كما ينمو الجنين داخل الرحم، كما يكسى طبقة بعد أخرى وهو في بطن أمه..

** * * * **

في منى.. أنت كالجنين..
لكن ليس كل جنين تكتب له الولادة..
ربما يجهض.. ربما يموت ساعة الولادة..
وربما، وربما، بعد أن يفرح والداه بالخبر يتضح أنه لم يكن، أنه حمل كاذب..
في منى، بين الناس، ثمة رحم يضمك ويضمهم جميعا..
ربما عشت حياتك كلها وأنت تبحث عن حنان كحنان رحم أمك.. ربما كنت تبحث عنه دون أن تعرف عم تبحث أصلا.. **حنان يضمك رغم كل عيوبك، يحتويك رغم كل ما فيك، يأخذ بيدك نحو ما يجب أن تذهب إليه.. حنان الرحم غير حنان الأم..**

---
٨٩ أخبار مكة للأزرقي ٩٣٦

حنان الرحم يحميك وينميك ويقويك.. حنان الأم قد يدللك ويفسدك بدلاله.. فيضعفك في نهاية الأمر..
أما حنان الرحم، فحنانه يقويك وينميك ويكبرك..
وهذه هي منى.. رغم أنها تجعلك بمواجهة حقائق مؤلمة، رغم أنك لست في أكثر أوضاعك راحة.. إلا أنها تحيطك وتقويك وتزيل عنك أشواكك ومخاوفك وتجعلك تتفاعل مع محيطك بضوابط تجعل هذا التفاعل إيجابيا..
نعم.. هذا العالم ليس على ما يرام.. أمتك ليست في أفضل أوضاعها..
لا تزال في الرحم يا صغيري...
لكن عليك أن تغير العالم عندما تولد..

** * * * **

سألت صديقا لي، وقد سبقني بالحج مرات عديدة بسبب إقامته بالقرب من المشاعر المقدسة، سألته، ونحن في منى، أين الذروة؟
قال لي فورا: عرفة!
تغيرت ملامحه. لمعت عيناه. ربما بدا أجمل إنسان في العالم وهو يقولها..
عرفة..!

** * * * **

نعم، عرفة هي الذروة.. كان محقا في ذلك..
السؤال هو: لماذا؟
لماذا عرفة؟

على قمة العالم!

المكان: عرفة..

الزمان: عرفة..

والمناسبة: عرفة أيضا..

أن تعرف أكثر..

** * * * **

عرفة إذن..

عرفة الزمان، وعرفة المكان..

عرفة المكان الذي لا يتاح إلا لمن في الحج..

وعرفة الزمان، الممتد للجميع..

** * * * **

عرفة..

جبل ما، **ليس عليك أن تعتليه، يكفيك أن تكون في محيطه لتكون قد ارتقيت أعلى مناسك الحج**، يكفيك أن تكون عند سفحه، لتكون قمته متاحة، كما لو أن العبرة هنا بتذكيرك بأن وجودك (الشخصي) على القمة ليس أمرا مهما، بقدر وجودك ضمن أمة تكون على القمة..

عرفة، ليس الأعلى بين جبال مكة حتما، رغم ذلك فإنك ستكون في (قمة العالم).. كما لو أن الشعيرة تعلمك **أن الأعلى ليس بالضرورة هو الأكثر ارتفاعا بعدد الأمتار، كما لو أن المكان يعيد تعريفك بوحدات القياس المهمة حقا..**

بوحدات قياسك الحقيقية..

** * * * **

حيز الزمان والمكان في عرفة له خصوصية مميزة..

رمضان أكثر امتدادا..

في عرفة، الوقت يكاد ينفد.. دقات الساعة تسمع بوضوح وصخب أكبر..

في عرفة أنت تعرف أن الوقت محدود جدا، عليك أن تنهل منه بسرعة..

مع غروب الشمس في ذلك اليوم، سينتهي كل شيء..

تقريبا..

** * * * **

لا يمكن أن تهرب من معنى كلمة عرفة..
لا يمكنك أن تهرب من **ارتباطها بالمعرفة..**
لا يمكنك أن تهرب من **ارتباطها بجبل.. بكل ما يحمله الجبل من شموخ وعلو..**
لا يمكنك أن تهرب من كونها الشعيرة الوحيدة التي اختُصر **الحج بها، الحج عرفة..**
تعيد ترتيب أفكارك كما لو أنها عدة التسلق التي تحتاجها لترتقي هذا الجبل..
المعرفة جبل، جبل ترتقيه بطريقة ما، وهذا هو جوهر الحج كله..

** * * * **

معرفة ماذا؟
في عرفة ثمة مجال لك كي تعرف نفسك أكثر..
كيف؟
طلب المغفرة بحد ذاته، يتطلب منك بطريقة ما مراجعة ذنوبك..
أنت تعرف تماما ما الذي تطلب المغفرة عنه..
ربما أقرب الناس منك لا يعرفون..
ربما تمكنت من إخفاء ذلك عنهم..
ربما عشت حياة سرية ما..
أو على الأقل أخفيت جزءا مهما من حياتك في ظلال سرية..
ربما لا أحد يعرف عنك ما تريد مغفرته..
أو ربما كنت تظن أنهم لا يعرفون!
هنا، في عرفة، الزمان والمكان، أنت تعرف أن المغفرة تتطلب منك مواجهة..
أنت تعرف أنه يعرف، عز وجل..
ولكنك عليك أنت أن تواجه نفسك بكل ما كان..
أن تعترف لها.. أن تعدد ذنوبك.. أن تنسلخ عنها..
نعم، المواجهة صعبة، لكن المغفرة تستحق..
المعرفة قوة..
وحيازتها ليست بأمر يسير، ولكنها عنوان ذلك اليوم المهيب.. وثمن المغفرة الذي تهون أمامه كل الأثمان..
في ذلك اليوم، ولأنك تريد المغفرة، ستواجه نفسك بحقيقتها..
ستعرف أكثر عن نفسك..

يمكن لك أن ترى حياتك كشريط سينمائي..
يمكنك لك أن تغفر لكل من آذاك..
وأن تطلب المغفرة على كل من آذيتهم..
يمكن لذلك الحوار الداخلي الطويل في زوايا نفسك أن يكون بمثابة تطهير داخلي..
نعم، المغفرة تستحق أن ترى ذلك الشريط كل ما فيه..
حياتك تستحق أن تراجعها..
حياتك تستحق أن تعرفها..
على عرفة ستعرف!
والمعرفة قوة!

** * * * **

أنه أن تعرف نفسك..
وأن تعرف ربك، الذي تطلب منه المغفرة..
لا شيء يجعلك تعرف عظمته حقا، أكثر من أن ترى نفسك في ضعفها..
وأن تعرف أيضا ذلك الإنسان الآخر الذي تتمنى أن تكون بعد أن ينتهي هذا اليوم..

** * * * **

عرفة هي قمة العالم بطريقة ما..
قمة العالم التي انطلقت إليها من **«فج عميق» قد يكون موجودا في تضاريسك الشخصية، في انكساراتك، في الكدمات الموجودة في داخلك والتي لا يراها ولا يعرف بوجودها أحد سواك..**
عرفة هي قمة العالم..
ولديك اليوم، الزمان والمكان، الفرصة للتسلق والوصول لها..
لديك الفرصة لتضع عَلَمك هناك على القمة..
عَلَم «أن تعرف أكثر»..

** * * * **

لم يختصر الحج في أي شعيرة أو أي يوم، كما حدث مع عرفة.. حيث قال عليه الصلاة والسلام **«الحج عرفة»..**
لم يقل – عليه الصلاة والسلام - الحج طواف أو سعي أو رمي أو أي شيء آخر..

على أهمية كل هذا..

لكن عرفة، هي القمة التي تقود إليها كل الخطوات السابقة في رحلة الحج.. لا يمكن حذف شيء مما سبق لأنه لن يوصل إلى القمة.. لكن القمة قمة..

وعرفة ليست مكانا فحسب، بل هي مكان محدد في يوم محدد، إنها مثل الحج كله، تربط الزمان بالمكان..

وفي هذا (الزمان - المكان) يحدث أن..

ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟[٩٠]

إن الله يباهي بأهل عرفات ملائكة السماء فيقول انظروا إلى عبادي هؤلاء جاؤوني شعثا غبرا.[٩١]

ليس العتق الذي لا يحدث في أي يوم آخر فقط..

بل أيضا الله يباهي الملائكة..

لم يا ترى؟

لا بد أن يكون ثمة شيء ما في عرفة يجعل هذا اليوم يحصل على أكبر عتق من النار..

ويباهي الله فيه ملائكته..

نعم.. ثمة شيء ما في عرفات.. على عرفات.. لا يمكن لهذا الفضل أن يكون اعتباطا، حاشا لله، بل لا بد أن يرتبط بأمر ما يخصنا جميعا.. يخص البشرية كلها في رحلة بحثها عن ذاتها، في رحلة مخاضها نحو الولادة..

ثمة شيء في عرفات..

ولا بد أن نجده..

** * * * **

«أخذ الله تبارك و تعالى الميثاق من ظهر آدم بـ (نعمان) - يعني عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا قال: *(ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل

٩٠ السلسلة الصحيحة ٢٥٥١

٩١ صحيح الترغيب والترهيب ١١٣٢

المبطلون)* (الأعراف: ١٧٢)».[٩٢]

إنها لحظة الميثاق إذن..

اللحظة التي أخذ فيها الله الميثاق من البشرية.. أخذ فيها منهم العهد على أنه ربهم..

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» (١٧٢: الأعراف)

تلك الشهادة التي غرست في أعماقنا، في لا وعينا، في فطرتنا، ذلك الشيء الغائر فينا، الذي نجهل تفاصيله وكنهه.. ولكن نعرفه، شيء ما، ي**قول لنا إننا نعرف أن ثمة إله واحد هو الخالق والمبدئ والمعيد، وأنه خلقنا كما خلق كل شيء، وأنه كلفنا بما لم يكلف به باقي خلقه..**

نعم.. شيء ما في أعماقنا يقول لنا على نحو غامض وشفاف، كما لو أنه كان في خلفية ذاكرتنا، في جيناتنا، في ذاكرة كرياتنا الدموية.. شيء يقول لنا إننا نعرف ذلك كما لو أننا شهدنا عليه قبل ولادتنا..

لكن الإنسان، كما تعلمون، سمي إنسانا لأنه ينسى..

وربما في هذه الحالة لم ينس.. بل تناسى.. ثم تراكمت على ذاكرته التفاصيل، ومن ثم حرص على عدم تذكير نفسه.. وانتهى الأمر بأنه لم يعد يتذكر..

لكن سيبقى شيء ما، حتى في صلف الإلحاد، في تعجرفه، سيكون ثمة شيء ما، ثمة إقرار عند الإنكار، ثمة ضعف في الصلف..

ثمة شيء.. نعرفه ولا نعرفه. ندركه دون أن نراه. نفهمه دون تفاصيل، نقوله، لكننا نعلم، أبجدياتنا لن تعبر عنه تماما.. ستفشل في ذلك..

ثمة عهد بيننا وبينه.. ميثاق.. أشهدنا على أنه هو الله ربنا.. وشهدنا..

ثم انسللنا من ذلك.

أنكرنا شهادتنا.

صرنا شهود زور..

** * * * **

لا نعرف كيف حدث ذلك. كيف أخذ الله من ظهور بني آدم، ذلك الميثاق..

لا نعرف كيف.

٩٢ السلسلة الصحيحة ١٦٢٣

ولا نعرف متى..
ولكن نعرف أين..
نعرف أين حدث ذلك.
وهذه المعلومة قد تفتح الأبواب.. نحو المزيد..

** * * * **

على عرفة إذن، كما جاء في الحديث الصحيح•..
على عرفة حدث هذا الحدث الهائل، خارج التاريخ، في المنطقة بين الوعي واللا وعي، بين الإدراك والمعرفة.. بين الذاكرة الواعية والوجدان، بين الحلم واليقظة..
على عرفة، حيث نقف اليوم، حدث ذلك..
الكيف مجهول، والميثاق معلوم.. والإيمان به واجب..
والمكان، هو في الذروة..
عرفة..

** * * * **

الآية التي ذكر فيها ذلك الميثاق، في سورة الأعراف..
وسورة الأعراف، تتمركز، في موقف رئيسي لها، **على أولئك الذين يقفون على (الأعراف).. بين الجنة والنار..**
يقفون على مرتفع ما.. فالأعراف كل ما ارتفع من الأرض[٩٣] ..
الأعراف، عرفة.. عرفات..
لا يمكن أن يكون ذلك صدفة.
حاشا لله..
لا صدفة..

** * * * **

تتناول سورة الأعراف قصة حياة البشرية منذ الخلق الأول.. منذ أن سجدت الملائكة لأبينا آدم، ورفض إبليس ذلك، ومن ثم طرده من الجنة «مذموما مدحورا» وقاسمه أن «يقعدن لنا على الصراط المستقيم»، ومن ثم غوايته لآدم وزوجه تحت شعار النصيحة، وطردهما من الجنة إثر ذلك، وهبوطهما إلى الأرض «بعضنا لبعض عدو»..

---

٩٣ لسان العرب مادة عرف

كل ما حدث وسيحدث على الأرض سيكون امتدادا لما حدث هناك، إبليس مصمم على الاستمرار في غواية آدم، بأسلوب النصح والإغراء بالتقدم والرقي غالبا، وآدم، على الأقل بعضا من أولاده، لا يزالون يسقطون، لا يزال بعضهم لبعض عدوا..

كل تاريخ البشرية يمكن أن يجد جذوره هنا، كل ما حدث ويحدث يمكن أن يفسر ويجد مكانه في قصة أبينا الأول..

تأخذنا سورة الأعراف إلى قوم نوح، إلى عاد، إلى ثمود، إلى قوم صالح، إلى قوم لوط، إلى مدين، إلى قوم موسى..

في كل تلك المجتمعات، كان الصراع يأخذ أشكالا مختلفة، لكن لو أزلنا التفاصيل، لو محونا الأسماء والأماكن، لو نزعنا إلى التجريد، لوجدنا أن كل ذلك يشترك فيما يعود إلى ما حدث مع آدم.. وإلى القسم الإبليسي.. وإلى نتائج ذلك وتوابعه..

حتى في حياتنا الشخصية، في أدق تفاصيلها، ثمة امتداد واضح لملحمة آدم الأولى.. واضح فقط لو أننا نزعنا عن أعيننا تلك الغشاوة التي تجعلنا نتلهى بالتفاصيل، بالسطح، عن العمق..

** * * * **

حسنا.

لا يخص ذلك سورة الأعراف وحدها.

الكثير من سور القرآن تعرض الملحمة الآدمية وتذكر بها ..

لكن ثمة شيئا مختلفا في سورة الأعراف، يمثل إضافة لما سبق في السور القرآنية..

إنه ذلك **السور..**

ذلك المرتفع الذي يقف عليه ناس لينظروا في اتجاهين مختلفين، نحو مصيرين مختلفين..

«وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ . وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» (الأعراف: ٤٦-٤٩)

على الأعراف يقفون، نظرة إلى من في الجنة.. نظرة طمع.. ونظرة إلى من في النار، نظرة خوف..

أنها نظرة إلى المستقبل، إلى المصير..

إنه استشراف لمستقبلك، لمصيرك، بمقارنة أعمالك بأعمال هؤلاء في مصيرهم الأخير..

على مرتفع ما، تقف، تنظر إلى الماضي وإلى المستقبل، تنظر إلى الخلف، لترى ما قدمت وما قدموا.. وإلى الأمام لترى نتائجهم، وتقارن ما قدمت بما قدموا..

الأعراف، المرتفع الذي يمكنك من تقييم نفسك وتقييم ما قدمت.. نظرة إلى المستقبل، ليس عبر كرة بلورية، بل عبر البصيرة الأكثر شفافية من البلور..

أعراف، وعرفة..

لا يمكن أن يكون هذا صدفة..

** * * * **

كيف نربط هذا بعرفة؟

سورة الأعراف، التي قدمت لنا من يقف على مرتفع ليرى نتائج الأعمال ومصائر الناس..

وقدمت لنا أيضا تلك الآية عن الميثاق، عن شهادتنا قبل أن نشهد «**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» (الأعراف: ١٧٢)**

الآية التي نعرف الآن-بحديث صحيح- أنها حدثت على عرفة!..

وعرفة جبل..

مكان مرتفع مثل الذي وقف عليه أصحاب الأعراف..

لا صدفة!

** * * * **

ترانا نقف على عرفة، لنرى أين أصبح ميثاقنا؟ وماذا فعلنا بشهادتنا؟.. ترانا سنكون حيث نطمع أو حيث نخاف أن نكون؟..

ترانا نقف على عرفة، لنستحضر كل تاريخنا، ونقارنه بتلك الشهادة، بذلك الميثاق الذي أخذ علينا..

ترانا نقف على عرفة، لنجدد الميثاق؟ لنجدد العهد.. لنؤكد للملائكة، الذين تساءلوا

يوما ما عن مقدرتنا على تحمل المسؤولية، لنؤكد لهم أننا قادرون على أدائها..
ترانا نقف لنشهد مجددا أنه ربنا، هذه المرة بكامل وعينا، بكامل إرادتنا، مع سبق الإصرار والترصد..
ترانا نقف على عرفة لنثبت جدارتنا واستحقاقنا بما منحنا الله إياه في بدء الخليقة؟
تراه يباهي بنا ملائكته هنا على عرفة، لأننا جئنا لنؤكد ما قلناه في مطلع التاريخ، عند بدء الخليقة.. تراه يذكرهم بنا بلحظة التساؤلات.. تراه يذكرهم عز وجل، بأن أبناء آدم، الذين أمرهم الله بالسجود له، قد جاءوا شعثا غبرا، ليؤكدوا «أولست بربكم؟.. بلى»..

** * * * **

ترانا نقف لنفي بنذورنا؟!

«ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (الحج: ٢٩)

ترى النذر هنا هو ذلك العهد القديم، الذي نرجع هنا لكي نثبت أننا أوفياء له؟!

** * * * **

لكن هذا ليس كل شيء مع (الأعراف)..
فإذا كان أصحاب الأعراف يقفون على مرتفع ما، وإذا كنا قد أدلينا بشهادتنا على عرفة، فـ**إن في سورة الأعراف جبلا آخر.. لعله يرتبط أيضا بعرفة وبالأعراف.. فلا شيء بالصدفة!..**

«وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (الأعراف: ١٧١)

الآية جاءت قبل آية الميثاق مباشرة.
الجبل هنا رفع، اقتلع من جذره، ليكون مثل (الظلة) على بني إسرائيل.. ليحميهم.. ليغطيهم..
لكن هذا الجبل المرفوع **لا يقدم حماية شاملة وكاملة دون شروط..** الظل الذي يقدمه مشروط بما سيفعله بنو إسرائيل هنا، **بأخذهم الكتاب بقوة..** بالتزامهم فيه..
الحماية لا توفر لهم إلا بتنفيذ هذا الشرط.. بأخذ الكتاب بقوة، بالتمسك به وبتنفيذ ما فيه.. بالنظر إلى العالم، من خلال عين تكونت عبر هذا الكتاب..

** * * * **

الكلام يعنينا نحن، يعنينا دوما، ويعنينا خاصة ونحن على عرفة..
الأمر ليس أن نعتلي الجبل كجزء من الشعائر دون أن نفهم أن من حق صعودنا على هذا الجبل يكون بأخذنا الكتاب بقوة..
ربما لن نستطيع أن نصعد حقا، أن نرتقي هذا الجبل، أو أن نرتقي سلم التقدم، ما لم نأخذ هذا الكتاب بقوة..
على صعيد عرفة، بينما ندلي بشهادتنا مجددا، هذه المرة بوعي تام، ندرك أننا إن لم نأخذ الكتاب بقوة فإن شهادتنا ستكون شهادة زور..
شهادة زور على عرفة؟!
لا!..
سنأخذ الكتاب، بأقصى قوة!

** * * * **

على عرفة.. ستطلب المغفرة..
ففي هذا اليوم، تحدث أكبر مغفرة كل سنة..
لهذا ستطلبها، ستلح بطلبها..
وفي خلال ذلك، خلال طلبك المغفرة، ربما يحدث لك أهم ما في رحلة الحج كلها..
خلال طلبك المغفرة، خلال دعائك، لن يمكنك أن تهرب من مواجهة ذاتك، لن يمكنك أن تطلب المغفرة عن تلك الأشياء التي قد لا يعرفها سواك وسواه، هو الذي سيغفر لك..
ستعري ذاتك أمامه، إنه يعرف كل شيء، لكنك لن تطلب المغفرة بالجملة، ستمر على التفاصيل، لكي تدفن الماضي عليك أن تقتله، ولكي تقتله عليك أن تواجهه، ولكي تواجهه عليك أن تحدده.. أن تعرف ما الذي عليك أن تواجهه..
لا يمكن أن تقتل الماضي دون مواجهته.. المغفرة مواجهة قبل كل شيء.. عليك أن تعي ما الذي تريد أن يذهب من تاريخك.. ما الذي تريد أن يغفر حقا.. على عرفة ستنفجر ذاكرتك مثل ألعاب نارية في سماء مظلمة. سترى قصة حياتك تتجسد شظايا أمام عينيك، ستعيد تشكيلها هنا على عرفة، لعلك تصل إلى السر، لعلك تصل إلى (تغيير ذاتك)..
ستفتح كل ما تريد أن ترجع من دونه.. ستتذكر كل ما حدث.. على جبل عرفة ستستعيد شريط حياتك كله.. ستسترجع كل ما مر.. قد تدعو بالمغفرة لكل من مر

في حياتك، قد تذكر أشخاصا كنت تعتقد أنهم سقطوا من ذاكرتك منذ زمن بعيد، قد تجدهم شاخصين في ذاكرتك وأنت على عرفة وقد مرت عقود على ذهابهم، قد تدعو لهم بالمغفرة، قد تدعو لهم بالرحمة، قد تدعو الله أن يغفر لك ما فعلته بهم، أو أن يغفر لهم ما فعلوه بك، أو أن يغفر لكم ما فعلتموه معاً.. ستذكر والديك حتما، ليس بالطريقة التقليدية، ليس مجرد (تذكر)، ستذكرهما بجزع وهلع.. بكل ما يمكنك منهما، ستسأل الآن على عرفة، هل أديت لهما حقهما؟ ستذكر أنك نسبت لهما عيوبا فيك، ها أنت الآن على عرفة لا ترى فيهما عيبا واحدا، وكل العيوب منك!.. ستذكر عمة أو خالة لك رحلت قبل سنين، وقد كانت يوما ما الصدر الحنون والملجأ الأمين.. ستذكر جار العمر الذي رحل قبل عمر، وأولاده الذين ضيعهم العمر، تذكر مدرسك أو مدرستك الأولى في الصف الأول الابتدائي، قد تذكر حبك لها أو خوفك منها، وقد تذكر كيف لم تعد تعرف شيئا عنه أو عنها.. ستطلب لها الرحمة والمغفرة، وتطلب لك المغفرة على النكران..

ستذكر أصدقاء فارقتهم على مقاعد الدراسة، توهمت يوما كما توهموا أن لا شيء سيفرقكم حقا، وأنكم ستبقون دوما رفاقا، مع الوقت تفارقتم، ثم سقطوا من ذاكرتك، واليوم تعرف أنهم بقوا هناك كامنين، ستذكر صديقا مات وأنت لا تزال عى مقاعد الدراسة، حزنت يومها لموته ثم نسيته مع الوقت، على عرفة سيعود وهو لا يزال مراهقا كما رحل، لم تشوش على ملامحه الأيام.. لا يزال كما هو.. أنت الذي تغيرت..

ستتذكر أول من علمك الصلاة. وأول من علمك الخطأ. ستتذكر حلمك الأول. وخيبتك الأولى. ستتذكر حبك الأول. وجرحك الأول..

وستذكر أيضا من تسببت في جرحه الأول. ستذكر من علمته خطأه الأول. ستذكر من كنت خيبته الأولى.

ستذكر حبك الأول. ووهمك الأول. وستذكر كيف كنت أنت أيضا وهما لآخرين.. ستذكر كيف كانت حقيقتك أقل من سقف توقعاتهم..

ستذكر العابرين في حياتك بود. ستعرف أنهم لم يكونوا عابرين حقا. صاحب الدكان على الزاوية. سائق الباص. عامل النظافة الذي لا تذكر ملامحه. حارس المدرسة. الصبي الخجول في المدرسة. المنغولي الذي يرفع يده محييا في رأس الشارع. ستجدهم حاضرين على عرفة.. يقولون لك: **لقد تركنا فيك أثرا..**

ستشعر أنك لن تنجو ما لم ينجوا هم أيضا، ستدعو لهم، ستشعر تجاههم بود ربما

لم تكن تدرك أنك تحمله نحوهم.. ستشعر أنك نشأت من صهر كل ذلك، وأنك لو طمعت بالمغفرة للشخص الذي أصبحته، لكان عليك أن تطلب ذلك للجميع.. لكل من مر بك في حياتك..

في عرفة ثمة بئر، بئر ستجده بنفسك، بئر خفي في أعماق روحك، لن تغطس قلبك فيه فحسب، لكي يزيل كل ما فيه من أدران، بل ستغمس ذاكرتك.. عقلك.. ستغطس كل ما فيك فيه..

تريد أن تنجو.. تريد أن يغفر لك..

لكنك على عرفة، ستكتشف أن ذلك قد يرتبط على الأقل برغبتك في المغفرة للجميع معك.. ليس مهما كثيرا أن تتحقق مغفرته لهم، بقدر ما هو مهم أن يحدث في داخلك أنك طلبت لهم المغفرة..

ستتراكض حياتك أمامك كشريط هارب، تريد أن تلحق به قبل الذروة، قبل مغرب يوم عرفة..

ستذكر الشخص الذي كنته. والشخص الذي صرته. وستذكر الأشخاص الذين مررت بهم في درب تحولاتك. ستواجههم جميعا هنا على عرفة.. ستأتي بهم جميعا هنا في عرفة..

ستواجههم، وتجمعهم، تقدمهم اليوم على عرفة، تريد المغفرة.. تريد منه عز وجل أن يغير هذا الشخص الذي جاء هنا كي يتغير..

على الذروة في عرفة، على القمة، سيكون لكل دعائك معنى واحد وإن عبرت عنه بمختلف الأساليب..

ثمة شخص، جاء معك، ولا تريد أن يعود معك..

إنه النسخة التي تريد التخلص منها، منك!

** * * * **

على عرفة، ستعرف نفسك أكثر..

ستعرف نفسك دون رتوش، ستعرف نفسك بكل ما فيها من ضعف وحقارة ودناءة..

ألست تريد أن يغفر لك؟ ستضطر إذن أن تخوض في أوحالك كي يجففها لك..

ستعرف نفسك كما هي..

وهذه المعرفة أمر مهم جدا، لكي تصبح نفسك، كما يجب أن تكون..

على عرفة، ستعرف نفسك!

** * * * **

المعرفة قوة!.. ولهذا فإن عرفة سيكون مثل مخزن للأسلحة تكتشفه في داخلك.. مثل منجم أسلحة عرفت كلمة السر إليه..
المعرفة قوة.. وعلى عرفة، أنت في أقوى حالاتك رغم الضعف الذي يبدو عليك.. رغم دموعك وآهاتك وتوسلك بين يديه..
نعم، أقوى ما يمكن أن تكونه، يمر حتما بأضعف حالاتك بين يديه..
كلما كنت أضعف هنا، كنت أقوى لاحقا..
علاقة عكسية، تمر بها، هنا على عرفة..

** * * * **

عرفة ليس جبلا فقط، بل هو الجبل والوادي المحيط به..
وجبل عرفات ليس مرتفعا جدا..
رغم ذلك، فإن عرفة هي بطريقة ما، قمة العالم..
عرفة هي أعلى نقطة يمكن أن تصلها في إنسانيتك. في رحلة حياتك البشرية..
ليس قمة أيفرست في الهمالايا كما قيل لنا دوما..
عرفة هي تلك النقطة..
أعلى قمة في العالم، أعلى ما يمكن لابن آدم أن يصله..
أعلى قمة في إنسانيتك، أعلى نقطة في قوتك، في معرفتك بنفسك، في قربك منه..
لكن تذكر..
من الفج العميق انطلقت.. لتصل إلى تلك القمة..
الفج العميق في داخلك، في تضاريسك الخفية، نقطة انطلاقك نحو تلك القمة..
إن لم تنطلق من فج عميق ما في أعماقك، فربما لن تصل قط لتلك القمة..
من الفج العميق، إلى قمة العالم، هذا هو الحج..

** * * * **

وفي القمة تقف، كما وقفت سابقا في مطلع التاريخ..
تدلي بشهادتك، هو ربك، وأنت عبده، وكل الباقي مرتبط بتفاصيل العلاقة بين رب وعبده..
على قمة العالم تقف، وقد أعدت اكتشاف نفسك.. عندما أعدت شهادتك على بصيرة..
صرت أكثر استعدادا الآن للخوض فيما يجب أن تخوضه.. في أداء ما خلقك من أجله..

ستقف هنا، أشعثا أغبرا، كما يليق بمن رحل من الفج العميق إلى قمة العالم..
وستقول كما قال عليه الصلاة والسلام عشية عرفة[٩٤] ..
«لا إله إلا الله له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»..
وهناك، حيث لا مكان يمكن أن يحده ولا زمان، سيباهي الله بك ملائكته..
أليس هؤلاء الذين قلتم عنهم ما قلتم يوم كان ما كان؟!...

** * * * **

«لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (البقرة: ١٩٨-١٩٩)

أفيضوا من حيث أفاض الناس..
لماذا؟
لأن قريش كانت تستنكف أن تقف بعرفة كما يقف بقية العرب، فكانت تقف في مزدلفة.. وتخرج من مزدلفة..
ذلك التكبر القريشي كان لا بد للشعائر أن تنسفه من جذوره.. أفيضوا من حيث أفاض الناس، نقطة انتهى..
لكن التكبر لن يكون فقط في هذه الجزئية.. وملأ قريش يمكن له أن يعود ليظهر ويتمظهر في أشكال مختلفة.. ربما لم يعودوا يقفون في مزدلفة، لكن وقفتهم في عرفة صارت محاطة بمظاهر الأبهة والترف والتعالي.. هناك من يفتتح بوفيه يضم ما يكفي لإطعام قبيلة من الجياع لمدة سنة، ويملؤها بما لم تذقه هذه القبيلة أو لم تسمع به أصلا من روبيان وأطعمة فاخرة مترفة، وكل ذلك من أجل بضع ساعات يفترض أن يركز فيها الإنسان على (كله) لا على بطنه..
نعم، الملأ لم يعد يمكنه أن لا يقف في عرفة..
صار يقف فيها، لكن لا يقف مع الناس..
يخرج منها معهم، لكن هل يفيض حقا؟

** * * * **

٩٤ السلسلة الصحيحة ١٥٠٣

الإفاضة فقها هي الخروج من عرفة إلى مزدلفة.. وأفاض القوم من مكان، اندفعوا وتفرقوا..

لكن الإفاضة أيضا هي من الفعل (فاض) وتعني (كثر)..

أليس هذا ما يحدث حقا في عرفة؟

ألا تخرج من عرفة وأنت تكاد تفيض على العالم بما عرفت؟.. ألا تتدفق من أطرافك ومن أنفاسك طاقة جديدة، روح جديدة، لوليد جديد؟

تفيض الجموع من عرفة، لو عرفت هذه الجموع حقا ما الذي في عرفة، لكان هذا الفيضان هو أعظم مصدر طاقة في العالم.. أعظم مصدر طاقة للبناء، لهدم ما يجب هدمه، لإعادة بناء العالم على النحو الذي ينسجم مع شهادتنا على قمة العالم..

أو: كان يمكن أن يكون كذلك..

تعرفون كيف سارت الأمور.. كيف فرغت الشعائر من معانيها، حتى صارت حركات رياضية نؤديها دون أي فهم..

وصار الفيضان، مجرد غثاء، كغثاء السيل..

** * * * **

ثم أتى به عرفة فقال: هذه عرفة. قال ابن عباس: أتدري لم سميت عرفة؟ قال: لا. قال: لأن جبرائيل عليه السلام قال له[٩٥] أعرفت؟ [٩٦]

أعرفت؟

في منى، تمنى آدم.. تمنى أن يعود للجنة..

في عرفات، عرف إبراهيم الدرب إلى هناك..

بين الأمنيات ، والمعرفة ، ثمة قمة..علينا أن نعتليها...

** * * * **

تكاد تسمع الهمسة تتردد في أذنيك..

قل لي الآن أيها القلب الشارد الهائم على وجهه في منافي الذات وأصقاعها..

أعرفت؟!

أعرفت؟

---

٩٥ لإبراهيم عليه السلام

٩٦ سنن البيهقي الكبرى ٩٤٧٧

الاقتراب رويدا..

ليس في مزدلفة من الأعمال ما يكاد يكون خاصا بها..
تصلها، تصلي المغرب والعشاء جمعا بأذان واحد، ثم تنام حتى الفجر.
للوهلة الأولى سيبدو ألا شيء هناك.. بضع ساعات لا أكثر في مزدلفة..
لكن ستتذكر أن التنظيم، والالتزام بالتعليمات، هي جزء أساسي من الشعائر، جزء أساسي مما يريد الحج أن يعلمك إياه..

مزدلفة هي جزء من تدريبنا على أن نلتزم بسنته عليه الصلاة والسلام، توقيت الدخول إليها، الخروج منها، المبيت فيها، **كلها جزء من (الخطة العسكرية) التي يتضمنها الحج، جزء من تعليمك الانضباط والالتزام..** ستفعل ما فعله الرسول الكريم كجزء من التزامك بالخطة، خطة المواجهة مع ذاتك، خطة التدخل السريع لإنقاذ ذلك الشخص الذي تريد إنقاذه.. الشخص الذي تريد له أن يولد..

الحج عرفة نعم، والذروة الأعلى التي في الحج قد تم المرور بها للتو، لكنك في مزدلفة ستثبت أن الأمر لم ينته، وأن التزامك بما فعله الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وبسنته الشريفة هو جزء من العهد الذي قطعته للتو على عرفة.. شهادتك التي أعدتها بكل وعيك، والتي شهدت لله فيها أنه خالقك وربك وأن الملك والحمد له، هذه الشهادة، تتضمن فورا، وتلقائيا، أن تلتزم بسنته عليه الصلاة والسلام..

هل ستقول أن مكانا محصورا يجب الدخول والخروج منه خلال بضع ساعات سيكون أمرا صعبا على الملايين التي تأتي الآن لكل سنة، وأن الأمر لم يكن كذلك في عهده عليه الصلاة والسلام؟

نعم.. وهذا امتحان آخر، **أن تدير هذا الأمر، أن تثبت أن المسلمين لم يزيدوا فقط في العدد بل نموا أيضا في قدراتهم التنظيمية.. (امتحان نعرف نتائجه الحالية للأسف!)**

مزدلفة هي امتحانك الأول..
ستكون حياتك اللاحقة كلها (مزدلفات)..

** * * * **

مزدلفة تثبت لك موقعك من الإعراب..
تثبت لك حقيقة ما فعلت..
هل أزلفك الحج مما يجب أن تكونه؟ من الشخص الذي خلقت لتكونه؟ من الخليفة في الأرض؟
أم أنك جعلته زلفى لمغفرة الذنوب فحسب، ومن ثم العودة لما كنت عليه؟
مزدلفة تجربة أولى..
(بروفة) لما سيحدث لاحقا..

** * * * **

مزدلفة هي امتحان تخوضه وأنت تقوم بدور (رماة جبل أحد)..
المعركة تكاد تكون قد انتهت.. والمهمة تكاد تكون أنجزت..
والغنائم أمامك.
هل ستخالف أمره عليه الصلاة والسلام وتتسبب في الهزيمة؟
أم أنك ستتعلم من الدرس، وتتثبت؟
مرحبا بكم في مزدلفة..
بروفة لحياتك المقبلة كلها..

مرحبا يا معارك المصير!

أول ما ستفعله عند وصولك منى قادما من مزدلفة، صبيحة يوم العيد، هو أن تقوم برمي الجمرات، في جمرة العقبة..

اليوم يوم عيد، لكنك ستجمع الحصى، وتذهب لرميها..

لا تزال على خطي إبراهيم.. لا تزال تتلمسه في دربك..

«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُمِرَ بِالْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى فَسَابَقَهُ فَسَبَقَهُ إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فَعَرَضَ لَهُ شَيْطَانٌ - قَالَ يُونُسُ الشَّيْطَانُ - فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ»[٩٧] ..

يعتقد الشيطان أن محاولته القديمة مع آدم تنجح دوما.. وهي تنجح فعلا في الكثير من الأحيان كما نعرف من التاريخ الشخصي والتاريخ العالمي..

لكننا نستحضر اليوم، في يوم العيد، ليس أبانا الذي غرر به، بل نستحضر أبانا الذي انتصر.. في العيد نحن أولاد إبراهيم الذي لم يتمكن إبليس من غوايته، في العيد نعيد درب إبراهيم.. لا درب خروج آدم من الجنة..

في صبيحة العيد، وبعد أن خرجت أقوى وأعرف من عرفات، بعد أن جددت شهادتك هناك، تستعيد إبراهيم الذي..

«وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ»

فأدى ذلك إلى..

«قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» (البقرة: ١٢٤)

يريدك إبليس أن تكون مثل

«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» (طه: ١١٥)

ثمة خيار، ثمة مفترق طرق في كل خطوة نخطوها في حياتنا..

بعد مزدلفة، أنت أمام هذا الخيار مجددا، أن تخطئ خطأ آدم، وتضعف أمام الشيطان..

أو أن تتم كلمات إبراهيم..

أمام الجمرة ـ وأنت ترمي الحصى، يفترض أن تكون قد حسمت الأمر والقرار مع ذاتك..

---

٩٧ مسند أحمد ٢٧٩٥

ليس مجرد حصى ترميها..
بل قرار اتخذته، إعلان واضح للحرب على الشيطان، تعلنه وأنت مسؤول عن نتائجه..

** * * * **

ها أنت ترمي الشيطان، ترجمه بالحصى التي في يدك..
وأنت تعرف أن هذا الشيطان يجري منك، من كل ابن لآدم مجرى الدم[٩٨].
تعرف إذن أنك إنما ترجم جزءا منك..
نعم، الشيطان يجري منك مجري الدم.. الشيطان جزء منك، لا يمكن للشيطان أن ينتصر عليك، أن يخدعك إلا بمداخل هي جزء منك..
لا يمكن أن يدخلك إلا من خلال ثغرات معينة.. ربما هي جزء من طبيعتك البشرية، ربما يمكن أن تكون مصدرا للقوة لو أحصنت، لكنها ستكون مداخلا للشيطان، وبالتالي لمهالكك، لو تركتها دون تحصين..
كل حكايات هزيمتنا أمام إبليس بدأت بباب مفتوح، بثغرة لم تحصن جيدا، بسد لم يحسن بناءه..
تسلل إلى آدم بثغرة **الرغبة في الترقي..**

«أن تكونا ملكين» (الأعراف: ٢٠)

أو الرغبة في **الخلود..**

«أو تكونا من الخالدين» (الأعراف: ٢٠)

أو ثغرة الرغبة في **التملك**

«هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» (طه: ٢٠)

ويتسلل إلينا دوما بثغرات مماثلة..
كم تسفح قيمنا باسم الرغبة في التقدم والرقي والتطور.. كم خدعتنا شعارات كهذه وجعلتنا نسقط في مهالك وفي درك أدنى من درك..
إنه الفخ الإبليسي ذاته، بأغلفة جديدة ومتنوعة..
في كل مرة ينتصر إبليس علينا، يكون قد دخل من واحدة من هذه الثغرات..
وكلها ثغرات يمكن أن تكون مصدرا للقوة والنصر، يمكن لرغبتك في التقدم والرقي

---

٩٨ صحيح البخاري ٢٠٣٩

أن تقودك إلى الاقتراب من ذاتك أكثر، فالملائكة ليسوا بالضرورة أرقى من آدم وهم الذين سجدوا له، كذلك أي رقي وتقدم يجب أن يرتبط باقترابك أكثر من ذاتك..
رغبتك في الخلود يمكن أن تقودك إلى ترك بصمة تبقى بعدك.. إلى مغادرتك للعالم - عند وفاتك - وهو أفضل مما كان يوم جئته..
رغبتك في الملك الذي لا يبلى يمكن أن تقودك - عندما توظفها على نحو صحيح - إلى الباقيات الصالحات، العمل الصالح الذي يستمر في نفعه للمجتمع حتى بعد رحيلك، أي إلى العمل المؤسسي الذي يبقى بعد زوال الأفراد.. والذي سيؤدي إلى الحصول على أجر أخروي لا يبلى..
كل مداخل الشيطان يمكن أن تسد فتصير معابرا إلى النسخة الأفضل منك.. لن يكون ذلك دائما أو كاملا حتما.. لكن هذا جزء من طبيعة الحياة.. طبيعة المهمة التي أوكلت لنا فيها..
معركتك مع الشيطان هي مواجهة مع ذاتك، مع الشيطان الذي يجري منك مجرى الدم، في كرياتك في نخاعك في أعصابك..
المعركة أحيانا تكون مواجهة ضارية.. حرب طاحنة..
لكنها في أغلب الأحيان تكون مثل حرب استنزاف مستمرة على وتيرة واحدة.. وهذا جزء من استراتيجية العدو.. أن يجعلك تشعر أن الأمور اعتيادية وروتينية، فتخف دفاعاتك هنا وتفتر هناك، ثم يباغتك بضربة تطرحك أرضا..
نعم. ويمكن أيضا لحرب الاستنزاف هذه أن تكون جزءا من استراتيجيتك أنت، أن تكون بمثابة تدريب مستمر على المواجهة من أجل أداء أفضل في كل خطوة..
المواجهة مستمرة في أشكال مختلفة.
قد تخسر معركة. وقد تربح في أخرى.. قد يخيل لك أنك هزمت تماما، أو أنك انتصرت تماما، لكنك مخطئ في الحالتين، لا نصر حاسم ولا هزيمة حاسمة إلا في الجولة الأخيرة التي لن تعرف أنها أخيرة لأنها تسبق موتك..
لا نصر حاسماً هناك.. لو اعتقدت ذلك لدخل لك من شعورك الزائف بالأمان.. ولا هزيمة حاسمة إلا إذا آمنت أنك هزمت وأنه لا قيام لك..
ليس من (كش مات) في مواجهتك مع الشيطان..
لكن دوما هناك، (كش مات)..

** * * * **

ترميه بالحصى الصغيرة في يديك..
ليست (حجارة كبيرة)، بل صغيرة، أكبر من حبة الحمص وأصغر من حبة البندق، ليس فقط لأن الحجم الأكبر قد يؤذي من حولك، ولكن لكي تدرك أن الأثر التراكمي – البطيء ولكن المستمر - هو ما يجدي على المدى البعيد..
الحجر الكبير لا يضر بين الحين والآخر في هذه المواجهة، بل إنه قد ينفع، **لكن الأساس هو تلك الحصى الصغيرة.. الجمرة التي لا تنطفئ.. تبقى تقيد.. تنبض بالنار والنور في أعماقها..**
الجمرة! أنت ترمي بالجمرة على الشيطان، الشيطان الذي يجري منك مجرى الدم، ترمي بالجمرات على الحائط أمامك، لكنك تعرف أن مواجهتك الحقيقية، أن ميدان رميك وتصوييك الحقيقي هو في ذاتك، وأنك بينما ترمي الجمرة بيدك بعيدا نحو الحائط، فإنها يجب أن تسقط فيك.. مرماك الحقيقي هو في مجرى الدم منك..
ليس ذلك يسيرا قط، كقابض على الجمر، سترمي بالجمر على بعض من ذاتك..

** * * * **

سترجم بالجمرات ضعفك.

سترجم كسلك.

تخاذلك.

سترجم بالجمرات (أناك) التي تمنعك من أن تكون جزءا نافعا من الـ (نحن).

سترجم غضبك فيما لا يستحق الغضب، وبرودك على ما يستحق الإنفجار والثورة..

سترجم سذاجتك.. جهلك.. وتصورك أنك الأعلم دون علم.

سترجم شعورك بالنقص تجاههم، وتجاه كل ما ينتجون ولو كان السم الزعاف..

سترجم نسياتك. سترجم تناسيك. سترجم نكرانك. سترجم إنكارك. سترجم هروبك المستمر من الحقائق. سترجم دفنك لرأسك في الرمال كي لا ترى الحقيقة..

سترجم عبوديتك لشهواتك.. سترجم وجهك الآخر الذي لا يعرفه أحد سوى عالم السر والعلانية..

قائمة رجمك طويلة.. ولعلك أنت من يعرفها، أنت من يجب أن يحددها..

** * * * **

سبع جمرات في يدك؟

لن تهرب هنا من معنى الرقم سبعة، الاستمرارية والدأب، طفت سبعا وسعيت سبعا، في إشارة لطوافك وسعيك في كل حياتك، واليوم ترمي سبعا في إشارة إلى أن معركتك مع الشيطان ستبقى مستمرة.. إنها معركة دائمة.. دوام الطواف والسعي.. لا حياد في المعركة.. كما لا هروب من الطواف..

إن لم تطف بالبيت، فستجد نفسك تطوف بغيره، ربما بيت آخر مبني على قيم أخرى ومنظومات حضارية مختلفة.. حتى لو توهمت أنك لا تطوف إلا حول (حريتك الشخصية)- بل بالذات لو توهمت ذلك!

وإن لم تسع بين الصفى والمروة، **فستجد نفسك غالبا تسعى في سياق آخر، بين جبلين ربما يخفيان خلفما هاوية بلا قعر..**

كذلك إن لم ترم، في حياتك، هذه الحصى نحو ما يجب رميه، إن لم تواجه الشيطان عند مداخله في ذاتك.. فستجد نفسك أسيرا عنده بلا شك..

لا حياد في هذه المعركة.. لا يمكن لك أن تعقد هدنة..

اي اتفاق لوقف إطلاق النار، سيكون معناه، أنك خدعت وغرر بك.. كما حدث مع أبيك، يوم كان ما كان..

** * * * **

سبع جمرات، ستذكرك حتما بالموبقات أو بالكبائر السبع!..

«اجتنبوا الكبائر السبع ، فسكت الناس فلم يتكلم أحد ، فقال : ألا تسألوني عنهن؟ الشرك بالله وقتل النفس و الفرار من الزحف و أكل مال اليتيم و أكل الربا وقذف المحصنة و التعرب بعد الهجرة»[٩٩].

«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ قَالَ «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ»[١٠٠].

العدد سبعة سيربط بين الجمرات التي في يدك، وبين تلك الكبائر والموبقات التي أمر عليه الصلاة والسلام باجتنابها (أي بالوقوف في الجنب الآخر، في الضفة الأخرى المعاكسة تماما، للضفة أو الجنب الذي يحتوي على هذه الموبقات..)..

---

٩٩ السلسلة الصحيحة ٢٢٤٤

١٠٠ صحيح البخاري ٢٧٦٦

أنت تعرف تماما أن عدد الكبائر أكثر من هذا، وأن نصوصا أخرى صحيحة عنه عليه الصلاة والسلام قد عددت تسعا منها[١٠١] (زادت عقوق الوالدين واستحلال البيت الحرام).

وأن كبائر أخرى، قد حددتها أحاديث صحيحة أخرى، مثل الزنا والخمر، لم ترد في قائمة التسعة أو السبعة، رغم أن الخمر مثلا قد وصفها عليه الصلاة والسلام في سياق بأنها أم الفواحش وأكبر الكبائر[١٠٢].

لكن الأمر مع الأعداد ليس في حقيقتها الرياضية المباشرة، بل في أن تستمر بمحاربتها دوما، وأن تعلم أن كل ما يؤدي إليها، إلى أي منها، سيكون من هذه الكبائر، أن من يقرأ القرآن ليحاول لي معانيه وتحليل حرامه، ستكون قراءته في هذه الحالة كبيرة من الكبائر..

الحصى في يدك، رغم أنها سبعة فقط، مثل الموبقات السبعة، فإنها ستذكرك أن عدد الجبهات، مثل عدد الكبائر، أكبر من ذلك..

** * * * **

ولن يمكنك أن تهرب من امتداد المعاني في تلك الموبقات السبعة..

فالشرك بالله، الذي هو أول الكبائر، لا يعني فقط السجود لأصنام، أو التقرب إلى الله من خلال معبود ما.. بل يعني أيضا الرجوع إلى منظومة قيمية أخرى، تحكيمها في قيم حياتنا وقراراتنا وأولوياتنا.. ربما لا نسجد لصنم في هذه الحالة، بل قد ننظر باستهجان إلى من لا يزال يفعل ذلك، ونتجاهل أن للأوثان أشكالا متعددة، وأن أخطرها هو ذاك الذي لا يتجسم في شكل محدد، بل يكون بلا شكل فيتسلل بسهولة ليسكن في رأسك وأفكارك..

والفرار من الزحف، ليس فقط هربا من مواجهة عسكرية أمام العدو، بل هو ذلك الهرب من تحمل المسؤولية أيضا، من مواجهة معركة البناء، معركة القيام بما يجب القيام به وكل ما تتضمنه من مواجهات طاحنة.. وأيضا بما تتضمنه من حروب استنزاف مستمرة..

الفرار من هذا، بأي عذر أو ذريعة، هو فرار من الزحف أيضا.. موبقة من الموبقات السبع أيضا..

التعرب بعد الهجرة هو كبيرة تطاردنا أيضا، سيبدو للوهلة الأولى أنها انتهت بانتهاء

---

١٠١ الجامع الصغير وزيادته ٨٧٣٤ وحسنه الألباني

١٠٢ السلسلة الصحيحة ١٨٥٣

الأعراب وانتهاء الهجرة، **لكن ماذا كان الأعراب يفعلون غير أنهم لا يفعلون شيئا، لا ينتمون لمجتمع، يعيشون على الهامش..**

أليس هذا ما يحدث اليوم أيضا، أن (نتعرب) ولو سكنا أفخم المنازل وتعلمنا اللغات الأجنبية واستخدمنا أحدث الأجهزة؟ **أليس جوهر التعرب هو اللا انتماء؟ اللا إنتاج؟ اللا فعل؟.. أليس العيش على الهامش - بعيدا عن الطواف الحقيقي بمحور ما - هو جوهر التعرب؟ أليس هذا ما نفعله فعلا وحقا، رغم الشعائر ورغم الشعارات؟..**

تحاصرك الحصى السبع ومعانيها.. تذكرك أن الحصى التي ترجم بها، هي حصى تبني بها أيضا، وأن ما يمكن أن تهدم به، هو ذاته ما يمكن أن تبني به..

تذكرك الحصى بالوجه الآخر لعملية البناء، الهدم.. **لا يمكنك أن تبني حقا دون أن تهدم بعض ما يجب هدمه.. ولا يمكن أن تهدم فقط، دون أن تربط مشروع هدمك بالبناء..**

** * * * **

ثمة واقعة صغيرة حدثت عند رمي الجمرات..

تقدم رجل ليسأل الرسول عليه الصلاة والسلام سؤالا أثناء رمي الجمرات.. فأعرض عنه الرسول إلى أن أنهى الرمي، ثم أجابه..

نعرف السؤال والجواب، فهو مما اشتهر على الألسنة..

لكننا نسهو عن السياق..

نادرا ما نتنبه إلى أن هذا الجواب، هذا الحديث الشريف، قد قيل في رمي الجمرات، وأن هذا قد يمتلك دلالات للجواب الشريف..

عَنْ أَبِى أُمَامَةَ قَالَ عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - رَجُلٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الأُولَى فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ فَسَكَتَ عَنْهُ فَلَمَّا رَأَى الْجَمْرَةَ الثَّانِيَةَ سَأَلَهُ فَسَكَتَ عَنْهُ فَلَمَّا رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَضَعَ رِجْلَهُ فِى الْغَرْزِ لِيَرْكَبَ قَالَ «أَيْنَ السَّائِلُ». قَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ ذِى سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[١٠٣].

ليس صدفة أن يكون سياق حديث «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» قد حدث عند رمي الجمرات..

وأنه عليه الصلاة والسلام لم يرد على سؤال السائل «أي الجهاد أفضل؟» إلا بعد

١٠٣ سنن ابن ماجة ٤١٤٨ السلسلة الصحيحة ٤٩١

أن أكمل الرمي..

كلمة الحق عند سلطان جائر، هي جزء من المعادل الواقعي الحياتي لشعيرة «رمي الجمرات»..

** * * * **

سيستمر الرجم للأيام التالية ليوم النحر، وهي أيام التشريق الثلاثة، حتى بعد أن تكون قد تحللت من إحرامك..

وسيكون ذلك عبر خطوات محددة في الوقت، وفي أماكن محددة أيضا.. (الجمرة الصغرى والوسطى..)..

سيكون مجموع عدد الحصى التي سترمي الشيطان بها هو سبعون..

وسيكون كل ذلك تأكيدا وتذكيرا لك أن المعركة مستمرة..

لا مفر هناك منها..

ولا مهرب عنها..

** * * * **

يوم أحد، قال عليه الصلاة والسلام لسعد **«ارم سعد، فداك أمي وأبي..»**[١٠٤]

فهل تريد أن يكون رميك – في مواجهتك الحقيقية مع الشيطان- مما يستحق قولا كهذا..

أم أنك قد قررت دورا كرماة أحد؟

أم أنك ستكون قد تخلفت أصلا عن الزحف؟ وتعربت بعد الهجرة..؟!

---

١٠٤ صحيح البخاري ٢٩٠٥

عن الجيل الآخر، القادم لا محالة..

تقديم الذبائح أمر تشترك فيه الكثير من الأديان السماوية.. بل وحتى غير السماوية.. وهو أمر يجب أن لا يشعرنا بالحرج ولو قليلا.. فنحن نؤمن أن الأصل في الفطرة هو التوحيد، أن كل انحراف لاحق وطارئ على الفطرة قد يحمل معه جزءا مما أقرته تلك الفطرة، سيوظف حتما في اتجاه خاطئ، لكن هذا لن يجعلنا (نخجل) أو (نشكك) في أمر كان موجودا بالأصل فقط لأن الوثنيين صاروا يقلدونه.. فلنتذكر أن الوثنيين يتنفسون أيضا..

الأضاحي في الإسلام مختلفة، في الديانات الوثنية كانت الذبائح تلطخ الأوثان، وكان الكهنة ينالون اللحوم، حتى في اليهودية، كان الكهنة ينالون الحصة الأكبر من الذبائح، وكان لا بد أن تقدم في الهيكل، ومن ثم فقد توقفت تماما بسبب اختفاء الهيكل منذ القرن الميلادي الثاني..

لكن في دين بلا هياكل ولا كهنة، جعلت الأرض كلها مسجدا له وطهورا، فإن الأضحية التي تذبح لا تقيد ببناء أو مسجد، بل تذبح في منى، في أرض منى في الهواء الطلق..

ولا كهنة هناك يستأثرون بالذبائح.. ليس سوى التكافل الاجتماعي، ليس سوى اللحم يوزع على الفقراء..

هذه الشعيرة إذن تسفك دم الحيوانات، لكي تحقق (الشبع) في هذا العالم المليء فقرا وجوعا وظلما وتناقضا، العالم الذي يموت فيه البعض من أمراض السمنة أو أثناء عمليات شفط الدهون والتنحيف، وآخرون يموتون جوعا..

هذه الشعيرة التي تطبق في يوم العيد، وقد اقترب الحج من نهايته، تذكرك بما يجب أن تؤديه لاحقا بعد الحج، تذكرك بما يجب أن يكون الحج قد جعلك أقدر وأقوى لكي تمارسه وتؤديه.. **أن تعود وأنت أكثر إيمانا بدورك في جعل هذا العالم أفضل، في جعله أقل فقرا وأكثر عدالة، جعله أكثر توازنا..**

تذكرك الشعيرة صباح العيد بما يجب أن تذكره طيلة أيام السنة، بمسؤوليتك كمسلم، كخليفة في الأرض، **في أن تجعل هذه الأرض أفضل.. في أن تجعلها كما يريدها خالقها، وخالقك، أن تكون..**

** * * * **

الشعيرة تذكرك أيضا بحقيقة أخرى مرتبطة بما سبق..

مجرد قيامك بذبح مخلوق آخر من مخلوقات الله، **تذكير لك بموقعك في هذا الكوكب.. موقع السيادة المشروطة، موقع الاستخلاف المحدد بصلاحيات لا يمكن تجاوزها..**

نعم.. أنت المخلوق السيد في هذا العالم.. أنت المخلوق الأهم، سخرت الأرض بمواردها وثرواتها، بباطن خيرها وظاهره لتكون تحت تصرفك فيما خولت فيه..
أنت المخلوق الذي سجدت له الملائكة، وكان ذلك علامة رمزية على تسخير كل المخلوقات لك، ليس بالمطلق، وليس كما تشاء، وليس دون ضوابط أو حدود، لكن كل ما في الأرض هو ضمن امتحانك، ضمن مسؤوليتك..

ضمن اختبارك..
هل سيقول لك أحدهم شيئا عن الرفق بالحيوان..
نعم، **الذبح برفق ورحمة حسب الشروط..**
لكن أي تماد في موضوع الرفق أكثر من ذلك، سيكون مساسا بوظيفتك..
بمكانك.. بمكانتك..
بالإنسان فيك..
إن تجاوزت الشروط والصلاحيات، وإن تنازلت عنها، في الحالتين سيكون هناك مساس لما خلقت لأجله..

** * * * **

والنحر يربطنا بذلك الموقف الإبراهيمي الذي لا ينسى، المحفور في ذاكرتنا ووعينا..
يوم (**أسلم**) هو وابنه.. يوم وصلا سوية للذروة في التسليم لأمر الله..
يوم (وتله للجبين).

ذلك الموقف الهائل، سيأتي ليحضر، ليكون شاخصا، في يوم العيد.. يوم النحر..
تعودنا أن نقبل الأولاد يوم العيد.. أن ندخل على قلوبهم الفرحة..

لكن النحر، يذكرنا بما هو أهم من ذلك، يذكرنا بما يجب أن نربي أولادنا عليه، نتخذ من أولادنا في الغالب (قضية) نعيش من أجلها، قضية تغرق في التفاصيل: مأكلهم مشربهم ملبسهم صحتهم لهوهم تعليمهم..

لكن ما هو أجدر بالاهتمام هو أن ننشئهم على **قضية**.
ننشئهم - وأنفسنا - على الأولويات التي تجعل طاعة الله مقدمة على كل شيء آخر..
لا يقول لك أحد اذهب واذبح أبناءك، فما حدث في الوحي كان امتحانا لإبراهيم وابنه، وهو مثل ودرس لنا.. درس لكي تعرف بما يجب أن تضحي به، درس لكي تعرف ما الذي يجب تقديمه على المذبح، درس لكي تدرك معنى ما تقول عندما تقول «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين».. لأن هذه الجملة تتضمن (أولادك) أيضا.. هم أيضا، مثل صلاتك ونسكك ومثل كل محياك ومماتك، لله.. لكن الله كفاك صعوبة تجربة أن تضعهم على المذبح، كل ما يجب أن تفعله هو أن تضع كل ما يمنعهم من أن يكونوا كما أراد الله على المذبح.. كل ما يجب أن تفعله هو أن تربيهم ليكملوا الدرب، ليكونوا كما أراد لهم خالقهم أن يكونوا..
النحر، يوم العيد، يذكرك بأبنائك.. لقد أزيح عنك هم وعبء التضحية بهم، لكن عليك أن تضحي من أجل أن يكونوا كما يجب.. يذكرك بل ويلزمك بـ (التقوى) في تربيتهم..

«وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» (الحج: ٣٦-٣٧)

** *** **

النحر، شعيرة تذكرك بأنك السيد في هذا العالم..
وبأن كونك السيد في العالم يلزمك بأن تعمل على تحقيق العدالة..
ويذكرك أيضا بأن تقدم على المذبح **كل ما يمكن أن يعيق تربيتك لأبنائك** على النحو الذي يريده خالقهم.. تضحي من أجل ذلك وإلا ضحيت بهم.. بطريقة ما.
كل هذا سيذكرك به النحر يوم النحر، لو تفكرت قليلا فيه..
ربما لأجل هذا قال عليه الصلاة والسلام..

ما عمل ابن آدم من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض فيطيبوا بها نفسا[١٠٥]

---
١٠٥ مشكاة المصابيح وصححه الالباني ١٤٧٠

فلنتذكر أن الدرب إلى ما نريده، إلى أن تثبت سيادتك (المشروطة) في هذا العالم، إلى تحقيق العدالة، إلى فداء أبنائك..

هذا الدرب ، لن يكون معبدا بالورود..

بل بالدم، على الأغلب..

ليس خيارا تختاره، بل حقيقة من حقائق العالم..

حقيقة تتذكرها، صبيحة العيد.

حلق عاليا..

ثم سيأتي الموس ليحلق لك شعرك.
إنه يوم النحر.. ويوم الحلق أيضا..
وللحلق شعور عظيم.. لو عرفته النساء، لربما تأسست حركات وجمعيات نسائية تطالب بإصدار فتوى في مساواة المرأة بالرجل في هذا تحديدا..
عندما يمر الموس على رأسك، تشعر أنه يزيح أكثر من مجرد الشعر.. تشعر أنه يقشرك طبقة تلو أخرى..
يتساقط شعرك على كتفيك.. فتتساقط معه أشياء أخرى.. **تشعر أن مشاعر قديمة لك تسقط، تشعر أن ذنوبا لك تسقط.. يمر الموس ليكشط شعرك، فتشعر أن ما يكشط حقا هو ما ران على قلبك.. تشعر أن ما يزال ليس الشعر، بل ذاك الصدأ المتراكم على قلبك، على عقلك، على روحك..** كنت تعتقد أن هذا الصدأ قد صار جزءا منك، كنت قد توهمت أنه صار جزءا من روحك، كنت قد فقدت القدرة على التمييز بين ما هو أنت حقا، وبين ما تراكم عليك..
يمر الموس، رأسك يصبح عاريا للشمس والهواء، تستنشق الهواء على نحو أعمق، الهواء يكاد يدخل رأسك.. **تشعر أنك تتنفس للمرة الأولى.. يتسع صدرك كما لو كنت تريد أن تأخذ كل أوكسجين العالم إلى رئتيك.. تكاد تلهث.. تكاد تحلق عاليا.. كما لو أن شعرك كان قيودا تشدك إلى الأرض..**
لكن لا..
ليس الشعر الذي زال هو الذي كان يمنع كل هذا..
بل هو الشعور المرتبط بالشعيرة الذي يجعل من حلاقة الشعر بابا إلى التحليق إلى الأعلى، إلى اكتشاف ذاتك، إلى الشعور بأنك الآن، وأنت تتحلل من إحرامك، وتخطو أولى الخطوات نحو العالم خارج (الحرم).. وأنت تعود إلى العالم الذي يجب أن تعمل على إصلاحه، الشعور بأنك الآن، قد صرت شخصا آخر.. شخصا أقوى.. شخصا قد أزال مكامن ضعفه..
على الحدود بين (الإحرام) و(التحلل)، حيث الزمان والمكان يتداخلان، مررت بتجربة مختلفة جدا، تجربة تشبه قصص الخيال العلمي، بفارق أنها خيالية لدرجة أنه لن يتمكن أي مخرج من تجسيدها على الشاشة، وبفارق أنها حقيقية.. لقد مررت

بها.. لقد عشت رحلة الداخل والخارج، رحلت إلى ذاتك أول الخلق، وطفت مع إبراهيم، وسعيت مع هاجر.. ومددت يدك لتساهم في البناء مع إسماعيل..
نعم، كالخيال ولكنها الحقيقة..
على الحدود الفاصلة بين العالمين، تقف أنت، وشعرك يتساقط، كما لو كنت تترك تذكارا على تلك الحدود، أو كما لو أنك تترك علامة على جسدك تدل أنك مررت من عالم (الإحرام) إلى العالم الآخر..
نعم، ثمة شعائر لقص الشعر في العديد من الأديان، سماوية أو غير سماوية، لكنها ترتبط غالبا ببلوغ سن معينة (ثلاث سنوات عند ذكور اليهود مثلا).. أما هنا، فأنت تؤشر لولادة جديدة بمعزل عن عمرك السابق، لقد ولدت للتو، وهذه الشعيرة تذكرك بأنك إنسان جديد، يخرج من الإحرام وقد نزع عنه حياته السابقة وذنوبه السابقة وكل ما شده إلى ذلك الإنسان الآخر الذي كانه..
شعيرة حلاقة الشعر، تؤشر أنك قد أتممت كل ذلك، أنك تعبر الآن فوق خطوط الحدود، أنك تستعد الآن لدخول العالم بالأبعاد الثلاثة فقط، بعدما كنت بعالم متعدد الأبعاد..

** * * * **

تساقط شعرك على كتفيك..
لا شعر هناك على رأسك..
رأسك يبدو جديدا الآن..
امنحه الفرصة ليثبت ذلك.
امنحه الفرصة ليثبت أنه صار على كتفي إنسان آخر..

** * * * **

أيام فقط ويعود الشعر لينمو كالزغب..
دعه ينمو في جسد إنسان جديد.
دع هذا الشعر الجديد، يكون شاهدا على شخص آخر.. شخص أفضل، أقرب إلى ذاته.. أقرب إلى ما خلق لأجله..
كل خلية من خلايا شعرك الجديد، الذي لم ينم بعد، تتطلع إلى أن تنمو فوق شخص أفضل، شخص ساعده الحج في أن يرحل إلى ذاته حقا..

لا تخيب أمل خلايا شعرك..!

أحمد

حجة الوداع، حجة اللقاء..

كل ما نعرفه عن مناسك الحج وشعائره وسننه، جاء من حجة الوداع.. الحجة الوحيدة التي قام بها عليه أفضل الصلاة والسلام بعد أن صار الحج ركنا من أركان الإسلام.. وقد حدثت بعد فتح مكة في السنة العاشرة للهجرة..
حجة الوداع لم نعرف منها شعائر وأركان وسنن الحج فحسب بل كان فيها خطبة، خطبها عليه الصلاة والسلام وهو على عرفة، ولا يزال صداها يتردد عبر القرون..
تلك الخطبة، خطبة الوداع، لا مفر من استحضارها وأنت هناك في عرفة، في تلك الأرض، أمام ذلك الجبل، تردد صوته عليه الصلاة والسلام وهو يخطب في أكثر من مائة ألف من الحجيج، **وتردد معه صوت (ربيعة بن أمية بن خلف) الذي كان يصرخ حاملا كلماته عليه الصلاة والسلام لجموع الحجيج** الذين لم يتمكنوا من سماع صوته الشريف[106] ..
تنصت..
تحاول أن تجد الصدى المتردد، المتداخل من الصوتين، صوته عليه الصلاة والسلام وصوت ربيعة، **هنا في هذه الأرجاء تردد صوته عليه السلام، ذبذبات الصوت الشريف لا بد أنها مختزنة في عمق المكان، ستحاول أن تضبط تردداتك الداخلية لكي تلتقط تلك الذبذبات.. ستستجوب كل ذرة تراب، رمل، كل قطعة حجر، كل حصاة في المكان، ستسألها عن بقايا صوت مر عليها قبل أكثر من ألف عام..**
ستنصت وستجد الصدى وقد وجد دربه إلى داخلك.. تلك الأمواج الصوتية، التي تحمل كلماتها، تكاد تكون محفورة في أعماقك، كما لو أنك جئت الحج وهي معك، منقوشة في أعالي الروح أكثر من وجودها على أي حجر أو حصاة في المكان..
تنبع الأمواج الصوتية من داخلك، تضربك بعمق مثل موجة عملاقة تضرب غريقا متمسكا بخشبة وقد فقد الوعي، فيعود إليه وعيه من أثر الضربة..
أمواج في داخلك، تحمل صوته عليه الصلاة والسلام..
أولى بشائر الطوفان..
طوفان محمدا!

** * * * **

---

١٠٦ صحيح ابن خزيمة ٢٩٢٧ وحسنة الألباني.

«يا أيها الناس أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»[١٠٧].

يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام..

لكن الحرمة الثلاثية (الشهر، اليوم والبلد) هذه لا تحدها حدود زمان ومكان، بل انطلق منها عليه الصلاة والسلام ليؤكد على حرمة الدم والعرض والأموال..

الأمة الجديدة، ستقوم على هذه الحرمات الثلاث، وستكون هذه الحرمات، أساسا من أساسات التماسك الاجتماعي، أن دم الناس حرام، ومالهم حرام، وعرضهم حرام..

ستأتي أمم أخرى وتجارب حضارية أخرى، تحل الدم وتعتبر ذلك أساسا في قيامها ونشوئها، وتحل المال وتعتبر ذلك أمرا بديهيا، وتحل العرض وتهدر كرامة البشر، وتعتبر ذلك مرة أخرى من بديهيات الحياة وضرورياتها..

ستقوم أمم تقوم على إبادة أمم أخرى، ووضع المتبقين منها في محميات ومتاحف طبيعية، وستقوم أمم على نهب ما للأمم الأخرى عبر استعمار ونهب وسلب لثرواتها ومقدراتها، بل وسيكون النهب جزءا من طبيعة العلاقة حتى بين أبناء المجتمع الواحد، حيث ستنشأ تجارب حضارية تنفي الملكية الشخصية تماما، وأخرى ستحتكر النسبة الغالبة من ملكية كل شيء لملأ لا تتجاوز نسبته الـ ١٪...

وستكون هناك مجتمعات تروج أن لا عرض هناك ولا شرف، وأن العلاقات الجنسية الحرة بين البشر إنما هي خيار شخصي لا عواقب فيه (طالما استخدمت الوقاية الصحية!) .. وسيعد ذلك علامة من علامات التحرر والتقدم..

لكنه أوصانا وهو يودعنا: الدم، المال، والعرض..

«أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ»[١٠٨]

لقد انتهت الجاهلية!.. الأمر ليس أمر أصنام حطمت، **الجاهلية ليست أصناما وأوثانا فحسب، بل هي علاقات اجتماعية واقتصادية وأعراف ليست أقل جهلا وجاهلية من عبادة الأصنام، بل هي ناتجة من نفس الجهل ونمط التفكير الخرافي الذي أوصل إلى عبادة الأصنام..**

الثأر – الجاهلي، القبلي، العشائري - موضوع - الثأر الذي كان يجر قبائل العرب

---

١٠٧ صحيح البخاري ١٦٥٢

١٠٨ صحيح مسلم ٣٠٠٩

إلى بحور من الدم والدم المقابل، موضوع، كما لو أنه لم يكن..
والربا، الربا الذي كان يؤخذ أضعافا مضاعفا في الجاهلية، الذي كان ضحاياه يضطرون لبيع أبنائهم أو أنفسهم لسداده، هذا الربا موضوع، مستحقاته ملغاة.. أولئك الذين كانوا يرزحون تحت ضغط دفع مستحقات الربا، صاروا أحرارا، لقد انتهت الجاهلية..

«وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»[١٠٩]

اختار عليه الصلاة والسلام أن يبدأ بآل عبد المطلب في الحالتين: الثأر والربا..
ابن ربيعة هو عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، قتلته هذيل في الجاهلية وهو مسترضع عند بني ليث، وكان أبوه (ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام) يطالب بدمه، وها هو عليه الصلاة والسلام يضع هذا الدم ويضع المطالبة به.
وكان العباس بن عبد المطلب، عم النبي، شديد الثراء، يقرض أناسا من العرب بالربا، [١١٠]وكان له مستحقات على هذا عند الكثيرين..
ها هو عليه الصلاة والسلام يبدأ بعمه، فلا يبقي من مستحقاته الربوية سوى رأس المال الذي أقرضه ابتداء..
إنه يبدأ بآله، كي لا يكون هناك حجة لأحد.
لقد مزقنا صفحة الجاهلية.. بكل اقتصادها وعلاقاتها وأوثانها..
ويجب أن لا نسمح بعودتها، لا الثأر، ولا الربا..
حتى لو تقنع كل منهما بأقنعة (تشرعنه).. بل بالذات عندما يحدث ذلك..
كما لو أنه عليه الصلاة والسلام، يحذرنا عند الوداع، من أشكال مختلفة للثأر والاستغلال.. قد تجد (أقنعة) تجعل لها أسماء غير الثأر وغير الربا..
قد ننجر إلى ثأر جاهلي أعمى، ونحن نجد له نصوصا شرعية تغير من مسماه دون مضمونه..
وقد نجد أنفسنا في لعبة استغلال عولمية ضخمة، نجد لها من الحيل الشرعية وأقوال الفقهاء (الذين أدلوا ما أدلوا به في سياقات مختلفة) ما يجعلها (مقبولة) عند البعض..

١٠٩ صحيح مسلم ٣٠٠٩
١١٠ تفسير ابن أبي حاتم ٢٩٥٦

عند الوداع، كان يقول لنا عليه الصلاة والسلام، أن نحذر من ذلك..

«فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ. فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»[١١١].

وها هو يوصي بالنساء، كل تلك الدعاية الغربية التي غسلت عقولنا لعقود، والتي نجد البعض منها مصدقا لها لدرجة اتخاذ موقف دفاعي مسبق تجاه قضايا المرأة، بل بالأحرى تجاه النظرة الغربية لقضايا المرأة، أي تجاه النموذج الغربي لقضايا المرأة..

ها هو عليه الصلاة والسلام يوصي بالمرأة، لكنه يضع تقوى الله كمعيار أساسي في العلاقة مع المرأة.. كما لو أنه يقول، في وداعه، **أن المرأة ستكون ساحة معركة للقيم، وأن الحل ليس بأسلمة النموذج الغربي، بل بتقوى الله في المرأة**، حتى لو كان ثمة (استفظاع) لمسألة الضرب غير المبرح، تجاه (ذنب) مبرح، كالخيانة!

«وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ». [١١٢]

البوصلة!.. كتاب الله، الاعتصام به هو الحل.. أي انحراف عن تلك البوصلة سيؤدي حتما إلى ضياع وتخبط في الطريق.. ربما سيكون الأمر انحرافا بسيطا في بدايته، يزداد مع الوقت حتى يخرجه عن الجادة، وقد يكون كبيرا منذ البداية، كأن يكون في الاتجاه المعاكس، أو خروجا واضحا منذ اللحظة الأولى عن هذا الطريق إلى طريق آخر، إلى منظومة حضارية مختلفة، مغايرة وربما معاكسة لقيم هذا الكتاب ومنطلقاته..

أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟. قَالُوا نَعَمْ. قَالَ «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، (ورب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه[١١٣]) فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ[١١٤] ..

يريد عليه الصلاة والسلام منا، أن نكون جزءا من هذا النقل المستمر لوصاياه، من جيل لآخر، تلك الأمواج الصوتية – بشائر الطوفان! - تنتقل عبرنا أيضا، نكون نحن وسائل نقلها.. صوته عليه لصلاة والسلام، ينتقل عبرنا أيضا، كما وصلنا عبر

١١١ صحيح مسلم ٣٠٠٩
١١٢ صحيح مسلم ٣٠٠٩
١١٣ صحيح ابن ماجة للألباني ٢٢٧
١١٤ صحيح البخاري ١٧٤١

آخرين..
رب (مبلَغ) - وصله الأمر لاحقا - أوعى من سامع - حضر القول وشهده؟
رب حامل فقه غير فقيه؟
ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه؟
سنضع خطا تحت هذا كله، لنعود له لاحقا.. ونتذكر أنه يحذرنا أن التفريط بما يقول، قد يرجعنا إلى نقطة الصفر الجاهلية.. حيث كان العرب متفرقين يضرب بعضهم رقاب بعض..

«اتقوا الله ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم؛ تدخلوا جنة ربكم»[115] ألا أخبركم بالمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[116] ..

«ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله والنصيحة لولاة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[117]

التقوى هي المعيار، الشعائر تؤدى نعم وحتما، لكن التقوى هي المعيار الذي يتحقق من خلاله صدق هذه الشعائر.. لذلك فهو عليه الصلاة والسلام يحدد (السلوك) العملي التطبيقي الذي تنتقل فيه الفكرة إلى التطبيق، تكون على المحك، فتثبت فاعليتها أو تقدم برهان فشلها، لذا كان تعريف (المسلم) هنا لا يركز على (أركان إسلامه) – التي ذكرها عليه الصلاة والسلام - بل يركز هذه المرة على تحويل هذه الأركان إلى أركان لبناء اجتماعي مسلم.. المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، **لأن لسانه سيكون مشغولا بأشياء أكثر جدوى، ويده ستكون منهمكة في البناء والعمران..** معنى الجهاد يخرج من المعنى العسكري (الضيق) لكلمة جهاد (وهو المعنى الذي لا مفر من الإقرار بوجوده وأهميته وفاعليته في الكثير من الأوقات والظروف التاريخية التي تمر بها الأمة والمجتمع) ولكنه عليه الصلاة والسلام وهو يودعنا، يخرج (الجهاد) من هذا الحيز ليطلقه في سماء واسعة: المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، وطاعة الله تتضمن أحيانا القتال بالتأكيد، لكن (طاعة الله) أوسع من مجرد ذلك، طاعة الله تتضمن (الحياة في سبيله)، تتضمن بناء ما أمر الله

١١٥ السلسلة الصحيحة ٨٦٧
١١٦ مسند الإمام أحمد ٢٤٠٠٤ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥٤٩
١١٧ سنن ابن ماجة ٣٠٤٧ بتصحيح الألباني

ببنائه.. تتضمن الاستخلاف في الأرض بإعمارها وعمرانها، تتضمن إقامة العدل في الأرض.. كل هذا سيواجه بصعوبات، النفس البشرية قد تتهاون أمام هذه المهام، قد تفضل أن تلعب دور (عابر سبيل) لا يترك أثرا..

مغالبة هذه النفس، في طاعة الله فيما أمر، هي جهاد أيضا..

عليه الصلاة والسلام، كان يدرك تماما أن معنى الجهاد سيُقزم في مفاهيمنا ليكون (عسكرياً) فحسب، لذا فقد أوصانا هذه الوصية، في وداعه لنا، (الجهاد) **أمانة في أعناقنا.. لا نتركه، لكن لا نحصره أيضا في معنى واحد محدد مهما كان مؤثرا في سياق وظرف معين..**

أمر مهم في هذه الوصية أيضا (طاعة ذي الأمر) و(لزوم الجماعة)..

كثيرا ما يساء الفهم هنا، طاعة ولي الأمر هي طاعة القانون، القانون الذي وضعه (أولو الأمر) – وهو التعبير القرآني الذي لا يحصر ولاية الأمر في فرد واحد بل بمجموعة من الناس (أولي الأمر منكم)، هم الأكثر خبرة ودراية في موضوع معين، وقد يحتاج موضوع آخر (أولي أمر آخرين).. وهكذا.

لزوم الجماعة بهذا المفهوم هو الحفاظ على البنية الاجتماعية والتماسك على مجتمع (أسس على التقوى)..

عندما ينسحب المجتمع من هذا الأساس، فإنه هو الذي يخرج من الجماعة.. وليس العكس..

لزوم الجماعة، تتضمن إبقاء المجتمع ضمن مفاهيم الجماعة..

كما عبر ابن مسعود بالضبط عن ذلك **«الجماعة ما وافق الحق، وإن كنت وحدك»**[118] **.**

** * * * **

يا أيها الناس! إن ربكم واحد و إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي و لا أحمر على أسود و لا أسود على أحمر إلا بالتقوى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: فيبلغ الشاهد الغائب[119]

عندما نقلت الأمواج الصوتية تلك الكلمات للجميع لأول مرة، يوم حجة الوداع، كان أغلب من سمعها أول مرة عرباً، قلة فقط كانوا من الأعاجم.. لكنه عليه الصلاة

---

١١٨ تاريخ دمشق ج ٤٦ ص ٤٠٩ وقال الألباني سند صحيح في حاشية مشكاة المصابيح ٦١/١

١١٩ السلسلة الصحيحة ٢٧٠٠

أحمد

والسلام كان يحدث أيضا الجموع اللاحقة التي ستنضم بالتدريج إلى الإسلام، بالتدريج لن يكون العرب غالبية، بل سيصبحون أقلية ضمن خليط بشري وحّده الإسلام، بمجرد تلفتك يمينا وشمالا في الحرم عند الطواف ستجد هذه الحقيقة التي نغفل عنها كعرب رغم أنها حقيقة إحصائية لا مجال لإنكارها..

ها هو يوصينا قبل أن نسقط في فخ العنصرية (والتي سقط الكثيرون فيها فعلا)، ها هو يقول إن معيار التقوى هو المعيار الوحيد المقبول، وأن العروبة مجرد (توصيف) بلا فضل، مثلها مثل أي نسب آخر لأي قومية أخرى.. نعم نزل القرآن بلسان العرب، لكن هنا بالضبط تبدأ علاقة العرب بالقرآن وهنا أيضا تنتهي..

سيأتي حين من الدهر، ليس بعيدا عن حجة الوداع، **حين يقوم الأعاجم برفد الأمة الإسلامية بما لم يتمكن منه العرب أنفسهم**، سيصير لسان العرب لسانا لكل من حمل القرآن ووعاه، وليس لسانا لقوم أو عرق.. ستصبح العربية لسانا يتخطى الأعراق (فقط لأنها ارتبطت بالقرآن)، وستنصهر الأعراق والقوميات في بوتقة واحدة، حيث معيار التنافس الوحيد هو التقوى.. لا لسان الأم ولا النسب العشائري ولا حتى القرابة منه عليه الصلاة والسلام..

لكن هذا لم يحدث دوما، **فقد سقط بعض العرب في عنصرية فارغة جعلتهم يتوهمون أنهم أولى بالإسلام وبأمره من سواهم** (ولهذا أوصانا – أوصاهم – بذلك عند الوداع)..

لكن الوصية، لا تحذر فقط من عنصرية يسقط فيها العرب، **بل تحذر أيضا من (شعور بالنقص) سيسقطون فيه أيضا**، النص يلغي أي معيار للتفاخر غير التقوى، ويلغي أيضا أي شعور بالنقص قد نسقط فيه نحن العرب، أو قد يسقط فيه أي قوم، تجاه قوم آخرين..

ها نحن اليوم بين فكي كماشة حذرنا منه عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع: **تلك العنصرية البغيضة والشعور الفارغ بأننا أفضل لا لشيء إلا لأننا عرب ولأن الرسول عربي، وبين ذلك الشعور بالنقص والهزيمة الذي سيفترسنا أمام الرجل الأبيض..** حتى أننا سنقوم بتغيير كل مفاهيمنا لكي تبدو كما لو كانت متناسقة مع مفاهيمه..

بل إن بعضنا سيحاول أن يقول إن مفاهميه هي مفاهيمنا، قبل أن تكون مفاهيمه أصلا!..

بين التباهي السخيف بأننا ننتمي لأمته عليه الصلاة والسلام، وبين شعورنا بالنقص تجاه الرجل الأبيض، نسقط نحن فيما حذرنا منه عليه الصلاة والسلام، متناسين أن معيار التنافس والتسابق الوحيد بين الأمم والأعراق، هو التقوى..
ليس أي شيء آخر مما يجعلنا ننسحق أمام الغربيين.. أو نتكبر على سواهم؟؟
التقوى، فقط.[١٢٠]

ألا إنما هن أربع: أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا.[١٢١]

أن لا تشرك بالله يعني أن لا تتخذ مرجعية تنظم حياتك إلا مرجعيته هو.. مرجعية شريعته.. مرجعية كتابه، بوصلته..
ألا يعني ذلك تلقائيا أن لا يكون هناك قتل ولا سرقة ولا زنا؟
نعم، يعني ذلك، لكن علينا أن نربط بين السبب والنتيجة، بين مرجعية الشريعة التي تحتوي على المقاصد والتطبيقات والأوامر والمنهيات، وبين نتائج كل ذلك: انخفاض معدلات الجريمة والانهيار الاجتماعي..
القتل (إلا بالحق أي عبر الوسائل القضائية) والسرقة والزنا كلها تقنن بلغتنا المعاصرة اليوم إلى معدلات الجريمة – بمختلف أنواعها - والتماسك الاجتماعي (الطلاق، الولادات غير الشرعية، الأمهات العازبات... إلخ).
نجد اليوم تجارب حضارية لأمم أخرى بمرجعيات مختلفة، ربما تكون قد حازت نسباً عالية من التقدم في مجالات مهمة، وقد تعتبر بعضها على قمة (التقدم الإنساني) – حسب مرجعيتها هي - أرقام هذه التجارب في بعض الجوانب قوية ومؤثرة فعلا، لكن لو تفحصنا الجانب الآخر المخفي من هذه التجارب: معدلات الجريمة، نسب الطلاق والتفكك الأسري، الانتحار، الإدمان... إلخ، لعرفنا حقيقة المشكلة بعيدا عن الرتوش والتزيينات، إنها المرجعية التي يشركونها مع مرجعية الله، أو يستبدلون مرجعية الله بها.. هي التي تنتج كل تلك المعدلات والنسب التي تنخر المجتمع والإنسان فيه، حتى لو كان قد وصل إلى الكواكب في جوانب أخرى..
ليس هذا تزيينا لواقع سيئ نعيش فيه بدعوى أن معدلات الزنا والسرقة عندنا أقل من سواها.. نحن لا نمتلك إحصاءات أصلا، وقيم التغريب السلبية تنخر في مفاهيمنا

---

١٢٠ يمكن مراجعة كتاب «سيرة خليفة قادم» (للمؤلف) لمعرفة مفهوم الكاتب عن «التقوى» وهو مفهوم مفارق للمعنى التقليدي في جوانب عديدة.
١٢١ السلسلة الصحيحة ١٧٥٩

كالسرطان، والشريعة بالنسبة لأغلبنا مجرد شعائر نؤديها للتكفير عما نفعله في بقية الأوقات..

فلنتنبه هنا إلى (قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق)، ولنتذكر أن ثمة مرجعيات معاصرة، تعتبر أن لا قتل بحق أصلا!

ألا وإني فرطكم على الحوض وأكاثر بكم الأمم فلا تسودوا وجهي ألا وإني مستنقذ أناسا ومستنقذ مني أناس فأقول يا رب أصيحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.[١٢٢] ...

ها هو يودعنا وهو يحدد لنا مكان اللقاء القادم، الحوض، سيسبقنا هناك، ليهيء ليهيئ لنا الحوض، فالفارط في لسان العرب هو من يتقدم القوم إلى الماء ليهيئه لهم، يريد منا أن لا نسود وجهه، أن لا تكون كثرتنا غثاءً كغثاء السيل.. سيأتي النبي ومعه الواحد ومعه الاثنان، وسيأتي النبي وليس معه أحد، لا مشكلة في ذلك، المشكلة هي أن تأتي الجموع وتسد الأفق بكثرتها، ولكنها غثاء، انتسبت للنبي انتسابا بالاسم فقط، ادّعت اتباعه، ولكن لم تسر على طريقه ولم تتخذ ما تركه فيها كبوصلة..

بعضهم سيكونون من الجيل الأول، ربما من المائة ألف الذين سمعوا الخطبة يومها، لكنهم لم يثبتوا على الدرب بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، هل كان يقصد عليه الصلاة والسلام (الردة) التي شملت قبائل كاملة كانت قد أعلنت إسلامها في عام الوفود قبل سنة واحدة من حجة الوداع؟ أم كان يقصد حوادث فردية؟

لا نعرف بالضبط وكل ذلك وارد. لكن هذا يعني ببساطة أن الانتماء لفترة زمنية معينة، حتى لو كانت الفترة الأفضل، **فترة الجيل الأول، لا ينفي وجود أخطاء بشرية قد تخرج البعض من (جائزة الحوض).. بالضبط كما لا يمكن التعويل على العرق واللون، لا يمكن أيضا التعويل على مجرد التواجد في زمان معين..**

المعيار هو التقوى، فقط!

ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده ولا مولود على والده، ألا وإن الشيطان قد أيس من أن يعبد في بلادكم هذه أبدا، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم فسيرضى به[١٢٣].

هذه المسئولية (الفردية) تجعل صفحة كل منا معزولة عن كل إرث لوالد أو قبيلة،

---

١٢٢ سنن ابن ماجة ٣٠٤٨ بتصحيح الألباني

١٢٣ سنن الترمذي ٢١٥٩ وصححه الألباني

صفحتك تبدأ بك، أنت تكتبها، الظروف المحيطة تؤثر بك سلبا وإيجابا، **لكنك أنت وحدك صاحب قرارك فيما ستكتبه في هذه الصفحة..**

بعض من كان هناك، يستمع إلى الخطبة مباشرة، كان ابنا لقتلى المشركين في بدر وأحد، لكن الصفحة انطوت، كل نفس بما كسبت رهينة، كل جناية لا تنال إلا من اقترفها.. لا تورث ولا تَوَّرَث..

الشيطان قد أيس من أن يعبد في بلادكم؟.. لكن الشيطان لا يعلم الغيب. هزته الجموع وتمرغ في الوحل وهو يراها على عرفة.. واعتقد أن قضيته انتهت، فرضي بالمعاصي فحسب، واعتقد أن لا مجال لعبادة له قد تحدث على هذه الأرض..

لكننا نعلم أن الشيطان اليائس لا يعلم الغيب، بل لقد أخبرنا الذي لا يكذب أبدا عن أشياء لا يعلمها هذا الشيطان مما سيحدث لاحقاً، **«لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالْعُزَّى»**[١٢٤] ، **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ»** [١٢٥]..**«لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ: فَمَنْ؟»**.[١٢٦] ..

سيحدث كل هذا، وقد حدث بعضه بطريقة أو بأخرى، لكنه بدأ دوما من أمور نستصغرها.. نعدها غير مهمة وغير مؤثرة، ولا بد أن كل من اقترفها أول مرة وجد من بررها..

ثم صارت إلى ما صارت إليه!

إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا يجوز لوارث وصية الولد للفراش وللعاهر الحجر ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل أو قال عدل ولا صرف.[١٢٧]

الحديث عن قانون الإرث في خطبة مودع؟

بالتأكيد، ليس فقط لأن إرث الجاهلية كان يهمش كل من لا يركب الفرس ولا يحمل السلاح (الصبية والنساء)، والتأكيد على الالتزام بالإرث كما جاء في القرآن الكريم لن يحقق العدالة فحسب بل سيمنع تركز الثروة عند فئة معينة تمارس تسلطها بما

---

١٢٤ صحيح مسلم ٧٤٨٣

١٢٥ صحيح مسلم ٧٤٨٢

١٢٦ صحيح البخاري ٧٣٢٠

١٢٧ سنن ابن ماجة ٢٧١٢ وصححه الألباني

تحصل عليه من قوة.. منع الوصية للوارث هو خطوة استباقية لكل محاولة التفاف على الشريعة عبر الوصية لمن (يركب الفرس ويحمل السلاح) تفضيلا على سواه.. ليس هذا فقط.

لقد كان يوصينا بهذا في وداعه، لأن قضية الإرث، مثل قضية المرأة، **ستكون دوما مستهدفة من قبل أدعياء التمدن الغربي والتقدم حسب مرجعية الرجل الأبيض،** ستكون هناك محاولات كثيرة لتغيير ما شرعه الله في الإرث، مرة بدواعي المساواة ومرة بدواعي تغير الأحوال.. كما ستكون هناك محاولات لشرعنة الزنا، وإضفاء صبغة شرعية على الأطفال الناتجين عن الزنا (وهم ضحايا بكل الأحوال ولكن يجب أن نميز بين التعاطف معهم وبين شرعنة ما فعله آباؤهم).

وها هو يوصينا بكل هذا، وهو يودعنا..

مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ ، أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِيكُمْ ، فَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عَلَى مَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ ثَلاَثًا ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ. [١٢٨]

وهو يحذرنا الأعور الدجال.. يعطيننا مواصفاته الظاهرة البينة، علاماته الفارقة، وكل أحاديثه عليه الصلاة والسلام تشير إلى أن البعض من الناس سيرون هذه العلامات ويعرفونها، ومع ذلك سيتبعونه..

هل يصعب تصور هذا؟

بل هو أمر نراه يوميا.. نعيش في عصر صار الدجل فيه علما متقنا يمكن تسويقه واستهلاكه من قبل الجموع دون أدنى اعتراض، **لكننا نجد مشكلة في أن الناس ستتبع الدجال بعينه العوراء والمكتوب على جبينه (كافر)** [١٢٩] **.. كيف يتبعون من علامات دجله ظاهرة لهذه الدرجة؟..** كيف يتبعون الدجال وقد أخبرهم من لا يكذب أبدا بعلاماته؟

اليوم، في عصرنا هذا، لم يعد هذا مستغربا..

صرنا نرى الناس تتبع من بان دجله وظهر كذبه وطغى شره، صرنا نرى وسائل الإعلام وهي تطوع الناس ليصيروا خرافا تساق إلى المذبح وهي تهتف بحياة جزارها، صرنا نرى وسائل الإعلام وهي تسوق الكذب ليصير بديهة لا تناقش

١٢٨ صحيح البخاري ٤٤٠٢
١٢٩ صحيح مسلم ١٠٢

عند الجماهير، **صرنا نرى وسائل الإعلام وهي تجعل من الزناة والعواهر ملائكة وقديسين، ومن الدجلة مصلحين ودعاة، ومن الباطل البين حقا ظاهرا..**

فهل نستغرب من اتباع الناس للأعور الدجال المكتوب بين عينيه كافر ونحن نراهم يتبعون صغار الدجلة وحركات أجسادهم وأفعالهم تقول (كافر) صريحة لكل من كان له حدا حد أدنى من أبجدية الفطرة..

نعم، سيتبع الناس الأعور الدجال، وستكون فتنة كبيرة، امتحان هائل، كل ما نمر به اليوم من فتن مصغرة، من اتباع الناس لصغار الدجالين، يشبه امتحانا يوميا مصغرا بالنسبة لذلك الامتحان الشامل.. **امتحان المسيح الدجال..**

فماذا عمن يقول إن **الأعور الدجال هو رمز للحضارة الغربية،** عوراء العين لأنها لا ترى إلا بمنظار المادة وتغفل منظار الروح، والإنسان المتوزان لا يرى إلا عبر منظار مزدوج يشملهما معا..

في رأيي أن التشبيه موفق جدا، فالحضارة الغربية تشبه في العموم هذا الوصف للأعور الدجال، لقد حققت فعلا قدرات كبيرة في مجالات العلوم والخدمات، وفتنت الكثيرين بذلك حتى ممن لديهم التزام عام بأركان الإسلام من ناحية التطبيق الشعائري.. وهي في الوقت ذاته، **عوراء، ترى العالم من عين المادة فقط، وتغفل كل ما سوى ذلك،** حتى الروح تنظر إليها بعين المادة، وتوظفها في سلك زيادة الأرباح والتنفيس عن الضغوطات الناتجة عن وطأة الحياة المادية.. (أقول هذا وأقول أيضا أننا اليوم لسنا أفضل، بل نحن أسوأ.. فإذا كانت الحضارة الغربية - عوراء - بعين واحدة.. فنحن اليوم عميان تماما، بلا أي عين على الإطلاق.. عميان منذ أن تخلينا عن الرؤية القرآنية للعالم).

نعم، الحضارة الغربية، عوراء العين، ومكتوب بين عينيها كفرها، وهي لم تنكر يوما كفرها، كفر يتراوح بين الإلحاد الصريح المنكر لوجوده تعالى، وبين إنكار لأركان الإيمان الأخرى، وكله كفر (بدرجات) حتى لو حاول البعض طمسه وتزيينه.

نعم، الحضارة الغربية، مكتوب على جبينها التوصيف المناسب لوضعها، وهذه الكتابة بأحرف قرآنية وصفت كل تجربة مشابهة لهذه الحضارة بوصفها المناسب، مشكلتنا هي في أننا نحاول غض النظر عن ذلك التوصيف، بل إن بعض الدعاة المفتونين بالتجربة الغربية، يضعون علامات لاصقة على تلك الكلمة البينة بين عيني الحضارة الغربية، علامات لاصقة عليها أوصاف أخرى، تخفف، وتلطف من وطأة

الحقيقة لكل من قد يفكر في استخدام العين القرآنية في رؤية الحضارة الغربية..
هؤلاء الدعاة المفتونون، ليسوا عملاء بالضرورة للحضارة الغربية.. هم مفتونون بمنجزاتها على نحو لا يجعلهم قادرين على رؤية عوارها وكفرها، **جزء من فتنة الحضارة الغربية أنك لا تعود ترى بعينيك، بل بعين واحدة، هي عين الحضارة الغربية ذاتها،** الحضارة الغربية تمنح عينها، عين المادة المجردة لكل من يفتن بها، وتمسح العين الأخرى، عين الروح والغيب..
هؤلاء الدعاة، يضعون علامة لاصقة على كلمة (كافر)، علامة لاصقة مكتوب عليها (تقدم) أو (رقي) أو (مدنية).. أو عبارات مخففة أخرى تسهل تقبل الوضع مثل (الحكمة ضالة المؤمن)،[١٣٠] غالبا لا يقصد هؤلاء الدعاة شيئا سيئا، لقد سلبت الحضارة الغربية عينا منهم، فصارت رؤيتهم عوراء مثل رؤيتها، فصاروا يفعلون ما يفعلون وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا..
ولا أعتقد أن دعاة الجانب الآخر، الذين يقضون الوقت في الحديث عن عوار الحضارة الغربية وسلبياتها، بأفضل حال من الدعاة المفتونين بالغرب، لو غضوا الطرف عن وضعنا الحالي، وعن كوننا (عميان) لا نستخدم ولا حتى عينا واحدة.. حالياً.

** * * * **

فلنتذكر هنا أن الرؤية بعين واحدة، مقارنةً بالرؤية الاعتيادية بعينين، تعجز عن التقاط التفاصيل في المحيط، بل تقل زاوية النظر لتنحسر عن المحيط..
كم يشبه ذلك نظرة الحضارة الغربية (خاصة في نسختها الأمريكية) التي تتجاهل (السياقات) وتركز على المركز وتلغي كل ما أدى إلى ذلك، وتحاول أن تفرض رؤيتها وعينها على العالم أجمع.. بمعزل عن تغير كل السياقات..
الرؤية بعين واحدة، تشبه الرؤية ببعدين، مقارنة بالرؤية ثلاثية الأبعاد التي نراها عبر الرؤية بعينين.. نحن نرى عادة ونحن نستشعر العمق في الرؤية، العمق في المشهد.. **لكن الرؤية الأحادية ترى العالم كما لو كان شاشة مسطحة، ببعدين فقط.. دون عمق.**
كم يشبه ذلك رؤية الحضارة الغربية للعالم، لقد قدمت الأفلام ثلاثية الأبعاد للعالم، لكنها ترى العالم كله برؤية مسطحة ببعدين فقط..

---
١٣٠ حديث ضعيف ، ضعيف المشكاة ٢١٦ ، ضعيف الجامع ٤٣٠١ ، ٤٣٠٢ ويستخدم اليوم بكثيرة للترويج للحضارة الغربية.

وكم يشبه ذلك قوله عز وجل «**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» (الروم: ٧)** .. وكم هو موحٍ وملهمٌ أن تكون السورة التي وردت فيها هذه اليوم تحمل اسم الروم، الأجداد الشرعيون للحضارة الغربية المعاصرة..

** * * * **

هل أقصد أن الأعور الدجال هو رمز للحضارة الغربية، كما قال البعض فعلا؟

لا. لم أقل ذلك. قلت وأكرر أن الحضارة الغربية تنطبق عليها مواصفات المسيح الدجال. لكن هذا لا يضع علامة المساواة بينهما قط.

ما الذي يمنع من أن تنتج الحضارة الغربية رجلا حقيقيا، من لحم ودم، تكون له نفس المواصفات، يتطابق فكره مع شخصه، فيعبر عن قيم الحضارة الغربية ونمط رؤيتها وفي الوقت نفسه تنطبق عليه المواصفات الجسمية كما قال أصدق من نطق أيضا..

هل نستبعد ذلك؟ ولم؟..

لا يستبعد ذلك إلا من يصر على قراءة أحاديثه عليه الصلاة والسلام بعين عوراء، قد تكون العين الأخرى هي التي ترى، وليست العين التي ترى بها العين الغربية.

لكن النتيجة واحدة..

لقد حذرنا عليه الصلاة والسلام من الأعور الدجال..

وإن كان الأعور الدجال لم يحضر بعد..

فحضارته قد جاءت واكتسحت العالم..

فالحذر نفسه!

** * * * **

«أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه». [١٣١]

نعم، كل ما سيحدث، بعد هذا، سيكون مشابهة وسيرا على نفس القانون السنني الذي مر به التاريخ سابقا.. لن يتكرر التاريخ بالضبط كما يقال، لكن عربات مختلفة ستسير على نفس خط السكك الحديدية..

كل ما سيحدث بعد هذا الانتصاف، يمكن أن نجد حلوله وعقاقيره وأسبابه في النصف الأول من اليوم الذي استغرق تاريخ البشرية بأسرها حتى تلك اللحظة..

---

١٣١ مسند الإمام أحمد ٦١٧٣ وقال شعيب الأرناؤوط صحيح لغيره.

كل ما سيحدث بعدها، سنتمكن من سبر أغواره وفهمه حقا لو قرأنا التاريخ بعينين.. لا بعين واحدة..

«ألا يا أمتاه هل بلغت؟ (ثلاث مرات).. قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد. (ثلاث مرات)». [١٣٢]

ثلاث مرات؟ بل نعم، نستمر بتكرارها وإعادتها ..

لقد بلغت يا رسول الله..

المشكلة كانت دوما فينا..

أحيانا حاولنا أن لا نركز فيما بلغنا.. أن لا نفهمه إلا على نحو سطحي، بل أحيانا حرصنا أن لا نفهم شيئا مما بلغنا، تعاملنا مع كلماته عليه الصلاة والسلام كما لو أنها كانت للبركة، كما لو كانت أحرف مجردة.. (أي كما تعاملنا أحيانا مع الوحي نفسه)..

وأحيانا فهمنا ووعينا، ولكن هربنا من مواجهة عواقب الفهم.. هربنا من التطبيق..

اللهم نشهد، أنه عليه الصلاة والسلام، قد بلغ الرسالة كاملة..

اللهم نشهد، المشكلة فينا..

وحلها يبدأ من هنا..

من أن نتعامل مع كلماته من جديد.. كما لو كانت أمواجا تضربنا وتعيد تشكيلنا في طوفان هائل..

طوفان يسقي كل أرجاء المعمورة..

يهيئها لغرس جديد..

** * * * **

لا يمكن هنا أن نهرب من حدث مرتبط بخطبة الوداع، حدث مليء بمعان كثيرة، أراه جزءاً من الحكمة الإلهية..

الرجل الذي كان يردد كلامه عليه الصلاة والسلام، كي يصل لمسامع الجمع الأبعد عن حضوره الشريف.. هذا الرجل، الذي نقل كلمات مثل (رب مبلَّغ أوعى من سامع) و(رب حامل فقه غير فقيه).. و(لا تعرف ما أحدثوا بعدك).. **هذا الرجل، ربيعة بن أمية، الذي كان يمكن أن يكون له شرف صحبته عليه الصلاة والسلام، ارتد لاحقا.. خرج عن الإسلام..ولحق بهرقل!** [١٣٣]..

١٣٢ سنن ابن ماجة ٣٠٤٦ وصححه الألباني

١٣٣ مصنف عبد الرزاق ١٧٠٤٠ (عن ابن المسيب قال : غرب عمر ابن أمية بن خلف في الشراب إلى خيبر، فلحق بهرقل،

هل هذا مصداق مباشر وعملي لكلامه عليه الصلاة والسلام عن (حامل الفقة غير الفقيه)، عن (أصحابه الذين ينتظرهم على الحوض لكنهم لا يستحقون هذا الانتظار)..

هل هذا تذكير لنا بما قاله عليه الصلاة والسلام عن الشيطان الذي سيرضى بـ (ما تحقرون من أعمالكم).. ولقد زلّ ربيعة أولا في معصية، ولعله كان بينه وبين نفسه يقول – كما نقول أحيانا عند إتيان المعاصي: إن الله غفور رحيم - لكن الأمر قاده بعيدا بعيدا إلى الارتداد عن الدين..

ألا يحدث ذلك أيضا بطريقة أو بأخرى، عند الكثير من حاملي الفقه الذين يستخدمون ما يحملونه في تحليل حرام.. تحت شعار الوسطية أو التيسير.. وغالبا ما يكون هذا تقربا ولحاقا بالنسخة المعاصرة من حضارة هرقل..

الرسالة مما حدث لربيعة بن أمية متعددة..

لا يمكن كسب كل الطلقاء بمجرد الإحسان إليهم، فها هو ابن أمية بن خلف، يتمرد ليرتد عن الإسلام..

ولن يكون كل من (عاصر) الرسول عليه الصلاة والسلام مستحقا لشرف الصحبة.. بعض الناس يفقدون فرصة كهذه.. (هل سنكون أفضل منهم لو كنا مكانهم؟)..

ولن يكون كل من نقل لنا حديثا عنه عليه الصلاة والسلام واعيا تماما لما ينقل، لا يمكن اتهام أحد من نقلة الحديث ما دام لا قرينة ضده كما حدث مع ربيعة الذي خسر شرف الصحبة ونال خزي الردة.. لكن يجب أن نميز دوما بين ما ينقل من فقه صادر عنه عليه الصلاة والسلام، وبين فقه الناقل لما ينقل.. فقد يكون كما وصف عليه الصلاة والسلام، حامل فقه لمن هو أفقه منه..

الرسالة مما حدث لربيعة مزدوجة..

مخيفة ومشجعة في آن واحد..

مخيفة لأن ما حدث لشخص عاصر الرسول عليه الصلاة والسلام، يمكن أن يحدث أيضا لنا أيضا.. ومن باب أولى..

ومشجعة، لوجود فرصة لأن يكون (المبلَّغ) أوعي من (السامع)!!

** * * * **

فتنصر، قال عمر: لا أغرب بعده مسلما أبدا).

بطريقةٍ ما، خطبة الوداع، هي خطبة اللقاء أيضاً.

لقاؤنا نحن به عليه الصلاة والسلام..

لقاؤنا به وهو يوصينا، يحذرنا، يدلنا على الطريق وعلى بوصلته وعلى مخاطره..

في خطبة الوداع، ثمة فرصة باهرة لأن يكون ثمة لقاء مع من تريد اللقاء به..

مع ذلك الشخص الذي تريد أن تكونه..

مع ذلك الشخص الذي سيرضى الرسول عليه الصلاة والسلام عنه، لو رآه..

خطبة الوداع..

يمكن أن تجعلها، خطبة اللقاء..

** * * * **

أنصت لتلك الأمواج الصوتية التي تحمل كلماته.. تعاملنا دوما معها على أنها يجب أن تدخل القلب فقط.. لكننا أغلقنا بوابة العقل، متوهمين أن القلب كاف، متناسين أن الدخول إلى القلب عن طريق العقل هو ما يجعل تلك الكلمات أكثر رسوخا وفاعلية في القلب..

أنصت لتلك الأمواج.. تحمل كلماته..

من كلماته يأتي الطوفان..

ومن عمق الطوفان، تأتي السفينة..

عن طوفان آخر ، قادم لا محالة

في منعطف تاريخي هام من تاريخ البشرية.. كان هناك الطوفان.
الطوفان أزال ركاما لم يكن من الممكن استمراره، **لم يكن هناك جدوى من إصلاحه أو الاستمرار في محاولات إصلاحه..**
لذا كان لا بد من البدء من جديد.. كان لا بد من طوفان يمسح ما كان، ويحمل سفينة ما، عليها خير من كان، ليبدأ من جديد، في بر جديد..
كان ثمة طوفان، قام بمسح كل شيء، ليكون ثمة أمل في البدء من جديد، بدلا من تكرار المحاولة إلى ما لا نهاية..
كان طوفانا من الماء..
لكن للطوفان أشكالا متعددة..
وأيضا وظائف متعددة..

** * * * **

في طواف الإفاضة، البشر طوفان..
ربما هو الجزء الأكثر زحاما في الحج.. أو على الأقل من أكثرها بالتنافس مع مزدلفة..
لكن مع طواف الإفاضة، الزحام مختلف..
زحام يسير عكس عقارب الساعة، مع حركة السنن، حول البيت الذي بناه إبراهيم، البيت أقرب لقلبك، ويدك أقرب إلى العالم خارج الحرم، وأنت جزء من مشهد البناء المستمر، وجزء من طواف الكون، جزء من انسيابه وخضوعه للقوانين، لكن خضوعك أنت مختلف لأنه خضوع بمنتهى وعيك وإرادتك، عن سابق قصد وتصميم، أنت برجليك تتقدم لتخطو داخل هذا الطواف، لتنضم إليه، لتكون جزءا منه، تتخلى عن فرديتك، تتخلى عن الأنا فيك، وتنضم رغم الزحام، إليه..

** * * * **

طوفان من البشر حولك.
طوفان يدور حول المركز.
وأنت قطرة ماء تنضم إلى التيار الهادر.. وكل التيار الهادر حولك قطرات تجمعت وانضمت مثلك فكونت هذا التيار..

لكن هذا التيار لم يشق دربه بنفسه، بل الدرب محدد له، الدرب هو هذا المحور الذي يدور حول البيت، محور الثوابت، محور المرجع الذي نرجع له في كل صغيرة وكبيرة، محور الرؤية التي نرى العالم من خلالها..
سبعة أشواط للطواف، في رمز للاستمرار والدأب، في رمز أنك ستفعل هذا الطواف طيلة حياتك، حتى بعد أن تنتهي الشعيرة..
كل ما فعلته في الطواف الأول ستعيده هنا وأنت أقوى.. وأنت أقدر، وأنت أعرف.. لقد مدتك الشعائر بقوة، رغم تعبك الظاهر، مدتك الشعائر بقوة من نوع مختلف، مثل قوة طائر يكتشف التحليق لأول مرة، فلا يكف عن الطيران فرحا بقدرته الجديدة..
كل ما مررت به في طوافك الأول، **ستمر به اليوم وأنت إنسان جديد اليوم، إنسان ولد للتو، تخلص من ذنوبه وأدرانه وأسبابه،** إنسان تخلص من الران على قلبه حتى عاد قلبه ينبض من جديد كما لو أنه لم يفعل من قبل..
تمر بالحجر الأسود فتكاد تراه الحجر الذي تتفجر منه عيون الماء، الحجر الذي تريد أن تحمله في قلبك، حجر الثوابت، نظلم الحجارة كثيرا إذ ننسى أن ما يكتب عليها لا يمحى بسهولة، وليت كل قلوبنا تملك ثبات الصوان ومحافظته على مبادئه..
ستمر في الحجر الأسود وتستلمه بيمينك، إنه حجرك الأساس الذي تبني عليه كل بنائك، كل ما تقيمه في حياتك، كل ما تشيده عبر حياتك ومن خلال حياتك، كله، يجد حجره الأساس في هذا الحجر الذي وضعه إبراهيم.. حجر جنة آدم، جنة المساواة وكفاية الحاجات الإنسانية، وكل ما تشيده وتقيمه في حياتك، يجب أن يجد له رابطا في هذا المعنى..
بين الركن والحجر ستتذكر حسنتي الدنيا والآخرة، وستتذكر العلاقة بينهما، التي هي كالعلاقة بين الركن والحجر، جزءان من بناء واحد، لو فصلت بين الركن والحجر لانهار البناء كله، كذلك الفصل بين الدنيا والآخرة، من يفصل بينهما، من يعتقد أنه يمكن له أن يفصل بينهما ويعتقد أن الطريق إلى الآخرة يمكن أن يمر بغير الدنيا، يكون قد حكم على نفسه بالتيه دون الوصول..
ها هما معا، في دعاء واحد، بين الركن والحجر، مثل السبب والنتيجة، لا يمكن أن تفصل بينهما..
وها أنت في مقام إبراهيم، أو على مرمى نظرة منه، ومقام إبراهيم يشدك إلى كل ما قام به إبراهيم، وكل ما قام به إبراهيم يمكن أن يستغرق عمرك كله طوافا..

وها أنت تصلي، ركعة بـ «قل يا أيها الكافرون»، حيث تضع خطوطا لا بد منها، يمكنك بعدها أن تقول «لكم دينكم ولي دين».. والركعة الأخرى ستكون بـ «قل هو الله أحد»، ثلث القرآن، وجوهر التوحيد..

ها هو طوفان البشر كله من حولك يفعل ذلك أيضا، قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد..

وها هو الطوفان يرتشف من زمزم، إكسير الحياة الحقيقية، رمز الشريعة الذي يروي عروقك العطشى إلى ما يجعلها تنمو وتزهر..

ها هو تيار الطوفان يغير مساره إلى السعي، على خطى هاجر، وها أنت تسمع صوت بكاء إسماعيل رغم صوت التيار الهادر، ها أنت تسمع فيه صوت كل طفل بكى جوعا أو عطشا أو حرمانا..

بين الصفا والمروة، تؤكد انتماءك لذلك السعي الذي ستسعاه طيلة حياتك، بين تلك الثنائيات التي سترافقك طيلة رحلة السعي، بين الأمل والعمل، بين الفكرة والتطبيق، بين الأنا والنحن، بين الخوف والرجاء، بين المحاولة وتكرارها، بين أخطائنا ونقدها، بين العالم كما هو والعالم كما يجب أن يكون، بين النص وفهمه، بين خيرات وموارد الأرض، واستثمارها فيما يجب أن يكون، بين الوسائل والغايات..

كل تلك ثنائيات ستسعى بينها في رحلة حياتك..

السعي بينها هو ما سيوصلك إلى زمزم.. زمزم الحياة اليومية الذي لا يمكن أن يعبأ في قنينة زجاجية.. زمزم رمز الشريعة وهي تروي عروقك وأوردتك وشرايينك.. وتساعد على نمو الشجرة – الإنسان في داخلك..

** * * * **

كل ما فعلته في الطواف والسعي السابقين، **ستفعله الآن وأنت أقوى**، وأنت أعرف، وأنت أكثر خبرة ومراسا.. يفترض نظريا أن تكون المشاعر السابقة قد استنزفتك، لكن لا، ليس الآن، الآن ستشعر أن نوع طاقتك قد تغير، ثمة طاقة بديلة في داخلك، ثمة طاقة بديلة تنبع منك، أو أنك أنت الذي تنبع منها، شيء كهذا، شيء مختلف يتملك عليك روحك، ربما ثمة تعب في جسدك، لكن روحك تتألق في مدار آخر، وحتى جسدك، ثمة دفع فيه، ثمة دفق فيه، ثمة نسغ صاعد يرتقي به إلى مصاف الروح..

نعم, ربما تكون تعبت، فكل مخاض متعب، لكن كل ساعات المخاض الصعبة

منسية، وفي لحظاته الأخيرة، الأشد صعوبة، ثمة طاقة مختلفة، ثمة منجم جديد للطاقة تكتشفه في داخلك، في اللحظة التي تعتقد أنك قد استنفدت تماما..
أنت الآن أقوى، **هل هي قوة (أعرفت)؟** ..هل هي قوة المعرفة؟ هل هي قوة بمعرفتك بنفسك بضعفك بحقيقتك بما يمكن أن تكون عليه؟ بما يجب أن تكون عليه؟
هل هي القوة التي نتجت في داخلك بعد أن مررت بتلك المشاعر - العلامات - على طريق ولادتك؟
هل هي قوة المغفرة؟ المغفرة التي تستشعر أنك نلتها؟
هل هي قوة الشعور أنك على شفا منصة الولادة من جديد؟ أن ثمة حياة جديدة تنتظرك؟ أن ثمة إنسانا جديدا على وشك اقتحامك؟
وأن ثمة إنسانا آخر، توشك أن تنسلخ عنه تماما..
نعم.. ربما هي قوة ناتجة عن هذا كله..
المهم أنها قوة تغمر روحك من القاع إلى القمة..
القاع؟
لا..
روحك بلا قاع هنا..
هناك فقط أفق بعيد شهقت روحك إليه، وأنت تحلق فيه..
أين القاع؟.. لا يمكنك أن تفكر فيه، وأنت تحلق هناك..

** * * * **

بين الإفاضة والفيضان علاقة قربى..
وبين الطواف والطوفان، علاقة نسب..
وطواف الإفاضة يشبه الطوفان، يشبه الفيضان.. يذكرك بطريقة ما بطوفان نوح..
لكنه هذه المرة طوفان محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.
طوفان نوح كان ليهدم ما مضى، مما لم يعد ممكنا إصلاحه..
طوفان محمد، انطلاقة بدء من جديد..
طوفان محمد، ينطلق من (بطن مكة).. ليغير العالم.. ليعلن أنه لا بد من الهدم والبناء، هدم ما لا يمكن إصلاحه.. وبناء على قواعد جديدة، على أسس أكثر عدالة وتوازنا..

طوفان محمد يستهدفك. يستهدفني. يستهدفنا. يستهدف أن نعرف ما هو هدفنا في الحياة.
وأن نسعى لتحقيقه.
عليه الصلاة والسلام.

** * * * **

للأسف هذا هو ما يجب أن يكون.
ولكنه ليس المتحقق.
قلنا أن لا قاع هناك في ألق الروح وأفقها؟
قلنا ذلك.
لكن لا. هذا ما يفترض أن يكون.
لكن الواقع مختلف تماما، في الواقع ثمة قاع سحيق، شددنا أنفسنا إليه وما برحناه، نحاول أن نزينه، أن نوهم أنفسنا أنه ليس بهذا السوء، أن نتأقلم معه، أن نستورد له من مدارات الآخرين ما نجمل به وضعنا.. ما نوهم أن القاع ليس قاعا كما نتوهم..

** * * * **

ما كان يجب أن يكون طوفانا، **هو في حقيقته ليس أكثر من غثاء سيل**، راودته كثرته أن يتوهم أنه طوفان.. لكنه سيبقى غثاء سيل..
ما كان يجب أن يكون في المقدمة، ليس سوى في آخر الركب، تقوده وتسوسه الأمم الأخرى.. يتبعها خطوة خطوة، حتى لو رآها تنهار وتتعثر.. حتى لو رآها تدخل حجر ضب، حذو القذة بالقذة، تماما كما أخبر عليه الصلاة والسلام..
ليس من طوفان سيعيد بناء العالم.. ليس سوى غثاء السيل..
بدلا من طوفان محمد..
سيكون هناك غثاء السيل الذي حذرنا منه محمد، عليه الصلاة والسلام..
غثاء السيل، طبقة فوق أخرى، كما لو أن الحج لم يحدث..
كما لو أننا لم نمر بتلك العلامات على الطريق..
كما لو أن الحج لم يقم علينا الحجة..
كما لو أننا جئنا فقط، لنقوم بتحركات لا تدخل إلى ما تحت جلودنا..
كما لو أن شيئا لم يحدث..

** * * * **

الحج، في عصرنا هذا على الأقل، يبدأ هنا..
في اللحظة التي تعي فيها أن هذا الطوفان من البشر **قد صار غثاءً للسيل**، يسير في مساقات معدة له من قبل آخرين، أحيانا كمسارات الخراف المعدة للذبح، وأحيانا كمسارات العبيد الطائعين في أشكال مختلفة من العبودية..
في هذه اللحظة، عندما تخرج من الحرم، وأنت تدرك وترى رأي العين، عمق الهوة بين كل ما يجب أن يكون، وما هو كائن أمامك.. يبدأ الحج..
عندما ترى كيف أن أطهر بقعة في العالم، البقعة الي تنزل فيها الوحي، البقعة التي سار عليها الرسول عليه الصلاة والسلام في **أكمل مشروع يمكن للبشرية أن تنجزه**، البقعة التي نأتيها لكي نتطهر من ذنوبنا وأدراننا..
هذه البقعة، أطهر بقعة على هذا الكوكب، حولتها جموعنا إلى مكب للنفايات.. دون أي مبالغة..
ومن عمق هذا التناقض، بين البقعة الأطهر، ومكب النفايات، يبدأ حجك في إثبات أنه غيرك فعلا، أنك ولدت من جديد..
من عمق هذا التناقض، بين المشاعر الإبراهيمية، العريقة عراقة التاريخ، وبين شعارات العولمة التي ستحاصرك منذ أول خطوة تخطوها خارج الحرم، والتي تحاصر حياتك كلها لاحقا، يبدأ الحج حقا، في حاجتك إلى أن تقدم للعالم ما يليق بمن خاض رحلة الحج وتشبع بها.. يبدأ تمثلك برحلة الحج ومشاعره، عندما تقوم بوضع علامات على درب العالم كي يسير باتجاه حضارتك وقيمك ومنجزاتك..
عندما تشعر أن المشاعر التي مررت بها يجب أن تحفزك على أن تقدم ما يجعل الناس ينجذبون إلى دربك..
عندما يكون عملك، علامات على الدرب الذي سرت فيه..

الحج لا يخرجك من فجك العميق فحسب..

بل يدلك أيضا على الدرب إلى قمة العالم..

** * * * **

طواف الوداع؟

تطوف وداعا..
لكن قلبك لا يحتمل حتى الفكرة..
الوداع؟!..
حقا؟! بعد أن وجدت بيتك العتيق!.. بعد أن وجدته بعد سنوات من الترحال والسكن في بيوت استأجرتها – حتى لو كانت قد سجلت باسمك!..
بعد أن وجدته بشق الأنفس، ذلك البيت الذي وضع منذ بدء التاريخ لأجلك، هل تتركه الآن؟..
قلبك، لا يعقل هذا..
رغم كل الشوق الذي لا يمكن إنكارك له لكل أحبابك في عالمك السابق، إلا أن قلبك لا يعقل أنك ستنتزع نفسك من بيتك (القديم)..
لكن هذا هو طواف الوداع..
الوداع جزء من الشعائر إذن، رفعت الأقلام وجفت الصحف..
لا خيار..
أن ترحل عن البيت العتيق، نحو بيتك الجديد، نحو العالم الذي يجب أن يعاد بناؤه على أسس جديدة..
هذا الرحيل هو جزء من الشعائر نفسها.. لم تمر بكل ما مررت به من علامات على الطريق لكي تختزن تجربتك لنفسك، لم تولد من جديد لكي تصاب بموت المهد الفجائي [١٣٤]..
لم تولد من جديد، لكي تشارك في عملية قتل الإنسان الوليد في داخلك، وتعيد ذلك الذي جئت أصلا إلى الحج كي تتخلص منه..
الوداع جزء من الشعائر.. جزء من أن تكتشف إن كنت قد نلت ما جئت من أجله..
لا يمكنك اكتشاف ذلك وأنت في الحرم..
لا يمكنك أن تعرف ذلك إلا عندما تلتحق بالعالم.. **لكي تجرب الإنسان الجديد الذي يفترض أن يكون قد ولد بين جنبيك..**

١٣٤ sudden infant death syndrome – crib death : الموت المفاجئ للرضع أو موت المهد، ظاهرة طبية غير معروفة الأسباب يتوفى فيها الأطفال الرضع أثناء نومهم.

قلبك لا يعقل الفراق..
لكن عقلك يعقله!..
تطوف وداعا، وتهمس في نفسك، إلى اللقاء!

** * * * **

كلنا نعرف مسقط رؤوسنا..
المكان الذي سقط فيه رأسك يوم خرجت من بطن أمك..
لكن قليلين ينتبهون إلى المكان الذي يمكن أن يرتفع فيه رأسك..
نعرف مسقط رؤوسنا..
تسقط رؤوسنا فيه في حدث لا إرادي، لا يمكن لنا أن نتدخل فيه..
لكن ثمة بطنا أخرى، يمكن لنا أن ترتفع رؤوسنا فيها، في حدث يجسد معنى الإرادة الإنسانية في أسمى صورها..
من بطن مكة، يمكن لرؤوسنا أن ترتفع، أن تكون مكة هي مرتفعها، مقابل كل مساقط رؤوسنا..
بطن مكة، حيث كفت الأيدي عند الفتح **«وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا». (الفتح: ٢٤)..**
كفت الأيدي.. عنكم وعنهم..
اليوم عمل الرؤوس وليس عمل الأيدي، عمل الرؤوس الذي سيجعل الأيدي لا تكف عن العمل الصواب، إلا من أجل عمل أكثر صوابا..
اليوم **ترتفع الرؤوس، تحلق، لا لكي تبتعد عن الأرض..**
بل لكي ترتقي بالأرض..
تجعلها في حال **أفضل!**

** * * * **

من بطن مكة، **ثمة فرصة..**
فرصة لك لكي تولد من جديد.. لكي تخرج إلى سطح هذا العالم وتساهم في جعله على النحو الذي أراد له خالقه أن يكون..
من بطن مكة تخرج، يبدو العالم جديدا، كما لو أنك تراه للمرة الأولى.
ربما لا.. ربما ليس العالم جديدا..

بل أنت!
أنت قد ولدت من جديد، وصرت تنظر له كما ينظر الطفل الوليد، بعين لم تفسدها الذنوب ولم تكسرها الهزائم..
هذا العالم هو لك..
هل تعتقد أنه ليس كما يجب أن يكون؟ أنه يمكن أن يكون أفضل؟
أنت محق. هو كذلك فعلا.
وهذه هي مهمتك..
من بطن مكة، تولد من جديد، **تخرج كما ولدتك أمك!..**
جددت عهدك الذي فعلت منذ أن خلقت للتو، وسرت على درب إبراهيم، مددت يدك لتساهم في البناء، وركضت مع هاجر وصوت إسماعيل يكاد يصم أذنيك.. مررت بأمنيات آدم وتوقه إلى العودة.. توقه إلى جنة (الحاجات الأساسية)، وفعلت كل ذلك كما فعله خاتم الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام.. لم تفعل كل ذلك لتشاهد (بانوراما) الملحمة الإنسانية في أبهى صورها.. بل لكي تشارك فيها.. كي تكون جزءاً منها..
إنه درب إصلاح العالم، قد يبدو ذلك أحيانا مجرد إصلاح للنفس بمغفرة الذنوب التي تأمل أنك حصلتها عبر الحج..
لكنك تعي الآن، بعد أن رأيت كيف تذوب الأنا في النحن، بعد أن رأيت كيف تصبح القطرة جزءاً من السيل.. تعي الآن أن إصلاح الذات، لن يكون الهدف حقا، وأن لا نجاة حقا لفرد تكون منفصلة عن محاولاته على الأقل في نجاة الجميع.. إصلاح الذات لن يكون الهدف حقا إلا عندما تعمل هذه الذات على إصلاح المجتمع من حولها..
لا صلاح لخلية في جسم مريض، لا يمكن لخلية واحدة أن تنجو في جسم مريض، الخلية السليمة ستقارع المرض، ستستنفد كل ما تملك لتقاوم، **لكن أن تكون سليمة سعيدة بنجاتها المفترضة في جسم متهالك، فهذا وهم..**
ألم يقل أصدق من قال «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[١٣٥].
فكيف يمكن أن تتوهم النجاة، وأنت ترى أمتك بحال السقوط؟

---
١٣٥ صحيح مسلم ٦٧٥١

كيف تتوهم أنك ولدت من جديد، عدت كما ولدت أمك، وأمتك لا تزال ينهشها السرطان؟

لن يصلح فرد العالم لوحده.

لكن العالم لن يصلح إذا تصرف كل فرد، كما لو أن الأمر لا يعنيه..

كما لو أنه سيكفيه أن يحج، وينتهي الأمر..

الحج يقيم عليك الحجة: هذا العالم، يجب أن تنقذه، لو أردت النجاة..

على الأقل أن تحاول ذلك..

** * * * **

ربط لنا عليه الصلاة والسلام الولادة بالحج، يوم قال «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». [١٣٦].. كان من المفترض أن يرتبط معنى هذا الركن بالصورة الذهنية للولادة.. لكننا قسرناه فقط على معنى المغفرة..

الولادة أكبر من هذا وأوسع.. الولادة عالم جديد، ورؤية جديدة، الولادة عبر الحج، بعد مخاض الشعائر، **هي أن يولد فيك الإنسان الذي يجب أن تكونه..**

هي أن تجد نفسك أخيرا، بعد طول ضياع، ضياع قضيت فيه حياتك السابقة دون أن تدري أنه ضياع أصلا..

تجد ذاتك الحقيقية، ذاتك التي هي جزء من هذا العالم، والتي بدونها سيكون وجودك مثل هباء قضيت حياتك في صنعه..

أن تلد من جديد، هذه المرة بكامل وعيك وإرادتك..

** * * * **

وفي موروثنا، ثمة واقعة أخرى، ربطت الولادة بالحج، بطريقة ما..

.. أن ابن عمر رضي الله عنهما رأى رجلا يطوف بالبيت حاملا أمه، وهو يقول: أتريني جزيتك يا أمه؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «أي لكع ولا طلقة واحدة» [١٣٧].

يحملها على ظهره، ويطوف بها، يسألها، تراني وفيتك حقك؟

يقف له ابن عمر بالمرصاد، أي لكع، ولا طلقة واحدة..

واللكع هو اللئيم صغير العقل والعلم.

إنه يعتقد أن أداءه لبعض الشعائر سيسقط عنه دينه، وحمله، ومسئوليته..

---

١٣٦ صحيح البخاري ١٨١٩

١٣٧ أخبار مكة للفاكهي ٦١٥

إنه يعتقد أن الشعائر تسقط ما يجب فعله، بدلا من أن تكون تقوية لنا للمزيد من الفعل والعمل والأداء..

لكع، لئيم في العطاء، يحسبها مثل المرابي اليهودي، يريد أن يقدم بالضبط أقل ما يمكنه، مقابل العطاء الأقصى الذي حصل عليه..

لكع، صغير في العقل والعلم، **لا ينظر إلى الشعائر إلا كحركات بدنية، يؤديها وينتهي الأمر، بدلا من أن يؤديها ليبدأ الأمر..**

لكع هذا، هل يذكركم بأحد؟

أم هل يذكركم بمن يفعل أقل من ذلك؟

ليس مع أمه فقط..

بل حتى مع نفسه..

وأيضا، من باب أولى..

مع أمه الأخرى..

أمته..

لكع المعاصر، يؤدي الشعائر ليتخلص من واجبه، حتى تجاه نفسه.. وبالتأكيد نحو أمته..

** * * * **

المشكلة أن لكع، يعتقد أنه قد أدى قسطه للعلي، بمجرد تمكنه من أداء شعائر الحج..

** * * * **

بين لكع الذي تقمصناه بأقصى المعاني..

وبين ذاك الذي حج فعاد كما ولدته أمه، بون شاسع، مسافة شاسعة..

بين الحج كما يجب أن يكون..

وكما جعلناه يكون..

** * * * **

غالبا ما نعود ومعنا، قنينة، بل أوان، ملآنة بماء زمزم..

نحرص على غلقها قبل السفر جيدا، حرصا على ماء زمزم، وعلى أن لا ينسكب الماء منها فيتلف بقية المتاع..

لكن ثمة قنينة أخرى، افتراضية هذه المرة، لا ننتبه لها..

قنينة علينا أن نتركها مفتوحة..

أحمد

كل الحج كان من أجل تركها مفتوحة..
إنها القنينة التي يجب أن ينطلق منها العملاق في داخلك..
تذكر أن لا تتركها مغلقة..
لأنه لو حدث وعدت قزما، كما ذهبت، فهذا يعني أنه ربما لم..

** * * * **

أو أقول..

دعك من القنينة.. لا تنشغل كثيرا بها.. فليس ثمة قنينة في العالم قادرة على استيعاب ذلك الطوفان الذي يفترض أن ينطلق في داخلك، الطوفان الذي يغمرك أولا ليغسل في داخلك كل أدرانك، ثم يمهدك لتكون أرضاً جديدة.. طوفان محمد الذي يمكن أن يجعلك إنسانا جديدا يذوب في الطوفان المنير البناء، كما ذاب بين الجموع في الطواف حول الكعبة..

طوفان محمد، الذي يمكن أن يكون علامة فارقة في تاريخك الشخصي، فتكون حياتك مؤرخة بما قبل الحج - الطوفان، وما بعده..

ذلك الطوفان، الذي لو أحسنا وضع السدود حوله، في نفوس الجموع التي تشكله، لو جعلنا جموعه تفهم حقا معنى ما تفعل وهدفه، لو جعلناها تعلم حجم إمكاناتها الكامنة المهدرة.. لصار علامة فارقة في تاريخ البشرية بأسرها..

فإذا ذكر طوفان نوح بأنه غمر الأرض بالماء..

فسيذكر طوفان محمد بأنه غير الأرض.. غمرها بقيم العدل والعدالة.

جعلها مكاناً أفضل للجميع..

قلت: لو.. لو أحسنا وضع السدود حوله.. لو جعلنا الجموع تفهم... إلخ.

و(لو) أداة شرط..

جوابها، هذه المرة، عندك..

أحمد

٢٠١٣/٤/٣٠

الفهرس

إهداء ١

مقدمة ٢

الفصل الأول..خلف أسوار الحج ٩

الفصل الثاني..الحج بأبجدية اقرأ ٥٢
لماذا يحج الناس؟ ٥٣
ما هو الحج؟ ٥٩
المقصد، ركناً من أركان الإسلام ٦٢
البرهان والحجة ٦٤

الفصل الثالث..معالم على الطريق..إلى الحج ٦٦
مشهد العقل ٦٩
مشهد الهدم ٧٤
مشهد السنن ٨٠
مشهد القلب ٨٥
مشهد الأمل ٨٩
مشهد الدمار ٩٦
مشهد الزرع ١٠٠
مشهد الذبح ١٠٣

الفصل الرابع..الحج خطوة خطوة ١٢٠
النية.. .... ١٢١
الميقات: البعد الآخر للزمان والمكان! ١٢٥

الإحرام.. أن تكون حراما ١٢٩
لاءات الحج الثلاث ١٤٠
لا فسوق.. .... ١٤٥
لا جدال.. .... ١٤٨
التلبية: صوت صارخ في البرية.. لكنه خارج من الأعماق ١٥٠
الطواف: الدوران حول المركز ١٥٧
عكس عقارب الساعة.. مع اتجاه السنن! ١٦٢
شعائر القوة ١٦٥
الرقم سبعة! ١٧٠
الحجر الأسود ١٧٤
القرآن في قلب الحرم.. .... ١٨٠
السعي بين الصفا والمروة ١٩٥
زمزم.. (إكسير الحياة) ٢١٠
منى: حيث الرحم المتسع ٢١٧
على قمة العالم! ٢٢٦
الاقتراب رويدا.. .... ٢٤١
مرحبا يا معارك المصير! ٢٤٣
عن الجيل الآخر، القادم لا محالة ٢٥١
حلق عاليا.. .... ٢٥٥
حجة الوداع، حجة اللقاء.. .... ٢٥٧
عن طوفان آخر ، قادم لا محالة ٢٧٤
طواف الوداع؟ ٢٨٠



تعودنا أن نؤدي الشعائر دون أن نفكر في معانيها، فكنا كمن يمر بجبل ضخم وهو يجهل كم من كنوز وثروات مطمورة فيه، كذلك الشعائر، فيها من كنوز المعاني والمفاهيم ما يمكن أن يسهم في صنع إنسان مسلم حقيقي فاعل ومتفاعل وقادر على أداء ما خلق لأجله.. لكننا نمر بها وبالقرب منها ونحن نجهل ذلك..

رحلة الحج هي بطريقة ما رحلة شعائرية بحثا عن الذات، هذه الرحلة بين مكة ومنى وعرفة يمكن أن تكون رحلة داخل مجاهل ذاتك التي لم تزرها من قبل، مجاهلك المليئة بالإمكانات والقدرات التي لم تعرف بوجودها مسبقا، في اللحظة التي تدخل فيها هذه المجاهل عبر رحلة الحج، تفقد مجاهلك هذا الوصف.. لتصبح أراضي بكراً يمكن استثمارها في كل خطوة من خطوات حياتك.

سواء كنت قد قمت بأداء فريضة الحج، أو كنت تنتظر ذلك بشوق، فإن عليك أن تفهم هذا الارتباط الوثيق بين الرحلتين، بين رحلة الشعائر، ورحلة البحث عن الذات...

صحيح أنه واد غير ذي زرع، لكن أرضه حبلى باحتمالات الطوفان..

طوفان مختلف عن طوفان نوح..

طوفان نوح اجتاح المعمورة،

وطوفان محمد، سيعمر المعمورة..

أول الطوفان قطرة..

قطرة فهم تسري في عروق إنسان جديد..



د. أحمد خيري العمري

ولد في بغداد عام ١٩٧٠م، وتخرج طبيبا للأسنان من جامعتها، منذ أن أصدر كتابه الأول «البوصلة القرآنية» في عام ٢٠٠٣م وهو يقدم منهجاً مختلفاً عن النمط التقليدي، حيث يعتمد على النصوص الثابتة لإعادة تشكيل العقل المسلم والمفاهيم الإسلامية، بمعزل عن ما تراكم على هذه النصوص من مفاهيم نشأت خلال العصور المتعاقبة.

بين جمود التقليديين، وتفلت بعض التجديديين، قدم العمري منهجاً منضبطاً قد يكون هو الجواب بالنسبة للكثيرين ممن يستشعرون عدم جدوى الاستمرار في الجمود، ويرون الهاوية في التفلت.

له اليوم أكثر من ثمانية كتب مطبوعة وعشرات المقالات التي نالت اهتماماً كبيراً من مختلف الفئات العمرية.



القرآن.. لأمة قائمة